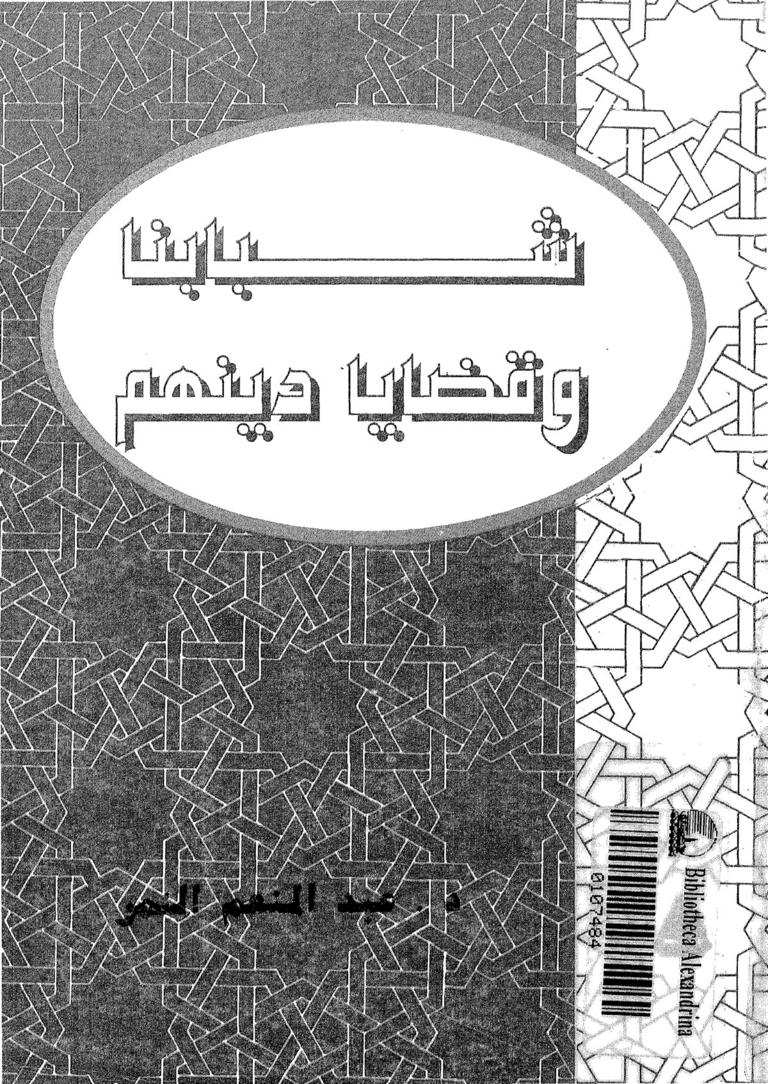

شبابنا
وقضايا دينهم
د. عبد المنعم النمر

شبابنا

وقضايا دينهم



وقضايا دينهم

وكيف يرد على المهاجمين للإسلام

د. عبد المنعم النمر



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

تقديم

والحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإيمان ، والصلاة والسلام على سيدنا وهادينا وشفيعنا محمد خاتم رسل الله الكرام

وبعد

فقد كنت فرغت من كتابة تفسير آية من سورة « محمد » المسماة أيضاً « سورة القتال » وهي قوله تعالى ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ وتحدثت في تفسيرها عن موقف الاسلام من الاسترقاق ، وما ولغ فيه أعداء الإسلام من تهجم عليه ، من أجل إقراره للرق ، والح علي ـ وأنا أكتب هذا الموضوع ـ خاطر طالما راودني ، وكانت المشاغل تحول بيني وبين التوفر للكتابة عنه ، وهو تقديم مادة علمية دينية مبسطة ، وسهلة لشبابنا ، عن الموضوعات التي يثيرها الغربيون ، ويجرحون بها ديننا ، هم ، ومن يعمل على شاكلتهم ، سواء من الماديين ، الذين يرفضون الأديان جملة وتفصيلاً ، أم من غيرهم .

وقدر الله ، وأنا أعيش في هذا الخاطر ، أن يركن إلي شاب ـ وأنا في جلسة عائلية ـ ويجلس بجانبي ، وقد عاد حديثاً من لندن يحمل شهادة الدكتوراة في الهندسة ، وقال لي : عندي بعض المشكلات

الدينية ، حملتها معي من أوروبا ، وكادت تشككني في ديني ، وأريد أن أعرضها عليك ، وكان الوقت والظرف ضيقاً ، فقلت له : هات أهم ما عندك الآن .

قال لي : مسألة السبايا والأرقاء . وأنت تعلم نزعة الشعوب والأفراد-الآن الى الحرية . . . لقد ضايقوني كثيراً بالكلام عن هذا الموضوع وغيره ، ولم أكن مهيأ للرد عليهم ، لأننا في مصر ونحن في المدارس والجامعات ـ كما تعلم ـ لا نعني ، ولا يعتني أحد بتقديم مثل هذه الموضوعات لنا ، أو بالقراءة عنها ، بينما أحسسنا حين سافرنا ، وأصبحنا قلة في وسط محيط من البشر يغايرنا في ديننا ، ويتوثب في كل لحظة للانقضاض عليه ، أحسسنا شدة حاجتنا لدراسة هذه الموضوعات ، أو القراءة عنها ، وتولدت فينا حساسية خاصة من الغيرة على ديننا ووطننا ، ربما لم نكن نحسها ونحن في مصر . . وأصبح عندنا ما يمكن أن تعبر عنه بعصبية قوية خاصة نحو الاسلام . ولكن كان يصيبنا العي ، حين نريد الدفاع عنه ، في الوقت الذي يكاد فيه كلامهم أن يؤثر علينا . . .

قلت له : إنني أعرف هذا ، وأقدره ، وأفكر فيه ، وتحدثت معه عن موضوع الرق حديثاً موجزاً أملاه الظرف الذي كنا فيه ، وقلت له : يمكن أن تقرأ كلاماً موسعاً عن هذا الموضوع في العدد الآتي من جريدة « السياسي » التي أنشر فيها التفسير . .

وعدت وأنا أفكر جدياً في الكتابة عن هذا الموضوع وغيره ، وفي نشر ما أكتب بوسيلة أكثر شيوعاً وسهولة لدى القراء . . . حتى يقرأه عشرات ، أو مئات الآلاف ، لا بضعة آلاف كما هو الشأن في الكتب . . .

وكتبت أول مقال ودفعته للأخ الاستاذ صلاح منتصر نائب مدير تحرير الأهرام ، والمشرف على صفحة المقالات فيه ، فنشره ـ مشكوراً ـ وتلقيت عدة مكالمات تليفونية ممن أعتز بهم ، تشرح الصدر ، فزاد هذا وذاك من نشاطي للكتابة . . . وتتابعت المقالات في « الأهرام » ولكن في بطء وبعد زمني ، مراعاة لظروف النشر والضغط عليه في الصفحة ، بينما كنت أواصل الكتابة ، حتى انتهيت من الموضوعات التي أريد الكتابة عنها ، مراعياً الا يطول الحديث ، وألا يكبر حجم الكتاب ، حين أخرج ما كتبت في كتاب ، حتى لا يكبر ثمنه ، في وقت ارتفع فيه ثمن الورق والطباعة ، وحتى تسهل قراءته . . .

وأثناء نشر المقالات عرض على أحد المتخصصين في اللغة الانجليزية ومن أساتذتها ، وهو متحمس للمقالات ، أن يقوم بترجمتها فأسعدني هذا العرض ، ووددت من كل قلبي أن يتم ، حتى يقرأه غير المسلمين ، وغير العارفين باللغة العربية . . . ويلموا بنظرة الاسلام في الموضوعات التي تحيك في صدورهم ، وهو الهدف مما أكتب . . .

وها أنذا أقدم للقارىء ما كتبت ، وأرجو أن أكون قد وفقت ، ولو بعض التوفيق ، فما كل ما يتمنى المرء يدركه ، وفوق كل ذي علم عليم . . .

وحسبي أنني أخلصت لله عملي ، في كل كلمة كتبتها ، وفي كل جهد بذلته ، راجياً من الله سبحانه أن يوجه قلوب أخواني وأخواتي وأولادي ـ الشبان والشابات ـ الى قراءته ، والانتفاع به ، ولا سيما الذين يسافرون للخارج ، أو يحتكون كثيراً بغير المسلمين . . .

ليزدادوا ثقة بدينهم وقضاياه . وليحسنوا الدفاع عنه ما استطاعوا . . .

والله هو صاحب الفضل ، وصاحب العطاء ، وهو ولينا ومولانا، ونعم المولى ونعم النصير . .

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا ﴾ . . .

دكتور عبد المنعم أحمد النمر

٤٠ شارع صالح حقي ـ مصر الجديدة

همسات لابد منها أولا

قبل أن يأخذك هذا الكتاب معه ، وقبل أن ترتاد جوانبه ، أحببت أن أسوق لك هذه الهمسات أولاً لتظل فى أذنك باستمرار ، وحيث تكون ، تقول لك : أنت أصيل . . . فاحرص على أصالتك . . . لا ترفع الراية البيضاء ، وتسلم نفسك . . .

أنت[1] لك حضارتك المتميزة ، التي تحلق بجناحين ، من المادة ، والروح . . .

وحضارة كل أمة ، تقوم على مفاهيمها التي تصوغ عليها حياتها ، ولا يمكن لأى انسان أن يدعي أن هذه المفاهيم أو « الأيديولوجية » واحدة ، أو مشتركة لدى جميع الأمم ، ومن هنا كان للحضارات مناطق نفوذ ، وحدود تفصلها عن غيرها ، كما تضع الحدود على أرضك ، وحول بيتك . . .

وإذا كانت كل دولة تضع لها حدوداً مع الدول المجاورة ، وتدافع عنها ، وتحميها من الاعتداء عليها بدمائها وأرواحها ، وإذا كنت لا

---

(١) مستمد مما كتبته في « حضارتنا وحضارتهم » إصدار دار المعارف .

تقبل الاعتداء على أرضك ، أو على حدود بيتك . . فمن الطبيعي والضروري ، أن تحمي كل أمة ثقافتها وحضارتها ، وتحافظ عليها من أي دخيل ، ومن أي غزو خارجي يهزها ، فحضارتها وقيمها ، يجب أن تكون أعز وأكرم عليها من أرضها . . . فاستقلالك الشخصي ، وعزتك في نفسك وفي قيمك هي أصل لعزتك بين الناس . . .

فمن يهن يسهل الهوان عليه

وإذا كان من غير المقبول لدى أي انسان أصيل ، أن يتنكر لأصله ، وأن يدعى لغير أبيه وأسرته ، فمن غير المقبول كذلك أن يتنكر شعب لأصله ، ولحضارته التي صاغت تاريخه وحاضره ، ورسمت معالم شخصيته ، ويتطفل على حضارة شعب آخر ، ويتمسح بها ، ويستعير ملامحها « ويرقص على السلم » لأن ذلك يكون مدعاة لازدرائه ، حتى ممن يتمسح بهم ، ويستعير منهم ! . . .

فليس كريماً لأي شعب ، أن يكون كالحيوان الضال ، يدور على كل بيت ، ويهز ذيله لكل من يلقاه ، ويلتقط رزقه من كل باب ، وكل يد ، لا سيا اذا كان عنده بيته ، يجد فيه ما يكفيه .

إذا عرفت هذا ، وآمنت به ، فثق أن أي إنسان ، أو أي هاتف نفسي من داخلك ، يدعوك إلى أن تقتبس من الحضارة الغربية أو الشرقية الماركسية ، حلوها ومرها ، مما يتلاءم مع أصالتك منها ، إنما هو شيطان ، يدعوك الى الهلاك وإلى الهوان .

إنك لا بد أن تعلم . . .

١ - إن الاسلام دين له عقيدته ، ونظامه الكامل الشامل للحياة ، القائم على أصول هذه العقيدة . . .

٢ - إن الاسلام يعتبر أن نظامه الذي وضعه للحياة ، جزء منه لا يتجزأ ، ولا يسمح بأي تفريط فيه ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ .

٣ - وإن الأمر ما دام كذلك ، فلا بد أن الله مشرع النظام ، والقائل لنا هذا ، قد جعل هذا النظام صالحاً لكل زمان ومكان ، بحيث لا نحتاج في حياتنا لسواه .

٤ - إن كل دين أو مذهب ، له قواعده ، ونظرياته الأساسية ، وله شخصيته المستقلة ، وملامحه التي تميزه عن غيره ، والمستمدة من هذه القواعد ، والنظريات الأساسية العامة . . .

٥ - فالاسلام له قواعده وشخصيته ، المستمدة من جلال مبدعه ومشرعه ، والماركسية لها قواعدها ونظرياتها ، المستمدة من عقل ونفسية منظمها ، والمحدودة بقدرته وعلمه ، ونفسيته ، والغرب له حضارته ونظمه ، التي تعارف عليها وأقام حياته على أساسها .

وهذه القواعد والشخصية متغايرة فيما بينها : في الاسلام ، والماركسية ، وفي الغرب ، فمن الطبيعي ألا تلتقي أية واحدة منها مع الأخرى وتنسجم ، فيما يقوم عليها أو يقوم بها من نظم وتشريعات . . . .

٦ - إن من المتفق عليه - عقلاً وواقعاً - أن كل نظام له شخصيته ، يرفض أي دخيل عليه ، يهز هذه الشخصية ، أو يفسر النظام ، ويعتبر ادخال أي نظام غريب عليه تخريباً له ، يقاومه بالشدة والصرامة ، ويعتبر أي انسان من أتباعه ، يعتنق أي فكر غريب

مخرباً للنظام ، وخطراً عليه . . . حتى وجدنـا النظـام الشيوعـي يستعمل كلمة « مرتد » لمن يشم فيه رائحة ميله للنظام الغربي أو الاسلامي ، وينزل به أشد العقاب . . . .

وكذلك الحال في المجتمع الغربي ، وغيره من المجتمعـات غـير الشيوعية ، فإنها تعتز بنظامها ، وتحارب تسرب أي فكر شيوعي إليه .

٧ ـ وهنا نضع الاسلام وأنظمته ، كدين منفـرد ، ومنهـج للحياة ، قائـم على أسـاس هذا الـدين ، ويخـالف ما عنـد المعسـكرين الآخـرين . . فلا عجـب اذا حرص ، وحـرص أتباعـه على شخصيته ، وقواعده ، وأنظمته ، ورفض أي فكر أو نظام دخيل عليه ، يؤثـر على فكره ونظامـه ، وخصـائص مجتمعـه . . . ولا عجب إذا هاجم كل من يتسبب في ذلك ويسعى إليه . . . فهذا شيء طبيعي عندنا وعند غيرنا .

٨ ـ وليس هذا تعنتاً مفتعلاً ، أو مجرد عصبية فارغة . . . بل إنه وسيلة للحفاظ على الحياة . . حياة الدين ، أو المذهب ، أو النظام . إذ يمكن تشبيه هذا النظـام أو ذاك ، بالماكينـة أو الجهـاز المكون من أجهزة كبيرة وصغيرة ، لها مواصفاتها الخاصة . . . ولكل منها دور يؤديه ، في ادارة هذا الجهاز ، ليؤدي الغـرض منـه . ولا بد أن تعمل كلها ـ صغيرها وكبيرها ـ ليدور . . هذا مشاهد في الأجهزة المادية ، من أصغر جهاز ، الى أعتى جهاز . . . حتى نرى روسيا وأمريكا تتسابق كل منهما في صنع أجهزة للحـرب ، لا يعرفهـا غيرها ، وتحاول كل منهما التعرف على أسرار صنع الطائـرة ، أو الصاروخ . . الخ . .

وكذلك الحال في الأنظمة الاجتماعية المستمدة من الدين ، أو المذهب ، لا في سريتها ، ولكن في شخصيتها وطبيعة عملها ، ومدى اتصالها بالقاعدة التي تقوم عليها . . . وفي مواصفات كل نظام من أنظمتها . . . وفي الجو المحيط بها الذي تعمل فيه ، لا يمكن أن تأتي بنظام من الشرق له فلسفته ونظريته ، والقوانين الأخرى التي تسنده ، وتزرعه في مجتمع إسلامي ، أو غربي ، مغاير له في أسسه ، وفي القوانين الأخرى السائدة فيه . . والأمر بالعكس . . .

كما لا يمكن أن تزرع نبات المنطقة الباردة في المنطقة الحارة ، أو العكس . . .

وكما لا يمكن أن يستعمل قطع غيار ماكينة ، لماكينة أخرى تغيرت وحدة المقاس في صنعها ، بسهولة ونجاح مضمون . . .

فإذا لم ينجح هذا الترقيع ، فليس معنى ذلك أن الماكينة الأصلية غير أصلية ، أو أن قطعة الغيار ، غير سليمة أوأصلية ، إنما العيب في أنك تريد الترقيع ، وتضع الشيء في غير موضعه . . .

وكذلك الحال ، إذا أردت أن ترقع النظام الاسلامي ، بنظام آخر شرقي أو غربي ، أو العكس ، فإنك لن تنجح في هذا الترقيع ، لأنك تكلف الامور ضد طباعها . . . وتضع الشيء في غير موضعه . . .

ومن هنا يخطىء الذين يريدون أن نقلد الغرب أو الشرق ، ونستعير منه بعض الأفكار أو التقاليد ، يخطئون خطأ فاحشاً ومركباً . . وذلك من ناحيتين : من ناحية محاولاتهم زرع أشياء غريبة عن جوها وعما حولها . . . ومن ناحية حكمهم على الاسلام بأنه غير صالح إذا

رفض الغريب عنه ، أو لم يستطع التعايش معه .

إن رفضه للغريب دليل على متانته ومناعته ، كما يرفض الجسم التأثر بالمرض حين يحقن بمصل منه ، كالجدري وشلل الأطفال وغير ذلك . . . فإذا تأثر الجسم ولو قليلاً بالمصل ، قلنا إن فيه استعداداً لهذا المرض ، فرفضه وعدم التأثر به دليل على مناعته وصحته . .

فلا يمكن مثلاً أن يقبل الاسلام أو مجتمعه ، مجتمع الخمر والعربدة ، ولا يمكن أن تعده ديناً متأخراً لأنه لا يقبل ذلك . . ولا يمكن أن يقبل مجتمع الاسلام وهو مجتمع غض البصر كما أسميه ـ هذا المجتمع المفتوح الذي تحكمه نظراته الخاصة نحو المرأة . . . ، ولا يمكن أن تعتبره ديناً أو نظاماً متأخراً ، لأنه لم يقبل ذلك كما يقبله المجتمع الغربي مثلاً . . .

لا يمكن أن نحكم على مجتمع اسلامي ، تقوم مبادىء دينه على تكريم المرأة ، والارتفاع بها عن أن تكون لعبة أو ملهاة لمتعة الرجل ،

أن يقبل ما يسود المجتمع الغربي من نظرة للمرأة ، وتمتع بجسمها وأنوثتها ، ومن حرية مفتوحة بين القطبين ، تحكمها الغرائز . . . وإلا كان ديناً متأخراً لا يصلح للحياة . .

لا يمكن لدين تقوم مبادئه على منع استغلال الانسان لأخيه الانسان ، وأن يبتز الغني حاجة أخيه الفقير ، ويأخذ منه ربا نظير معونته ، أن يقبل قواعد النظام المالي في الغرب ، الذي يفتح صدره للاستغلال ، وإلا كان ديناً متأخراً لا يصلح للحياة . .

فمن المهانة للمسلم ، أن ينظر لدينه ونظامه بمنظار غيره أو يقيسه على مقياس غيره من المذاهب والنظم . . . ويتنازل عن دينه

ومقاييسه ، ونظامه ، وشخصيته . . ويكون تابعا ، ويجعل دينه معه تابعاً لغيره . .

■ أنت أنت الانسان :

إن المسلمين بدينهم ونظمهم ، يمثلون المثل الأعلى للانسان على هذه الأرض في كل شيء ، باعتبار أن دينهم ونظمهم من صنع العلي الأعلى ، باعتبار هذه النسبة الشريفة يكون من المهانة الكبرى لهم ، ومن الدناءة ، أو « الدناوة » ، أن يسيل لعابهم على أنظمة أخرى ، لا تصل في سموها ، ولا في شرفها ، ولا في فعاليتها الى نظمهم . . .

ومن المهانة أو من الضعف الكريه للمسلم ، أن يتسرب إليه أي شك ، أو يقع عليه أي تأثير ، في إيمانه بدينه ونظمه من خلال ما يراه ، أو ما يسمعه من هنا ، أو هناك .

ومن المهانة والضياع للمسلم ، أن يظل بعيداً عن نبعه الذي يرويه الله منه ، أو يقطع الحبال التي تربطه بربه ، فتهوي به الريح في مكان سحيق . ويعيش سائلاً على الأبواب ، أو ضارباً في الصحراء ، ملتمساً شربة ماء . .

من المهانة والضياع للمسلم أن يترك المخربين الحاقدين عليه ، يهدمون نبعه ، أو يعكرون عليه ماءه . . أو يلوثون عليه طهارته وصفاءه . .

■ فاعرف نفسك :

أيها المسلم إن الأرض والسماء لك
ضياؤك القدسي أعلى من شرارات الفلك

أنت كنـز الـدر واليـاقـوت فـي مـوجـة الـدنيـا وان لـم يعرفوك
محفـل الأجيـال محتـاج إلى صوتـك العـالي وان لم يسمعوك

قـم وانشـر التوحيـد في الـدنيـا ووحـد الأمـم
فانت خيـر مـن دعـا وأنـت خيـر مـن حكـم

بهذه النبضـات الحية القـوية ، نبض قلـب الشاعـر الفيلسـوف المسلم « محمد إقبال »(٢) وحولها الى هذه الموسيقى الشاعـرية شاعرنـا العربي المرحوم الشيخ الصاوي شعلان . . .

وبودي ، وقد أحسست قلبي يتجاوب مع إقبال في نبضات قلبه ، وتراقصـت في روحـي منهـا عزة المسلـم ، بودي أن أزيدك من هذه النبضات ، أو هذه الفيوضات ، ففيها غذاء حلـو للـروح ، ونشـوة كبرى للقلب ، وهـزة روحية للوجـدان ، واعتـزاز قدسي بالنفس ، وعثور حقيقي على الـذات . . . ولتنشـد مع الشاعـر هذه النبضـات والومضات :

[نبضات روح]

إن هـذا العصر ليل فأنر أيهـا المسلـم ليل الحائرين
وسفـين الحـق في لج الهوى لا يُرى غيرك ربـان السفين

ليس في الوقـت فراغ فاعتزم وامـلأ الـدنيا بأعمال شريفة
أنـت نور الأرض تهـدي أهلها لن يُرى غـيرُك في الأرض خليفة

---

(٢) من أبرز شعراء العصر الحديث باللغة الأوردية ، كان شعره ، نبض قلبه ، وقلب كل مسلم .

نحـــن بالإيمـــان نبنـــي عزمنا لا نبـــالي الهـــول أو نخشى الصعابا
وإذا الباغـــي رمـــى في غرسنا جذوة الظلـــم جعلناهـــا ترابا

ذهـــب اليونـــان والرومـــان والـــ ـــفـــرس قديمـــاً وفراعـــين الزمان
وهـــدى الاســـلام ما زال على قمـــة الـــدنيا يدوي بالآذان

معيشـــة الفـــرد خيال والبقـــاء لـــلأمـــم
فكـــن فـــداء المبـــدأ الـــ أعلـــى إذا نـــادى العلـــم

منـــزلك العلـــوي لا تحجُـــب صرحـــه الغيـــومْ
أنـــت من الجيـــش الـــذي غبـــار خيلـــه النجـــومْ

في العـــالـــمَ الأول مـــن مطـــالـــع الأنـــوار كنـــت
والنـــاطـــق الأخيـــر فـــي رســـالـــة الـــرحمـــان أنـــت

قد كان هذا الـــكون قبـــل وجودنا روضـــاً وأزهـــاراً بغـــير شميم[٣]
بل كانـــت الأيام قبـــل وجودنا ليلاً لظالمهـــا وللمظلوم
لما أطـــل « محمـــد » زكت الربى وأخضر في البستـــان كل هشيم

= وكانت له نظراته الفلسفية التي عد بها من فلاسفة الاسلام ، كما كان أول الاصوات دعوة لقيام مجتمع مسلم مستقل في الهند تمثل في « باكستان » حتى تكون للمسلمين شخصيتهم ويكـون لهم نظامهم الاسلامي . . . ولد سنة ١٨٧٦ ، وتوفي سنة ١٩٣٧ ، ودفن في لاهور . وقبره معروف ، من معالم باكستان ، بجوار مسجد « بادشاهي » زرته مرتين . كانت آخر مرة في إبريل سنة ١٨٩١ . . . وقد نشر عنه وترجم الكثير باللغة العربية . وهـذا الشعر مستمـد من كتاب « فلسفة إقبال » ترجمة محمد حسن الأعظمي ، وشعر الصاوي شعلان . .

(٣) رائحة طيبة .

وأذاعت الفردوس مكنون الشذى   فإذا الورى فى نضرة ونعيم

وناج ربك كما يناجيه :

من قام يهتف باسم ذلك قبلنا   من كان يدعو الواحد القهارا
هل أعلن التوحيد داع قبلنا   وهدى الشعوب اليك والأنطارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا   لم نخش يوماً غاشماً جبارا
كنا جبالاً في الجبال وربما   سرنا على موج البحار بحارا
بمعابد الافرنج كان أذاننا   قبل الكتائب يفتح الامصارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة   خضراء تنبت حولها الأزهارا
لم نخشَ طاغوتاً يحاربنا ولو   نصب المنايا حولنا أسوارا

ويتحدث عن أمجادك عما يتحدث به :

كم زُلزل الصخر الأشم فما وهى   من بأسنا عزم ولا إيمانُ
لو أن آساد العرين تفزعت   لم يلق غير ثباتنا الميدانُ
وكأن نيران المدافع في صدو   ر المؤمنين الرَّوحُ والريحانُ
توحيدك الأعلى جعلنا نقشه   نوراً تضيء بصبحه الأزمانُ
فغدت صدور المؤمنين مصاحفاً   في الكون مسطوراً بها القرآنُ

بلغت نهاية كل أرض خيلُنا   وكأن أبحرها رمالُ البيد
في محفل الأكوان كان هلالُنا   بالنصر أوضح من هلال العيد
في كل موقعة رفعنا راية   للمجد تعلن آية التوحيد
أمم البرايا لم تكن من قبلنا   إلا عبيداً في إسار عبيد
بلغت بنا الأجيال حرياتها   من بعد أصفاد وذل قيود

وتجاوب مع صرخته المؤمنة الى قلب كل مسلم :

العمـــر لا يقـــاس بالأعوام والعقـــل لا يقـــاس بالأحجام
واليوم من عمـــر أســـود الأجَمْ بألف عام من حياة الغنم
عش ساعـــة في لجـــج البحار ومـــت شهيد الموج والتيار
ولا تعش دهـــرك عيش الخامِل مقيداً بـــين صخـــور الساحلِ
الموت في الوغـــى وفي الميدان ولا حياة الأسر والهوانِ

وتأمل معه قصة فراشة :

رأيت الفراشـــة حول السراج تحـــوم على ناره بالجناح
فحاولـــت إنقاذهـــا فانثنت تعاتبنـــي في مقـــال صراح

هبونـــي من دهـــركم لحظة أمـــوج بهـــا في اللهيب اضطرابا
أنـــال بهـــا شرفـــاً في الجهاد وأصبـــح من بعـــد هذا ترابا

أحـــب احتراقـــي بنـــار اشتياقي ولا أرتضي عيشـــة الخاملين
فنـــاء الفراشـــة في النـــار يعلو حياة الجبـــان طوال السنين

إن الجبـــان يمـــوت في أوهامه حذر المهات وخوفـــه يفنيه
والحـــر تسعـــده المواطـــن كلها بالعيش حتـــى موتـــه يحييه

واسمع نداءه وحديثه للمسلمين :

لقـــد ذهـــب الوفـــاء فلا وفاء وكيف ينـــال عهـــدي الظالمينا
إذا الايمـــان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومـــن رضي الحياة بغـــير دين فقـــد جعـــل الفناء له قرينا
وفي التـــوحيد للهمـــم اتحاد ولن تبنوا العـــلا متمرقينا

تساندت الكواكب فاستقرت ولولا الجاذبية ما بقينا

فماذا فعلتم بأنفسكم ؟!

غدوتم في الديار بلا ديار وأنتم كالطيور بلا وكور
وكل صواعق الدنيا سهام لبيدركم[٤] وأنتم في غرور

أما كانت جدودكم الأوالى بناة المجد والفن العجاب
وليس لكم من الماضي تراث سوى شكوى العذاب والاكتئاب
ومن يك يومُه في العيش يأسا فما غده سوى يوم العذاب

ألم يبعث لأمتكم نبي يوحدكم على نهج الوئام ؟
ومصحفكم وقبلتكم جميعا منار للاخوة والسلام
فما لنهار الفتكم تولى وأمسيتم حيارى في الظلام ؟
وحسن اللؤلؤ المكنون رهن بصوغ العقد في حسن النظام

أرى التفكير أدركه خمول ولم تبق العزائم في اشتعال
وجلجلة الأذان بكل أرض ولكن أين صوت من بلال ؟
منائركم علت في كل حي ومسجدكم من العبّاد خالي

فأين أئمة وجنود صدق تهاب شباة[٥] عزمهم الحراب
اذا صنعوا فصنعهم المعالي وإن قالوا فقولهم الصواب
مرادهم الإله فلا رياء ونهجهم اليقين فلا ارتياب
لأمتهم وللأوطان عاشوا فليس لهم الى الدنيا طِلاب

(٤) البيدر : جرن القمح والحصاد . .
(٥) الشباه : طرف السيف

هذا هو أنت .. وهذه رسالتك :

أعـد من مشرق التـوحيد نورا يتـم به اتحـاد العالمينا
وأنـت العطـر في روض المعالي فكيف تعيش محتبسـاً دفينا ؟
وأنـت نسيمه فاحمـل شذاه ولا تحمـل غبـار الخاملينا
وأرسـل شعلـة الإيمـان شمسا وصـغ من ذرة جبـلا حصينا
وكن في قمـة الطوفـان موجا ومزنـا يمطـر الغيث المتونا

خذوا إيمـان إبـراهيم تنبت لكم في النـار روضـات النعيم
ويذكو من دم الشهـداء ورد سنـيُّ العطـر قدسي النسيم

خلافـة هذه الأرض استقرت بمجـدك وهـو للـدنيا سماءُ
وفي تكبـيرك القـدسي يبدو صغـيراً كلُّ ما ضم الفضاء
فيا من هب للاسـلام يدعو وأيقـظ صدق غيرتـه الوفاء
سترفـع قدرك الأقـدارُ حتى تشاهـد أن ساعـدك القضاء
وقيل لك احتـكم دنيا وأخرى وشأنـك والخلـود كما تشاء

من أجل شخصيتنا اعرف نفسك ، واعرف خصمك

من أجل أن تشعر بالحياة وطعمها . .

ومن أجل أن تشعر بقيمتك فيها . .

ومن أجل أن تحتفظ بتوازنك ، وتثبت أمام تياراتها . .

لا بد أن تعرف نفسك : ومن أنت ؟

ما موقعك بين العالم الذي تعيش معه وما شخصيتك ؟

ما دينك ، وعقيدتك ، ونظامك الذي تتبعه في حياتك ؟

ولا بد أن تعرف خصمك وعدوك .

وتعرف التيارات التي تهب منه عليك ، لتعد نفسك لاستقبالها بما يناسبها .

وتعرف أنواع السهام والقذائف التي يوجهونها إليك ، لتقي نفسك وحياتك من آثارها .

وتعرف نفسيته ، وكيف تتعامل معه .

لا بد أن تعرف نفسك ، وتعرف غيرك .

لتستزيد من فضائلك ، وتحتفظ بموقفك وشخصيتك .

ولتتقي ضربات غيرك ، وتضعه في حجمه الطبيعي ، ولا تمكنه من النيل منك ، ومن شخصيتك ، حتى ولا الالتفاف حولك بغازات الكلام ليخنقك بها . .

لا بد أن تعمل « تقدير موقف » لك ، ولغيرك ، لشخصيتك ، ولشخصية من حولك : أمة كان أو فردا . .

هذه أمور بدهية وأولية ، على كل إنسان من أي مكان ، وفي أي زمان أن يكون على علم بها . .

فإن جهلها ، أو نسيها ، او تناساها ، وترك نفسه في مهب الرياح ، فإنه لا يأمن ان تلقى به هذه الرياح في مكان سحيق . .

أقول لك هذا ـ أولا ـ لتعرف موقفك وشخصيتك ـ انت المسلم ـ في هذا العالم ، وتعرف الذين يخالفونك في دينك ، وفي أمانيك ، ورأيهم فيك ، وخططهم نحوك .

إن شخصية المسلم تقوم اول ما تقوم على أنه مسلم يدين بالله وحده لا شريك له ، وبأن محمدا عبده ورسوله حامل الرسالة الخاتمة إليه ، وبأن شريعته المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ، هي الشريعة التي توفرت لها كل الضمانات لصحتها وسلامتها او صلاحيتها لقيادة البشرية ، وتوفير الأمن والاستقرار لها . .

وأن المخالفين لك خارجون عن سنة الله ، وما يرضاه لعباده .

وأننا مع ذلك لا نتعرض لهم بسوء ، ما داموا مسالمين لنا ولديننا . . . لهم دينهم ولنا ديننا . .

ولكن مع هذه المسالمة ، لا بد أن تعرف : ماذا يقولونه عنك ، وماذا يضمرونه لك ، وما الذي يشكل تصرفاتهم إزاءك ، لا سيا إذا كنت وكانوا في موقف يتيح لهم فرض وجودهم وأفكارهم عليك . .

وذلك لتعمل على حماية نفسك وشخصيتك من الأنهيار أمامهم ، والذوبان في شخصيتهم . .

إن المسلمين منذ وجدوا وسادوا الأرض وعمروها ، وجهوا الأنظار إليهم وإلى دينهم ، وارتعدت القلوب من سرعة زحفهم ، ومن إنتشار سيادتهم . .

ومنذ ذلك الحين تولدت الأحقاد في نفوس المخالفين والمغلوبين ضدهم ، ولكن لم يكن لهذه الأحقاد من أُثر ملموس ، أيام كان المسلمون هم القوة الأولى في هذا العالم . .

وإنما ظهرت الأحقاد بوجهها الكالح منذ بدأ الضعف والتفكك يسري في كيان المسلمين ، فطمعت الأحقاد في الوصول إلى غايتها ، وزادت من ضرباتها لهذا الكيان ، حتى تفتته وتقضي عليه ، ولا تسمح له بالعودة الى التماسك والقوة ، حتى تظل آمنة من خطورته ، إذا ما عادت إليه روحه وقوته من جديد .

وغيرنا يعرف ويوقن أن ديننا هو الذي أقام وجودنا ، وولد فينا قوتنا وعزتنا ، ومهد لنا على الأرض سيادتنا وسلطاننا ، وأن هذا الدين باق على جوهره الأول ، مصدرا صالحا لأن يهب من جديد القوة والعزة لكل أمة يحيا فيها روحه ونظامه . . .

وهم قد استمرءوا مدة طويلة أمة الاسلام ومصالحها وثرواتها ،

لقمة سائغة لهم ولمصالحهم ، ويخافون ان تضيع منهم هذه اللقمة . . ولذلك يوجهون كل ضرباتهم لهذا الدين وأهله وبتركيز ، حتى لا تقوم له قائمة في نفوس أهله . ولا يتركوا فرصة تمر ، ولا مناسبة تسنح لهم ، إلا وجهوا فيها ضربتهم إليه . . وكلما بدت لهم بادرة حياة منه في نفوس اهله ، بادروا إلى الإجهاز عليها وهي في مهدها حتى لا تنمو ولا تقوى[١] . .

والدين ليس جسما يوجهون إليه قذائفهم ليقتلوه ، وينتهوا منه ويستريحوا ، ولكنه روح يسري في الأجسام فتحيا وتقوى ، أو ينحسر عنها فتضعف أو تفنى . . فقوة الاسلام إنما هي في قوة الـولاء له ، والتجاوب معه ، هي في قوة المسلمين ، وسيطرتهم على مقدراتهم ، وحريتهم في إدارة شؤونهم ، وحفاظهم على عزتهم وقوة شخصيتهم ، وصيانة كرامتهم وثرواتهم .

فمصدر قوتنا في الحقيقة وفي واقع الحياة وتجاربها ، وفي نظرنا ونظر الفاهمين ممن يخالفوننا أو يعادوننا في الشرق والغرب هو ديننا .

ومن هنا . .

ومن انتصارات المسلمين الأولين الكاسحة ، وسيطرتهم على

---

(١) عندما قررت مصر طرد القوات المرابطة بينها وبين اسرائيل قبيل حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، تصور العالم أن مصر ستجتاح اسرائيل ، وتصبح قوة يخشى بأسها ، وتحدث « ايزنهاور » الرئيس السابق للولايات المتحدة في برنامج تليفزيوني ، يحذر شعب امريكا من قوة مصر الاسلامية وكان مما قاله إن مصر إذا إنتصرت فستحول البحر الابيض إلى بحيرة إسلامية كما كان في العهود الماضية . . ومن قبل في أيام محمد على حين ظهرت قوة مصر تجمعت عليها دول أوروبا ، وحطمت الأسطول المصري في موقعة « نافارين » حتى لا تهدد هذه القوة الاسلامية المصرية الناشئة آمال ومطامع الغرب في

أملاك الدولة الرومانية الشرقية ، في الشام ، ومصر ، وشمال أفريقيا ، وقفزهم إلى الأندلس وسيطرتهم هناك .

من هذا ومن ذاك ، برز الاسلام والمسلمون كخطر على العالم المسيحي حينذاك ، وتولدت لذلك الأحقاد ، وبدأ التربص بالاسلام والمسلمين . والهجوم عليه ، بتعبئة النفوس ضده في السلم ، وبالهجوم المسلح على أتباعه حين تتاح فرصة هذا الهجوم . . ورأينا على مر التاريخ مشهدا واحدا متشابها يقوم به هؤلاء حين يتمكنون من رقاب المسلمين ، هو مشهد المذابح الرهيبة التي يقترفونها ضد المسلمين ، ونتيجة لما تغلغل في صدورهم من حقد عتيق . .

ورجال الدين والملوك والاقطاعيون في الغرب من قديم ، هم أصحاب المصلحة في زرع الأحقاد ، وفي إثارتها ضد المسلمين ، بكل الصور والاساليب ، وبكل الاختلاقات والأكاذيب على الاسلام وأتباعه . . لتكون هذه الشعوب الغربية على استعداد دائماً لتلبية مطامع هؤلاء وأغراضهم في القضاء على الاسلام والمسلمين في بلادهم .

وقد اشتد سعار هذه الأحقاد ، وهذه الحملات التشويهية ضد الاسلام ، لتحريك اوروبا للحروب الصليبية ، وأثناء هذه الحروب التي استمرت نحو مائتي سنة ، والتي ظهر فيها الحقد الاعمى المتهور بابشع صوره ، حين قتلوا في القدس وحدها حين استيلائهم عليها ، نحو سبعين ألف مسلم . . ولا شك أنه ازداد شدة وسعارا مع خيبة الامل التي ارتد بها الغرب اخيرا عن الشرق الاسلامي .

كما ظهر هذا الحقد بصورة أبشع بعد انتهاء حكم المسلمين في الأندلس فيما ارتكبه مسيحيو اوروبا من فظائع بالمسلمين فاقت كل ما

يتصوره الخيال .

يقول الكونت «هنري دي كاستر و»[1] :

« ولست أدري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى ، وفهموا ما كان يأتي في أغاني القوالين من المسيحيين (مثل شعراء الربابة ، والمداحين الذين كانوا يطوفون بالقرى عندنا وأمثالهم) ، فجميع أغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر ، صادرة عن فكر واحد ، كان السبب في الحروب الصليبية ، وكلها محشوة بالحقد على المسلمين ، للجهل الكلي بديانتهم ، وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد هذا الدين ، ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان ، ولا يزال بعضها راسخا إلى هذه الأيام » !!

ثم يقول ص١١ جوابا عن سؤال طرحه : هل كان المنشدون يعتقدون صحة ما يقولون :

« إن الأختلاط بين المسلمين والمسيحيين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدي على حقيقته ، ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم ، بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم ، فاحتاجوا في ذلك إلى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم بالأوصاف التي تؤثر في نفوس المستمعين . . . وإذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى إلى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين ، الذين يظهر على كتبهم

---

(٢) في كتابه « الاسلامم سوانح وخواطر » كتبه سنة ١٨٩٦ وترجمة من الفرنسية المرحوم أحمد فتحي زغلول باشا ، وقام بطبعه ونشره المرحوم السيد عبد الرحمن الرقوقي - ص ٧ الفصل الأول .

أنهم ميالون للاعتدال ، وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الأقاصيص الخرافية ، مملوءة بالطعن والشتائم في نبي المسلمين ، وكان المصلحون (وهم البروتستانت أيام دعوتهم لاصلاح الدين المسيحي) اشد تعصبا ضده من غيرهم » .

« ولسنا نقيم برهانا على ما نقول غير توجيه نظر القارىء الى مطالعة ما جاء في مقدمة كتاب « ريلان » الذي الفه سنة ١٧٢١ م تحت عنوان : ما هو السبب في أن الناس عامة لا يعرفون من الديانة المحمدية إلا يسيرا ؟ حيث يقول :

« لو أراد الباحثون أن يصموا مذهباً أو طريقة بوصمة الخزي والعار ، نسبوها إلى محمد ، فقالوا : مذهب محمدي ، أو طريقة محمدية وهكذا » !!

« وألف القس « دون ماترينو » كتابا سماه « سراج الكنيسة الذهبي » جاء فيه : ان كتاب محمد لا تلزم قراءته ، بل يجب أن يسخر به ، وأن يحتقر ، ويرمى في النار أنى وجد ، ولا يليق أن يحفظه الناس لأنه عمل بهيمي » !! وهكذا كانوا يقولون ويكتبون ويتقايئون أحقادهم . .

ثم يقول ص١٣ : « ولم يزل هذا الروح سائدا عند المسيحيين ، حتى إن المستشرق « بريدو » الانكليزي ألف سنة ١٧٣٣ كتابا في سيرة النبي عنوانه « حياة ذي البدع محمد » !!

ثم يقول : « وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم أن يشبعوا خصمهم سبا وشتما ، ويحرفوا في النقل ما استطاعوا » !!

وهكذا ملأت هذه الأفكار المشوهة المشحونة بالحقد ، اذهان الأوروبيين عن الاسلام والمسلمين ، ولم تستطع بعض الكتابات المعتدلة ، التي ظهرت في العصور الحديثة عن الاسلام ، أن تمحو الركام أو النفايات التي ملئت بها أدمغة الاوروبيين عن الاسلام ، وتوارثوها جيلا بعد جيل ، ورضعوها مع لبان أمهاتهم ، وتغنوا بها وتسلوا عليها في صباهم . . فبقيت حتى الآن متمثلة في نظرة الغرب للاسلام والمسلمين ، وحملاته الشعواء علينا عن طريق الكتب والنشرات وجماعات المبشرين والمستشرقين ، أوعن الطريق الاقتصادي والعلمي ، أو عن طريق الجيوش او الغزو المكشوف ، والسيطرة العلنية .

يقول المستر « مونتجمري واط »

« جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا عن الاسلام ، وعلى رغم الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي احدثتها كتابات القرون الوسطى في اوروبا لا تزال قائمة »[١] .

نعم . . فما كان لبعض منصفين فيهم ، ولا لبعض كتبهم المعتدلة ، أن تزلزل الجبال التي رسخت في أذهان الشعوب الغربية ولا تؤثر كلماتهم المعتدلة فيما عشش في اذهان أهل الريف والمدن قرونا متتالية ، فظلت الصورة كما هي ، وكما كانت هناك ، تجاه الاسلام والمسلمين إلى الآن ، ولا أظن أنها ستزول قريباً . . ولا نعلق حياتنا وكياننا ومستقبلنا على زوالها ، ولكن على ما نقوم به نحن من نفض

(١) ص ٤٥ « التبشير والاستشراق » للأستاذ محمد عزت الطهطاوي .

الغبار المتراكم فوقنا ، وإمساكنا بزمام القوة الاسلامية في داخلنا ـ داخل نفوسنا ـ وخارجها ، حتى لا نظل نحن المسلمين ساحة يفرغون فيها نفايات احقادهم ، ولا هدفاً يرمونه بقذائفهم ، ولا فأراً بين مخالب قط يلعب به ، قبل أن يقضى عليه .

المهم هو نحن ، شخصيتنا ، غيرتنا على ديننا وبلادنا ومصالحنا ، حرصنا على أن نكون صورة حقيقية لعقيدتنا وأخلاقنا ، وعلى أن نقول لهم في صدق وفى قوة . . كفى . . فلم نعد صغارا ولا ضعافا . . إنهم في الشرق والغرب قد يبدون أمامنا في صورة متمدنة ناعمة ، ولكنها نعومة الحية السامة بالنسبة لنا . .

إن ما يقومون به أحياناً أو ما قاموا به ، قد يبدو في صورة علمية ، بينما لو فتشنا وراء الصورة قليلا ، لوجدنا خلفها حقدا وسماً للمسلمين . وقد يبدو ما يقومون به نحونا في صورة إنسانية مصلحية لنا ، ولكن تختبىء وراء هذه الصورة مصالحهم ، وتنفيذ مخططاتهم الخبيثة في بلادنا . .

فاكتشاف رأس الرجاء الصالح مثلا ، وغرب أفريقيا وشرقها كما يقولون ؟ هل كانت هذه البلاد التي اكتشفوها مجهولة للبشرية ، خالية من أمم لها وجودها وكيانها تعيش فيها ؟ إذا كان طريق رأس الرجاء الصالح قد اكتشفوه للوصول منه إلى الشرق ، فإن البلاد الواقعة في غرب افريقيا ، والتي فرضت جنود هنري وحملاته سيطرتها عليها كانت بلادا وممالك إسلامية غالبا وكان لها كيانها ، ولها حياتها وتحضرها . .

وتذكر كتب الكشوف الجغرافية أن هنري الملاح البرتغالي (١٤٦٠

م) ابن الملك يوحنا الذي كان له جهده في القضاء على المسلمين في الأندلس ، هو الذي قاد وأشرف على حركة الكشف والالتفاف حول أفريقيا ، وهنري هذا كان أميرا تزعم مع أبيه حركة الحروب الأخيرة ضد المسلمين في الأندلس . . وكان رئيسا وراعيا لهيئة فرسان المسيح القوية الغنية التي كان يمول منها حركة الكشوف التي قام بها ، ولم يكن الباعث له على هذه الحركة ، وهذا الانفاق هو مجرد الحصول على معلومات كما تقرر بعض الكتب ، ولكن كان أهم باعث عليها ، هو البحث عن طريق آخر ، غير طريق مصر والبلاد الاسلامية للوصول الى الشرق وتقويض النفوذ الاسلامي فيه . . وكانت البرتغال تعتبر نفسها حامية العالم المسيحي ومنقذة الاندلس من المسلمين ، واخذت على عاتقها ما اعتبرته واجبا مقدسا ، وهو القضاء على النفوذ الاسلامي في كل مكان . .

وبهذه الروح التعصبية اندفع هنري في حركة الكشف لهذا الغرض ، وبدأ تمويلها من أموال الكنيسة . .

وفعلا كان لوصول البرتغال وأسطولها إلى المحيط الهندي أو بحر العرب ، أكبر خطر على البلاد الاسلامية ، وعلى حريتها ، وحركة الملاحة في بحارها وخلجانها .

اعني أن الهدف الذي وضعه هنري قد تحقق أخيرا في نيل البرتغال من البلاد الاسلامية في الشرق[٤] . .

---

(٤) راجع ص ٣٣٢ من كتابي تاريخ المسلمين في الهند ـ الغرب يتحرك نحو الهند ـ وما فعله الأسطول البرتغالي بالأساطيل الاسلامية في بحر العرب والبحر الأحمر والشواطىء الجنوبية والشرقية لجزيرة العرب ، وبخاصة في موقع سلطنة عمان الآن ، وكان للأسطول المصري دوره في هذه المواقع . .

وحركة اكتشاف أمريكا : ألـم يكن القصد الأول منها هو الوصول إلى الشرق وإلى الهند التى كانت تحكمها دولة إسلامية في ذلك الوقت . . وكان « كولومبس (١٤٥١-١٥٠٦ هو الذي قاد هذه السفن برعاية ملك أسبانيا فاكتشف قارة أمريكا عن غير قصد منه حين وصل إلى شواطىء « سان سلفادور » .

وكانت اسبانيا والبرتغال قد أخذتهما النشوة بعد القضاء على المسلمين في الأندلس ، فاندفعوا يتعقبون المسلمين في بلادهم بالشرق ، فكانت تلك الحركة التي يسميها الجغرافيون والمؤرخون بحركة الكشوف والتي كانت خطوة أولى في السيطرة على البلاد الاسلامية .

وتابعت دول أوروبا خطة اسبانيا والبرتغال مدفوعة بروحها العدائية للشرق ، فوجدنا انجلترا وفرنسا ، وهولندا وغيرها تندفع بنهم الاستعمار ، وسعار العداء ، للسيطرة على البلاد الاسلامية ، ولم تستطع إخفاء حقدها ، حتى وجدنا فرنسا حين تغلبت على الجزائر ، تصدر طابع بريد ، وعليه الصليب في السماء ، والهلال منكسا على الأرض .

ووجدنا الجيش الايطالي حينما ذهب لغزو ليبيا سنة ١٩١١ يردد جنوده هذا النشيد :

« يا أماه . أتمي صلاتك ولا تبك ، بلى اضحكي وتأملي ، الا تعلمين أن إيطاليا تدعوني ، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا ، لأبذل دمي في سحق الأمة الملعونة ، ولأحارب الديانة الاسلامية ، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن ، وان سألك احد عن عدم حدادك

علي ، فأجيبه : إنه مات في محاربة الاسلام » !!!

هكذا لم يتورعوا عن إظهار أحقادهم على السطح بمثل هذه الصورة . . لأنها أحقاد قديمة موروثة متغلغلة في النفوس ، وربما لم يكن هذا هو الدافع الوحيد لهذا الغزو ، لكن هذا كان هو الدفين في نفوس الجنود الطليان ، وهذه روحهم التي تلهب حماسهم ، وتحملهم على الترحيب بالتضحية . .

وقريبا في الستينات وجدنا دول أوروبا وأمريكا تقف مع حركة انشقاق ولاية « بيافرا » عن الدولة الأم « نيجيريا » لأن أغلبيتها مسلمة . .

صور متتالية من قديم ، وحتى الآن ، تنبىء عما في نفوس الشعوب والدول الغربية ـ ومثلها دول أوروبا الشرقية ـ من حقد على الاسلام والمسلمين ، وتربص بهم . . وكيد مسموم لهم . .

حرصت على استعراض هذا الآن ـ مختصرا ـ لشبابنا وشاباتنا ، وللمسلمين والشرقيين عموماً حتى المواطنين من المسيحيين في بلادنا ، لأنهم ينالهم ما ينال الأغلبية على يد الغرب ، مما دفعهم او دفع بعضهم للوقوف معها في صدها لهجماته .

حرصت على ذكر هذا لا لإثارة التعصب الأحمق ، وروح الكراهة الحمقاء ضد الغرب ، ولكن ليفهمه شبابنا والمسئولون عنهم ، وعن إعدادهم رجالاً مخلصين حذرين ، ويعملوا لذلك حسابه ، فيما يجب ان يقدموه لهم من مواد تكشف لهم موقعهم ، ومواقع غيرهم ، وتعمل على تحصينهم ضد الأوبئة التي تفد عليهم ، أو يتعرضون لها ، حينما يذهبون للخارج ، وليعمل الشباب من ناحيتهم ، على التزود

والتحصن قدر إمكانهم ، بقراءة الكتب الكثيرة التي تتولى هذا التزويد ، وهذا التحصين ، وهو مهم ـ وعلى الأقل ـ أهمية التحصين الجسمي بالأمصال ، ضد الأوبئة الوافدة ، أو التي يتعرض لها المسافرون للخارج . .

وأشهد أننا ـ نحن المسئولين عن الشباب ـ سيحاسبنا الله على هذا الإهمال في التحصين حسابا عسيرا ، يحاسبنا الله ويحاسب الشباب أيضا عن اهمالهم وتكاسلهم عن تحصين أنفسهم ، لا سيا ومادة هذا التحصين موجودة ومعروضة من الكتب والنشرات التي يستطيع الشباب الحصول عليها ولو بدلا عن تذكرة سينما ، أو عن بعض المجلات ، ولاسيا المجلات العابثة ، التي تضيع وقتهم ، ولا تغذيهم إلا بالتافه أو المسموم . .

إن شبابنا وشاباتنا خصوصا وآباءهم عموما ، يتعرضون لمآزق كثيرة ، وتنهال عليهم مطارق كثيرة أيضا ، لتفك عقدة ارتباطهم بدينهم ، وولائهم لبلادهم ، وشخصيتهم . ولا سيا الذين يسافرون للخارج ، أو يحتكون بالاجانب هنا ، ولا بد أن يتحصنوا ويستعدوا للخروج من هذه المآزق ، والتخلص من هذا الإحراج ، ويعرفوا كيف يدافعون عن دينهم ، وعن شخصيتهم باعتبارهم مسلمين ، ويخرجوا من هذه المآزق رافعي رؤوسهم ، مبرهنين على أنهم يعتنقون دينا صحيحا ويتمسكون بنظام قوي متين ، يتفتح للحياة ، ويضع لمشاكلها الحلول المناسبة لها .

وليتصور كل شاب وشابة ، وكل رجل موقفه ، حين يجابه باعتراضات وتهجمات على دينه ، من هؤلاء المتربصين الذين عرفت روحهم ونظرتهم للاسلام . .

ماذا يكون حاله ، لو عجز عن الرد على هؤلاء ، بوجهة نظر الاسلام ، في المشكلة التي طرحوها ، والاعتراض الذي اعترضوا به ؟ هل يسايرهم ؟ ويتنازل عن شخصيته ، ويصبح فاقدا لأهم ما يعتز به في دنياه وآخرته ، ويعيش هناك ثم بيننا ـ إن عاد ـ منسلخا عن روح الأمة التي ينتسب إليها ؟ ولذلك آثاره الضارة عليه وعليها ؟! .

أعرف بعض الشباب الجامعي ، زملاء اولادي وغيرهم ـ وكنت لا المح فيهم اهتماما ولا عناية بقضايا دينهم ، وسافروا للخارج ، فإذا بخطابات تصلني منهم ، تفيض غيرة واهتماما بدينهم وقضاياه ، ويسألونني عن قضايا فكرية دينية جوبهوا بها هناك ، ولم يستطيعوا التحدث عنها والرد عليها وتوضيحها . . مع أنها سهلة ، والإجابة عنها مطروحة في كتب أو كتيبات ، أو مجلات كثيرة هنا ، لكنهم لم يكونوا يعنون بقراءتها ، وكنت أسارع بالرد عليها ، إما في المجلة التي كنت أرأس تحريرها في الكويت في الستينات « الوعي الاسلامي » وأرسلها لهم ، أو في رسائل خاصة ، وأرسل لهم ما تيسر لي من كتب أو كتيبات ، عنيت بهذه المسائل .

وذلك لأنني كنت اشعر من رسائلهم بحماسهم الطارىء لدينهم ، وبانهم في مأزق يحرصون على الخروج منه ، بما يرفع رؤوسهم ، ويثبت شخصيتهم كمسلمين ، ومن الواجب عليّ أن أسارع لمساعدتهم ، وقد تماسكوا ولم ينهاروا . .

إن مصر أمة إسلامية ، كانت وستظل وتبقى حاملة شعلة الروح الاسلامية ، وقيادتها في كل جانب ، وهذه الحقيقة هي إحدى مكونات شخصيتها هنا ، وفي العالم الاسلامي ، وفي كل العالم ، ولا يخفى ذلك عن مسئولينا ومفكرينا . . وهذا يضع على عاتقنا بالتالي ، ألا

نهمل في أهم مكون من مكونات شخصيتنا كأمة ، يستوي في النهوض بذلك ، عالم الدين ، وعالم الهندسة والطب ، وأي إنسان مسلم يعتز بأمته وشخصيتها ، ولو لم يكن متديناً . . لان هذه الناحية تجتاز في نفوسنا روح التدين والتعبد ، إلى نطاق أوسع ، وهو نطاق الأمة وشخصيتها بين الأمم ، وتضرب بجذورها إلى العقيدة والاعتزاز بها ، ولو لم يكن المسلم ممن يقوم بالتزاماتها من الأعمال . .

وذلك لأن الأمة التي ينظر إلى دينها وعقيدتها ومنهجها في الحياة نظرة ازدراء ، أو نظرة غير محترمة على الأقل ، لا يمكن ان تظفر من غيرها او يظفر بنوها بنظرة الاحترام أو التقدير ، الذي يتكافأ مع جهودهم الأخرى ، ويظل وصف « انهم مسلمون » عيبا فيهم عند الآخرين ، ما دامت نظرتهم للاسلام سيئة ، وما دام المسلمون لم يستطيعوا تصحيح هذه النظرة . . ويظل يتردد في نفوس هؤلاء وأعماقهم عن الانسان المسلم النابغ ، أنه مسلم !! سواء صرحوا بذلك ، أو منعهم حياؤهم من التصريح به . .

ولا أزال المس في نفوس الجميع أو الكثيرين عندنا تعليقاتهم على الرجل الهندوسي الممتاز إعجابهم بامتيازه ، مع تعجبهم من تقديسه للبقرة ، وكأن ذلك ناحية نقص فيه ، تغض من امتيازه وعقليته المتفتحة ! .

فرصة لو احسنا استغلالها

لقد كان ـ ولا يزال ـ في إمكاننا أن نجعل من أولادنا المسافرين للخارج ، ولاسيا الذين يقيمون منهم هناك زمنا ، ويحتكون بأهل الوطن الذي يعيشون فيه احتكاكا مباشرا ويومياً، أقول : لا يزال في إمكاننا أن نجعل من هؤلاء وسائل قوية وفعالة لتبديد الغيوم التي تحيط بالاسلام هناك ، والتي تتوارث من قديم ، لو اننا احسنا استغلال هذه الفرصة ، وكان ولاؤنا لأمتنا ـ وليس للاسلام فحسب ـ متجسدا فينا ، يأخذ ما يجب أن يأخذه من اهتمامنا . .

ولو أن سفاراتنا ومكاتبنا الثقافية في الخارج ، جعلت من اهتماماتها تصحيح الأفكار المغلوطة عن الاسلام ، ولاسيا فيما ينشر هناك في بعض المجلات ، ويثار في بعض المجتمعات ، فتأخذ القضايا الاسلامية من اهتمامهم ، ولو بعض ما تأخذه أمور اخرى وقتية وموسمية ، والأولى اهم في الحقيقة لاتصالها بالجذور ، جذور شخصية الأمة عند غيرها من الأمم . . لو ان السفارات فعلت ذلك ، وكان فيها المؤهلون له ، لأدت للبلد ولدينه اجل الخدمات »[٥] .

---

(٥) ولهذا اذكر هنا بكل سرور وتقديره ما قام به مستشارنا الصحفي في المانيا الغربية الأستاذ حمدي عزام من نشر كتاب عن الاسلام باللغة الاسلام باللغة الألمانية اشتركت في بعض موضوعاته ، وكتبت مقدمة له ، ونشرت « الأهرام » اعلانا كبيرا عنه في ١٥ / ٣ /٨١ =

إن الناس هناك ينظرون للإسلام والمسلمين ، من خلال بعض القضايا التي علقت بأذهانهم ، والتي يرددونها دائما في وجه كل مسلم يلتقون به . . من أنه دين السبايا والرق ، دين الجزية ، دين الطلاق وتعدد الزوجات ، دين تزوج نبيه ورسوله تسع زوجات ، دين متعطش للدماء والجهاد ، لم ينتشر إلا بالسيف والقهر ، دين التواكل والتخلف ، الذي يرونه سائدا في العالم الاسلامي الخ . . وينظرون للاسلام من خلال ذلك كله . .

ولعلهم معذورون في نظرتهم هذه للاسلام ، فهذا هو الذي عرفوه وورثوه من سابقيهم ، ومن الكتب التي تصل إلى أيديهم ، ومما يسمعونه من رجال دينهم (٦) ، دون ان يجدوا تصحيحا له . . .

وأقول : إنه من هنا يبدأ واجبنا ، بل يتأكد ، كمسلمين ومن أية دولة وهيأة اسلامية في العالم الاسلامي ، وبل ومن الأقليات الاسلامية الموجودة بين أغلبية غير مسلمة ، بل هذه عليها مسئولية أكبر . . إنصافا لديننا وإنصافا لأمتنا وأنفسنا ، كأمة إسلامية ، لها دينها الحق ، ومنهجها القويم ، ولكن ينقصها الحديث المقنع عن هذا الحق الذي تدين به .

وإلا كنا ـ كما يقال ـ محامين فاشلين عن أعدل قضية في هذا الوجود . .

=١٩٨١ . لحساب المؤسسة الالمانية التي أصدرته . وجاء في « آخر هذا الاعلان » وقد عبر الكتاب والأثر الإيجابي الذي تركه في نفوس القراء الالمان مرة أخرى عن شخصية مصر الاصيلة ، وتقاليدها التاريخية في الدفاع عن الاسلام والعروبة » .

(٦) وأذكر هنا بكل أسف ما حرص عليه بعض المتهوسين الأقباط في الخارج من تشويه متعمد لوجه مصر ، وإشاعة الأكاذيب عنها ، مما يعد خيانة وطنية مقصودة ، سواء منهم أو ممن يمدونهم بهذه الأكاذيب ، ويشجعونهم عليها . ويحتاج لتصحيح من سفاراتنا ، كما يحتاج لوقفة حازمة إزاء هؤلاء الخونة لوطنهم . .

ولعلنا لا ننسى مع هذا كله ، وفي ختام هذه الكلمة أن نقول : إن التزام المسلمين بعقيدتهم ، ومنهج دينهم التزاما عمليا في حياتهم أيا يكن موقعهم ـ أفراداً أو جماعات أو حكومات ـ هو أبلغ دفاع عن الاسلام، يبدد الكثير مما أحاط به من غيوم ، وتراكم عليه من غبار . .

ولكن حتى نخطو هذه الخطوة العملية الصعبة التحقيق سريعا لا يمكن أن نهمل الوسائل الأخرى التي تبدد هذه الغيوم ، لتشرق شمس الاسلام على القلوب . ويأخذ المسلمون مكانهم .

« وعلى الله قصد السبيل »

الإسلام . . لماذا أبقى على الرق ؟

يعيب الغربيون على الاسلام أنه أباح الرق ، واتخاذ الانسان له عبداً يملكه أو أمَة يملكها ، كما يملك ويتصرف في أي مال أو متاع . . ويسخره لخدمته ، وَيقولون : إن هذا مناف للانسانية ، ولهذا فهي نقطة ضعف في الاسلام تؤاخذ عليه !!

ونقول لهؤلاء إذا شئتم أن نتكلم فيما ينافي الانسانية الآن ، فأنتم غارقون إلى آذانكم في ارتكاب أفحش الأعمال التي تنافي الانسانية ، وذلك في استعماركم للشعوب ،وإضطهادكم لها ، وتحقيرها ، إلى حد إنزالها لدرجة الكلاب ، حيث كنتم تكتبون إلى عهد قريب لافتات على بعض المتنزهات والأماكن ، في الهند والصين « ممنوع دخولها على الصينيين أو الهنود ، والكلاب » وإلى حد أنكم حتى الآن تعزلون السود والملونين في أحياء خاصة بهم حتى في أمريكا بعيدا عن أماكن البيض ، وتعاقبون من يقترب من الملونين إلى أماكن البيض ، وتحرمون عليهم أن يركبوا في مراكب البيض ، أو يدخلوا مدارسهم وأنديتهم ومطاعمهم الخ ، وتحرمون التعامل معهم ، وتعاملوهم بقوانين خاصة ظالمة لا يعامل بها البيض . .

وهذا كله شيء ثابت ورسمي ، وتقوم على أساسه بعض الدول .

العنصرية ، كجنوب أفريقيا ويجري في أمريكا وغيرها من دول الغرب ، التي تتشدق بالحرص على حقوق الإنسان !!!

وأمامي الآن تقرير كتبه « لورد موجام »(١) الانجليزي ونشره سنة ١٩٥٩عما تفعله فرنسا ـ أم الحريات كما يقال ـ في البلاد التي تستعمرها في غرب أفريقيا يقول فيه :

« في عصر الذرة والتقدم العلمي الكبير ما زال ملايين الافريقيين يعيشون حياة قطعان الماشية ، عبيداً اذلاء لطائفة من المستعمرين وعملائهم ، فيملكهم السيد الأبيض جسما وروحا ، ويحرمهم من كل حقوق الإنسان ، ويعرضهم في السوق كالماشية والاغنام » ويذكر اللورد الانجليزي في تقريره الذي نشرته الصحف ، إن الرجل يباع هناك بـ ٣٨جنيها ، والمرأة بـ١٥ جنيها ، وأنه استطاع شراء عبد بـ٢٧ جنيها وعشر شلنات ، ليطلق سراحه !!

ويقول : « ان السخرة وتجارة الرقيق ، وسوق العبيد ، مازالت قائمة تحت إشراف السلطات الفرنسية ، فقد ألغت فرنسا السخرة وتجارة الرقيق اسما ، واطلقت للتجارة العنان في ممارسة الاتجار بالسود في الصحراء » .

ويقول : « سألت ضابطا فرنسيا في « داكار » عن النخاسة فنفاها ، ولكنه اعترف بعد ذلك بوجودها ، بل وباتساع نطاقها ، وفهمت من حديثه ، أن هذه المدينة بالذات هي مفتاح هذه التجارة كلها » .

« واستأجرت صحفيا ، ودليلاً وعددا من الجمال والخيل ، لأقوم

(١) نقلا عن كتاب « لا رق في القرآن » للأستاذ إبراهيم فلا لي ص ٢٥٨ وما بعدها .

بأكبر مغامرة في الصحراء ، مغامرة استمرت شهرين كاملين ، نفذت خلالها إلى داخل الستار الحديدي ، الذي ضربه المستعمرون ، والسادة البيض حول مئات الألوف من السود : « رجالا ونساء وأطفالا ، حتى وصلت إلى تومباكتو » التي تعتبر مفتاح الصحراء والتي تضم سرا رهيبا ، لا يعرفه سوى الاوروبيين فقط » « إن الحياة رخيصة جدا في معسكرات الصحراء ، والسيد الأبيض الأوروبي وعملاؤه لا يرحمون ، ولا يحجمون عن قتل كل من يقترب من معسكراتهم ، محاولا الاتصال بقطعان البشر المحجوزة وراء جدران المعسكر » .

وأضاف اللورد الى ذلك يقول :

« واستطاع دليلي العثور على شاب حديث السن من السود ، الذين أُطلِق سراحهم من أحد المعسكرات ، بعد أن اشترى حريته بفضل أحد السياح » .

« وسألته عن الاسباب التي تحول دون الاتصال بالسلطات لإطلاق سراحهم ، فقال في ألم : إن السلطات ألغت الرق رسميا ، ولكنها للأسف الشديد لا تزال تمارسه علنا ، بالتعاون مع تجار الرقيق ، بقصد تسخير الزنوج ، في مشاريعها القائمة بقلب الصحراء » وأضاف الشاب : « إن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ العبد من معسكرات السخرة ، هي ان يشترى حريته بدفع اربعين جنيها لسيده ، فيطلق سراحه ، ولكنه يستبقي اسرته ، حتى يعمل ، ويجمع المبلغ الذي يشتري به أسرته ، وقد حدث هذا له شخصيا » .

« كان هذا حديث « سابا » لذي قدم لنا زميلا له ، يسمى « علي زيد » البالغ من العمر ٤٤ عاماً وإن كان يبدو عليه أنه في الخامسة

والسبعين . . من شدة ما عاناه » .

قال « علي » :

« إنه اشترى حريته بمبلغ ٤٠ جنيها ، وقلت له : ما قلته لزميله السابق : إن تجارة الرقيق الغيت منذ ٦٥ عاما ، وكان رده رد زميله : إن هذا إجراء رسمي محض ، ولم ينفذ ، وكان القصد منه تغطية ما يدبر لنا في الخفاء . . » !!

وقال : « إن العبد منا لا يحصل خلال عمله إلا على كميات ضئيلة من الطعام ، الأمر الذي يتسبب في موت الآلاف ، وتعريض عشرات الآلاف للأمراض الخطيرة » .

« وعقاب كل متمرد على هذا الظلم ، هو الضرب بالسياط والطعن بالخناجر ، وكشف عن صدره وظهره ، فشاهدت ما أثار اشمئزازي وتقززي ، وسألته عن سبب ذلك ، فقال في مرارة : لأنني تطاولت بشرب بعض اللبن المخصص لأسيادنا » !

ثم ينتقل اللورد إلى الكتابة عما تلاقيه البنات والسيدات ، من السادة البيض الذين يستبيحون لأنفسهم الفتك بهن في وحشية ودون مراعاة أي قدر من الإنسانية والحياء ! .

ثم يقول بعد أن يسرد الكثير من أمثال هذا في بقعة واحدة مما يسيطر عليه المستعمرون الفرنسيون وغيرهم :

« هذه قصة من الوف القصص لما يعانيه الزنوج والسود على أيدي المستعمرين من إذلال وسخرة واعتداء وحشي ، وحرمان من كافة حقوق الانسان ، قصة قطعان البشر التي تباع وتشترى في إفريقيا

بمعاونة وإشراف سلطات الإستعمار » !!

ولا شك أن هناك آخرين ممن كتب عما يفعله المستعمرون الانجليز وغيرهم ، مثل ما كتبه اللورد الانجليزي عن مستعمرات فرنسا . . وهذا كله يحدث في هذا القرن ، وعلى بعد سنوات من سنتنا ولا يزال ، وبعد أن أطلق الغربيون بالونات الحريات ، وحقوق الانسان ، لتصم آذان البشر حتى لا يسمعوا أنين ضحاياهم .

فهل الغربيون الذين تتطاول ألسنتهم حتى الآن على الاسلام ، بأنه اباح الرق وأنه لذلك مناف للإنسانية الخ . هل يعرف الحياء طريقا إلى نفوسهم ؟ هل هم لا يعلمون هذا الذي يفعلونه في مستعمراتهم وفي أوساطهم ؟ وبماذا يسمونه إذن ؟ إن هؤلاء لا يهمهم إلا أن يعيبوا الاسلام وكفى ، ينظرون إلى القشة في عيون غيرهم ، ولا يحسون الخشبة التي تقلع عيونهم !!! ومع هذا فنحن لا نقول لهم ذلك إلا ردعاً لهم ، وإسكاتاً لترثرتهم ، ربما يستحون ويعقلون ، لا تبريراً لما يدعونه على الاسلام بخطأ مثله . .

[من حيث الموضوع]

ولنتجه إلى الرد الموضوعي فنقول لهم :

إنكم لكي تحكموا على ما فعله الاسلام ، يجب أن تعلموا أولا : ماذا كانت عليه حالة العالم ، حين جاء الاسلام بالنسبة للرقيق ؟ . . لقد كان العالم كله ، يستبيح الرق ويستحسنه ، حتى فلاسفته وكبار مصلحيه . .

وكانت مصادر الاسترقاق وروافده كثيرة ،ومتنوعة : منها الرق في أسرى الحرب ، ورق الخطف ، ورق الدين للوفاء به ، والرق كعقوبة على الجاني ، والرق ببيع الانسان نفسه أو أولاده لفقره ، كان ذلك كله مستساغاً حتى لدى الفلاسفة الكبار مثل أفلاطون وأرسطو ، وحتى لدى الدينين السابقين على الاسلام : اليهودية والمسيحية : فإذا كان هؤلاء الغربيون من المسيحيين أو اليهود يعيبون على الاسلام الرق ، فماذا يقولون عن دينهم ؟ .

فمما جاء في التوراة في العهد القديم في الاصحاح العشرين من تثنية الاشتراع « حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ، ويستعبد » .

وجاءت المسيحية فأقرته وباركته ، ولم تضع له حدوداً تؤدى إلى التقليل فيه ، فقد أمر بولس الرسول العبيد بإطاعة أسيادهم كما يطيعون السيد المسيح . . فيقول في رسالته إلى أهل أفسوس :

« أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد ، بخوف ورعدة ، في بساطة قلوبكم كما للمسيح . . » الخ

وبمثل هذا أوصى بطرس الرسول ، كما يقول المرحوم الاستاذ العقاد(٢) « واوجبها آباء الكنيسة ، لأن الرق كفارة من ذنوب البشر ، يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم ، وأضاف القديس توما الإكويني رأي الفلاسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين ، فلم يعترض على الرق ، بل زكاه ، لأنه على رأى استاذه ـ أرسطو ـ حالة من

(٢) ص ٢١٥ من كتابه « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ، طبعة المؤتمر الاسلامى ـ الطبعة الأولى .

الحالات التي خلق الله عليهـا بعض النـاس بالفطـرة الـطبيعية . . .
وليس مما يناقض الايمان أن يقنع الانسان من الدنيا بأهون نصيب » !!

حتى أرسطو ـ يذهب إلى أن فريقا من الناس مخلوقون بطبيعتهم للاسترقاق والعبودية !!!

أما أستاذه ـ أفلاطون ـ فيقرر في جمهوريته الفاضلة !! حرمـان العبيد من حق « المواطنة » وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم ، . ومع ذلك يطلقون عليها الجمهورية الفاضلة ، أي نظام إيجاد جمهورية فاضلة !! .

وعلى هذا قامت الحضارة اليونانية والرومانية ، وقامت المجتمعات في شتى انحاء الأرض . .

وجاء الاسلام وهذه الحالة قائمة ، وبتوسع وشراهة للاستعباد ،

وإذلال بعض الناس ، فلم يقرها على وضعهـا القائـم كما لـم يلغها نهائيا . .

[ماذا فعل الاسلام ؟]

■ أولا ـ ضيق منبع الرق :

أما أنه لم يقرها على وضعها الذي كانت عليه حين جاء ، فلأنه ألغى كل أنواع الاسترقاق ، وكل روافده ، إلا حالة واحـدة لا تزال حتى الآن معمـولا بهـا بـين الـدول المتحاربـة ، وهـي حالـة أسرى الحرب . . فلا يجوز الاسترقاق إلا في حالة وقوع أسرى غير مسلمين في يد المسلمين ، وفى حرب مشروعة دينيا ، للدفاع عن الاسلام وأرض

الاسلام . .

فلا استرقاق نتيجة الخطف والاغارة المفاجئة ، ولا ا سترقاق لدين على الانسان ولا لعقوبة ، ولا لبيع الحر نفسه لفقره ، ولا لأي نوع من أنواع الاسترقاق التي كان معمولا بها حين جاء الاسلام . . إلا في حالة واحدة هي ـ كما قلنا ـ أسرى الحرب . .

وليست كل حرب ، بل حرب مخصوصة مشروعة ، للدفاع عن الدين أو الوطن المسلم ، أما الحرب الهجومية ـ العدوانية فلا يحل استرقاق أسراها . .

وهذا التعديل الذي جاء به الاسلام ، تعديل مهم وحيوي حيث ضيق المنبع ـ منبع الاسترقاق ـ وسد كثيرا من روافده ، إلا منبعا ورافدا واحدا ، أبقى عليه مراعاة لظروف الحرب بين المسلمين وغيرهم . . وكان يجب على الذين يفكرون ويعقلون ، أن يقدروا الاسلام ، ويشكروا له هذه الخطوة الواسعة في سبيل القضاء على الرق أوحصره في أضيق الحدود ، مما لم يتخذها دين او مصلح قبله . ولكن الغرض مرض . كما يقال .

والذي يتتبع آيات القرآن الكريم لا يجد فيها نصا يأمر بالاسترقاق أو يستحسنه ، مما يشير ضمنا إلى كراهة الاسلام له ، وعدم التشجيع عليه . والرغبة في القضاء عليه . .

بل إن الآية الواردة في شأن التصرف في اسرى الحرب ، قصرت التصرف في الأسرى على المن أو الفداء ، ولم تذكر الاسترقاق ، فقال الله تعالى في سورة « محمد » الآية الخامسة ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق (أي فقيدوا

الأسرى) فإما منا بعدُ وإما فِداء حتى تضعَ الحـرب أوزارَهـا ﴾ فخيرهم بين المن والفداء ولم يذكر الاسترقاق ، بل نجد التفضل والمن باطلاق سراح الأسرى بدون مقابل ، مقدما على الفداء في الآية ، وتلك إشارة تفضيل المن على الفداء والمقابل ، لحب الإسلام للأسراع في تحرير أسرى الحرب .

ولولا ما أشار اليه القرآن في بعض الآيات ، من ملك اليمين ، ولولا ما عرفناه عن سنة الرسول وصحابته من اتخاذ أرقاء لهم ، ما كان لنا أن نقول بمشروعية الرق في الإسلام . .

فالله سبحانه يقول في أوائل سورة النساء ـ الآية الرابعة ﴿ فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ﴾ .

ويقول في الآية الخامسة والعشرين من السورة نفسها ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصناتِ(الحرائر)المؤمنات فمما ملكت أيْمانُكم من فتياتِكم المؤمنات ﴾ ولاحظ هنا هذا التعبير الرقيق عن الرقيقات حيث يقول ﴿ من فتياتكم المؤمنات ﴾ ومثله قوله في سورة النور ٣٣ ﴿ ولا تُكرهوا فَتَياتِكم على البِغـاء﴾ (يريد الرقيقات أيضا) .

ومن هذا الأدب القرآني وجدنا الرسول ﷺ يقول « لا تقل عبدي وأمَتي ، ولكن قل : فتـاي وفتاتـي » حتـى لا يشعـر الـرقيق بقسـوة الألفاظ . . في كل لحظة ويجرح شعوره . .

فمما ذكره القرآن وما عرفناه عن سيرة الرسول والصحابة ، عرفنا حل الاسترقاق ومشروعيته ، مع ملاحظة أننا لم نجد في القرآن او في كلام الرسول نصا يأمر بالاسترقاق كما جاء في نص التـوراة السابـق

ذكره « ويستعبد » .

■ ثانيا : وسع المصب ودائرة التحرير :

ومع تضييق الاسلام لمنبع الرق وسببه ، نجده قد وسع في المصب ، أي في وسائل التحرير والتخلص من الرق ، تقربا إلى الله .

● فاقتحام العقبة أي السد الذي يحول بين المؤمن وبين الجنة ، يكون بعتق رقيق « فلا اقتحم العقبة ، وما ادراك ما العقبة ؟ فك رقبة . . او إطعامٌ في يوم ذي مسبغة » . . الآية ١١-١٤ من سورة البلد .

● والقتل الخطأ لمؤمن أو ذمي أو معاهد كفارته مع الدية عتق رقبة « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى اهله إلا أن يصدقوا وإن كان من قوم عدوا لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » . . الآية ٩٢ من سورة النساء ـ فتحرير الرقبة موجود في كل هذه الحالات . .

● وكفارة الإفطار بالجماع في شهر رمضان مع القضاء عتق رقبة .

● وكفارة الإفطار عمدا بغير الجماع مع القضاء عتق رقبة عند الإمام مالك .

وكفارة الحنث في اليمين بالله عتق رقبة ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾ الآية ٨٩ / المائدة .

● وكفارة الذين يظاهرون من نسائهم كأن يقول الرجل لزوجته

« أنت عليّ محرمة كظهر أمي أو أختي » مماكان العرب يقولونه ، ثم يعودون لها دون أن يتبعوه بطلاق ، عتق رقبة ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة ﴾ الآية ٣ من سورة المجادلة .

● وإذا مزح الرجل وتلفظ بلفظ العتق لعبده مزاحا ، تكون نتيجته العتق ، تشوقا من الاسلام للحرية لأن هذا مما يتحول المزاح فيه إلى جد . .

● وإذا اشترك رجلان في ملك عبد وأعتق أحدهما نصيبه ، أعتق العبد كله ، وصار حرا ، وتحمل لشريكه قيمة نصيبه مسارعة للحرية .

● وإذا ضرب السيد رقيقه عاقبه الله ، إلا أن يعتقه ، وكأنّ كفارةَ ذنب ضربه وإهانته هي عتقه وتحريره كما روى الصحابي عبدالله بن مسعود قال : كنت أضرب غلاما لي بسوط ، فسمعت صوتا خلفي يقول : إعلم أبا مسعود . إعلم أبا مسعود ، فالتفت خلفي فإذا بالقائل رسول الله ﷺ فقال: إعلم أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ، فحرمت أن أضرب مملوكا لي بعد ذلك أبداً . وروى أن ابن مسعود قد اعتق غلامه بعد هذا ، فقال له الرسول « لو أنك لم تفعل للقمتك النار » .

وهذا من حرص الاسلام على رعاية الأرقاء، واحترام شعورهم ، والرفق بهم في المعاملة ، مما لا يتوفر مثله في أسرى اليوم ولا في الشعوب الحرة التي تستذلها الدول المستعمرة . .

وشرع وسيلة المكاتبة ، ورغّب الطرفين : السيد والرقيق ـ فيها . . ودعا المسلمين إلى أن يعاونوا الرقيق في الوفاء بها حبا في الحرية وحرصا عليها . . وهي أن يكاتب العبد سيده ، ويتفق معه على مبلغ يدفعه له ليعتقه . .

وقرر المبدأ في قوله تعالى ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ﴾ قدرة على الوفاء ، وعلى استئناف حياة الحرية بنجاح . . وبعد ذلك أمرهم وأمر المسلمين جميعا بأن يعاونوهم على الوفاء ، ويساعدوهم على دفع ما اتفقوا عليه . ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ اي مالكم الذي أعاره الله لكم . . وأنتم واثقون أن المال الذي بيدكم ليس في الحقيقة مالكم ، وإنما هو مال الله وعطاؤه ، فلا تضنوا به على عباد الله ، وساعدوا هذا المكاتب .

ثم لم يجعل الاسلام هذه المساعدة أمرا عائما متروكا لشعور عامة المسلمين وعلى عاتقهم وحدهم ، بل لحبه للحرية ، وتخليص الأرقاء من رقهم ، جعل الدولة ملزمة بمساعدته كذلك .

وذلك حين جعل في ميزانيتها من الزكاة جزءا معلوما لمساعدة هؤلاء المكاتبين ، ونص على ذلك في الآية التي بين فيها بنود صرف إيراد الزكاة وهي ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ التوبة / ٦٠ .

فقوله ﴿ وفي الرقاب ﴾ أي في تحرير الرقاب اي عتق الأرقاء . .

فجيش الدولة حين يأسر من المحاربين ويكون فيه استرقاق لبعض الأسرى ، ستكون الدولة مسئولة عن مساعدتهم في فك رقابهم وتحريرهم من الرق . . أي أن الأرقاء سيكونون عبئا على الدولة

وميزانيتها لتحريرهم ، وهذا يقلل الرغبة في استرقاقهم ، تخفيفا على ميزانية الدولة ، وبالتالي يزيد الرغبة في المن عليهم ، وتحررهم من البداية حين الأسر . . ولولي الامر وهو رئيس الدولة من البداية أن يفعل ذلك تفادياً لتحميل الميزانية أعباء تحريرهم . . .

وحين ينجب السيد من أمته ولدا تصبح أم ولد ، وتعلو على رتبة الأرقاء وتكون حرة بعد وفاة سيدها ، وأولادها احرارا منذ ولادتهم . . ونتيجة لتوسيع المصب بهذه الصورة ، أو بإيجاد هذه الوسائل الكثيرة لتحرير الأرقاء مع ضيق المنبع ، يكون القضاء على الرق في المجتمع المسلم أو تحويله لشيء نادر وقليل . .

[لماذا لم يلغه نهائيا ؟]

وهنا يأتي هذا التساؤل : إذا كان هذا هو اتجاه الاسلام ، فلماذا لم يلغه تماماً ، ويسد هذا المنبع الواحد وينتهي،كما بت في منع الخمر والربا والميسر ؟

ونقول : إنه أبقى عليه كسلاح من أسلحة الحرب ،يماثل السلاح الذي يستعمله عدوهم لاستعماله عند الحاجة معهم . فالعالم كله حول المسلمين كان يسترق أسرى الحرب ، وغير أسرى الحرب ، والاسترقاق ليس خلقا او عملا يختص بالفرد ، وإنما هو معاملة بين دولتين أو جماعتين . . فحين حرم الاسلام شرب الخمر أو الربا أو الميسر ، حرمه على الفرد المسلم ، وأمر المسلم أن يمتنع عنه ، ولا يتوقف امتناعه على امتناع غيره ، ولا يتصل به ، بل عليه أن يلتزم ،

ولو لم يلتزم غيره ، وليس عليه أي ضرر في هذا ، بل هو الكاسب بالامتثال ، وذلك على عكس الاسترقاق ، فإنه يتعلق بالعلاقة بين دولتين ،أو بين طرفين . فتحريمه ومنعه ، إما أن يصدر به أمر إلهي لجميع البشر ، حتى يقضى على الاسترقاق عالميا ، وهذا غير وارد ، لأن القرآن ليس له سلطان على غير المسلمين . فتكون النتيجة أن يطيعه المسلمون وحدهم ويعملوا به ، بينما غيرهم لا يحترم هذا الأمر ولا يعمل به . . هذا فوق إن إصدار هذا الأمر العام لجميع البشر من القرآن بمثل هذه المعاملة ، يكون غير جدي ويثير العجب !! وإما أن يصدر به أمر من الله للمسلمين ، فيلتزم المسلمون به ، دون غيرهم . .

وتكون النتيجة : أن المسلمين حين يأسرون أعداءهم من غير المسلمين لا يسترقون ، ولا يبقون على أسير عندهم ، بل يطلقون جميع الأسرى ، إما بالمن دون مقابل ، أو بالفداء والمقابل ، بل الأمر سيتحول إلى المن بإطلاق سراحهم دون مقابل ، ما دام الاسترقاق غير وارد . هذا يحدث من المسلمين تجاه أسرى أعدائهم ، بينما أسرى المسلمين يسترقهم العدو ، ويستذلهم ، ويعود أسرى الأعداء إلى ديارهم وأهليهم ، وأسرى المسلمين بين يدي العدو ، يفتك بهم ، ويتلاعب بمصيرهم ، ويستذلهم كيفما شاء باسترقاقهم .

فمن الذي يقبل مثل هذه المعاملة ؟ وأية نفس تتحملها ؟ وكيف يقبل المسلمون على الحرب ، وهم يعرفون أنه ليس لهم سند ينقذهم إذا وقعوا في الأسر ، وأنهم سيتعرضون للمهانة والاسترقاق ، بينما أسرى عدوهم سيحظون بالتكريم والتحرير ؟ إنها تكون نقطة ضعف في الروح المعنوية لجيش المسلمين بعيدة الأثر .

فلا بد إذن في مثل هذه الظروف التي تتكرر ، أن يعمل الاسلام حسابها ، وأن يضع الدواء المناسب لها ، لا رغبة وحبا في الاسترقاق ، ولكن للمعاملة بالمثل مع أعداء من طبيعتهم الاسترقاق . . فيكون عندهم سلاح من نوع سلاحهم ، يدافع به المسلم عن نفسه ، ويحمي جنوده ، ولذلك لم يأمر القرآن باتخاذه ، وإنما تركه للرسول كحاكم وقائد ، يتصرف به عند الحاجة حسب مصلحة المسلمين . .

فيمكن بناء على هذا أن نقول : إن الاسلام أبقى على هذه الجزئية وحدها من أسباب كثيرة ،كانت سببا في الرق ،للحاجة إليها في المعاملة بالمثل ،مع عالم يبيح الاسترقاق بكل أنواعه ولذلك شرعه وأباحه للمعاملة بالمثل ،ولم يأمر به . .

وفرق بين الحالتين ، فلو أمر به لما كان هناك فكاك من لاسترقاق ، لكنه ـ كما قلنا ـ تركه لتقدير الرسول والحاكم يتصرف فيه حسب الظروف التي تقابله ، مما يحقق مصلحة المسلمين ، يسترق ، أولا يسترق ، ويستعمل الوارد في الآية ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ وكان يمكن أن يقول : « وإما استرقاقا » ولكن حتى هذه لم يجب النص عليها . .

[وهو موقف القانون الدولى]

وهذا الذى انتهى إليه الاسلام من أربعة عشر قرنا لم يخرج عن القانون الدولي الخاص بمعاملة أسرى الحرب الآن . . فالدول المتحاربة تأسر كل دولة من جنود عدوها ما تستطيع أسره ، ثم تضعهم

في معسكرات خاصة بهم . ولمعاملتهم قانون دولي تحترمه الدولة أو لا تحترمه .. وتقوم بين الدولتين محادثات بواسطة طرف ثالث محايد ، لتبادل الأسرى وقت الحرب أو بعدها ، حسب ما تصل إليه الدولتان ، وفي نطاق مصلحة كل دولة ما امكنها ذلك .

ويظل الأسرى لدى الدولة المحاربة في صورة استرقاق ، أو ما هو أنكى منه ، لخدمة الدولة الآسرة ، حتى يتم الاتفاق على تبادلهم ، أو اطلاق سراحهم .. والاسلام يوجب على المسلمين حسن معاملة أسراهم ، حتى يتم التصرف فيهم ، فالرسول ﷺ يقول بشأن اسارى بدر « استوصوا بالأسارى خيرا »(٣) ويقول في شأن أسرى بني قريظة « لا تجمعوا عليهم حر هذا اليوم وحر السلاح ، قيلوهم حتى يبردوا »(٤) وكان يوما شديد الحرارة ..

وقد عبر المرحوم الاستاذ العقاد(٥) بأسلوبه عن هذا المعنى ، فقال :

ونحن نحب أن نلخص ما صنعه الاسلام في هذه المسألة قبل أربعة عشر قرنا في بضع كلمات : إنه حرم الرق جميعا ولم يبح منه الا ما هو مباح إلى الآن ، وفحوى ذلك أنه قد صنع خير ما يطلب من أن يصنع ، وأن الأمم الانسانية لم تأت بجديد في هذه المسألة ، بعد الذي تقدم به الإسلام ، قبل الف ونيف وثلثمائة عام .

---

(٣) منتخب كنز العمال عن مسند الإمام أحمد حـ ٢ ص ٣١٣ (آثار الحرب للزحيلي ص ٤٠٤)

(٤) شرح السير الكبير جـ ٢ صـ ٢٦٤

(٥) في كتاب حقائق اسلام صـ ٢١٦

« فالذي أباحه الاسلام من الرق ، مباح اليوم في أمم الحضـارة التي تعاهدت على منع الرقيق ، منذ القرن الثامن عشر إلى الآن » لأن هذه الأمم التي اتفقـت على معاهـدات منـع الـرق ، تبيح الأسر ، واستبقاء الأسرى ، إلى أن يتـم الصلـح بـين المتحاربـين على تبـادل الأسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة .

« وغاية ما هنالك من فرق بين الماضي قبل أربعة عشر قرنا ، وبين الحاضر في القرن العشرين ، أن الدول في عصرنا هذا تتولى الاتفاق على تبادل الأسرى ، أو على افتداء بعضهم بالغرامة او التعويض . أما في عصر الدعوة الاسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين ، فمن وقع منهم في الأسر بقي فيه ، حتى يفتدى نفسه بعمله أو بماله ، إذا سمح له الآسرون بالفداء » فهل هناك وجه بعد بيان هذه الحقيقة لناقد ينقد الاسلام ، أو يعيبه على اتخاذ هذه الخطوة المتقدمة في موضوع الرق التي لم يصل إليها العالم الحضاري إلى الآن ؟

فمن أراد أن يعيب الاسلام فليعـب القوانـين الـدولية الحـاضرة أيضا ، وليقل لنا البديل الذي يستحسنه ، بدلا من القانون الاسلامي والقانون الدولي . . ما دامت هناك حرب ، وما دام فيهـا أسرى . . ليقل لنا كيف يكون التصرف ؟ .

إن الاسلام ـ كما عرفنا روحه ـ يرحب بالحرية كل الحـرية لكل البشر ، بل ويحرص عليهـا كل الحـرص ، ولـذلك رحبـت الـدول الاسلامية بالاتفاق الدولي لمنع الاتجار بالرقيق ، وإذا كانت هناك دول منها أبقت على الرقيق ، فقد كان ذلك خارج نطاق الاسلام ، والحمد لله فقد منعته وقضت عليه بعد ذلك ، ومن سنوات . . فلم يعد بين

المسلمين في العالم الاسلامي رقيق من الأفراد أو الجماعة في أية صورة من الصور. وبقي على الدول الغربية ، ومن ينتمي إليها . أن تنزع عن استعمار الشعوب واستعبادها ، وإذلالها لمجرد أنها ضعيفة ، أو ان الله خلق بشرتها على لون يخالف بشرة البيض !! وهو أبشع ما يكون في عالم الانسان !!

[الحرب الذرية]

ونعود لنؤكد أنه ليس مما يعارض حب الاسلام للحرية ، وحرصه عليها ، ما أباحه من الاسترقاق عند الحاجة إليه ، كما بينا من قبل . . لأن الابقاء عليه بالصورة التي قدمناها سلاح لا بد منه كوسيلة من وسائل الدفاع عن الأمة ، والحفاظ على أبنائها ، وإنقاذهم من الأسر إذا أسروا . .

وفي بعض الأحيان يتبنى الانسان أشياء أو أساليب يكرهها ويبغضها ، لكن ضرورات الحياة والبقاء تفرضها . فاستعمال الغازات السامة ، وما يتبعها ، أمر يبغضه الضمير الانساني والمجتمع البشري ، ولكن حين استعملته دولة ، اضطرت دول اخرى قادرة على صنعها إلى اقتنائها ؛ لإرهاب عدوها بها ، وحمله على عدم استعمالها ؛ لأنه وشعبه سيعامل بالمثل . فهل تعاب على ذلك ؟ والقنبلة الذرية وما تبعها من أسلحة فتاكة ، شيء رهيب يزلزل كيان الضمير الانساني ، ويستبشعه المجتمع البشري . . ولكن حين استعملته أمريكا في اواخر الحرب العالمية الثانية في « هيروشيما ونجازاكي » في اليابان ، وكان لها فعلها البشع ، والحاسم في مصير الحرب ، وهزيمة

اليابان ، اتجهت الدول الأخرى إلى الوصول لسرها ، وصنعها ، وصنع ما هو أشد خطرا منها ، لحماية نفسها من الدول التي تملكها ، ويمكن أن تستعملها .

وإلا فهل كان يمكن للدول الأخرى غير أمريكا ، أن تستجيب للضمير الانساني ، وتتمسك بالخلق الكريم ، وتمتنع عن تسليح نفسها بهذا السلاح لأنه بغيض ؟ وتعرض نفسها وشعبها لاستعباد الدولة التي تملكها ؟

وعلى سبيل المثال الآن : روسيا أمام أمريكا . . ماذا كان مصيرها الآن أمام أمريكا لو لم تصل لهذه القنابل والصواريخ العابرة للقارات . أكان من الممكن والمتصور أن يكون لها الوجود الذي تعيشه الآن ؟ . والعكس صحيح . .

فهذه الاسلحة بغيضة وبشعة لدى الجميع ، والكل يرهبها ، ويرتعد ويقشعر جسمه من تصور فاعليتها وآثارها ، ومع ذلك أقدمت عليها روسيا ودول أخرى ، تدخل الآن تحت اسم « المجموعة الذرية » بينما دول أخرى تحاول الوصول إليها لحماية نفسها ، واصبح السباق لهذا السلاح البغيض عنيفا . . واضطرت أمريكا وروسيا إلى الدخول في مفاوضات للحد من هذه الأسلحة . . بدلا من التسابق في تطويرها ، وتحسينها إلى الأفحش ضررا وأثرا ، والانفاق بسفه ودون ما حد في سبيل ذلك ، مما كان يكفي لانقاذ مئات الملايين في العالم ، من الجهل والفقر والمرض . .

وكانت النتيجة أنه مع فحش هذه الاسلحة وبشاعتها لدى الضمير الانساني ، اضطرت دول لصنعها بعد أمريكا وتتطلع أخرى

للوصول إلى سرها وصنعها ، وكل ذلك من أجل حفاظ كل دولة على كيانها ، وارهاب غيرها من الاعتداء عليها ، مما أصبح أملا شعبيا لكل دولة . .

وهي مع ذلك أسلحة بغيضة ، ولكن كما قيل « ما حملك على المر ؟ قال : ما هو أمر منه » « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » فالاسلام يبغض الاسترقاق ، ولكنه أبقى عليه في هذا النطاق الضيق كسلاح يتخذه للمعاملة بالمثل ، مع دول أطلقت لنفسها العنان في الاسترقاق . . ولن تنتهي الحروب ، ولن ينقرض الأسر ، وإن كان بودنا جميعا ألا تكون حروب ، ولا يكون أسر ، ويعيش الجميع في حب الاسلام . ولكن كما يقول الله سبحانه ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ﴾ .

ولأن الاسلام لا يقصد بالاسترقاق إذلال البشر ، أو امتهان كرامتهم ، ولكنه يريد به إجراءا احتياطيا وقائيا ، نجده يحرص الحرص كله على كرامة الأرقاء ، وحسن معاملتهم ، واحترام شعورهم . .

ففي النداء عليهم ، أو الحديث عنهم نهى الاسلام عن ذكرهم بكلمة العبد أو الأمة ، فقال رسول الله ﷺ « لا تقل عبدي وأمتي ولكن قل فتاى وفتاتي » وقد عبر القرآن عن الاماء بكلمة « الفتيات » في مواضع من القرآن سبق الاستشهاد بها . .

وفي حديث لرسول الله ﷺ يقول عنهم « إخوانكم » في قوله « إخوانكم خولكم (أي خدم لكم) » جعلهم الله تحت أيديكم .

ثم يأمر بحسن معاملتهم، فيقول « فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

ونهر الرسول صاحبه عبدالله بن مسعود لضربه غلامه ، وحذره من عقاب الله له على هذا التصرف ، فأعتقه ، كما سبق أن ذكرناه .

وحين يتحرر العبد لا تتبعه آثار ماضيه ، وتؤثر على مركزه في حياته ، بل يصبح مركزه مقترناً بعمله متوقفا على كفاءته فيه ، وتقواه لله ، فزيد بن حارثة رضي الله عنه ، كان عبدا وتحرر ، وكان الصحابة يطلقون عليه « حِب رسول الله » اي محبوبه ، لمكانته عنده حتى أنه كان متخذه ابنا له قبل تحريم التبني . . وهذا العبد الذي تحرر ، زوجه الرسول من زينب بنت عمته ، وهي من هي في نسبها وشرفها ، ولما تأففت ، وتأفف أخوها من هذا النسب ، نزل القرآن يعاتبهم ، بل ينهرهم عن هذا الموقف فى قوله تعالى ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ الاحزاب / ١٦ .

وألزمهم بأن يطيعوا الرسول فيما أراده من تزويج زينب القرشية لزيد عتيقه ومولاه ؛ ليكسر حدة التفرقة ، والإساءة إلى الأرقاء بعد عتقهم ، فقد صاروا أحرارا ، ولا يجوز ان نسحب آثار ماضيهم الذي لم يكن لهم ذنب فيه إلى حاضرهم ، فهم وعملهم ، وهم وكفاءتهم وتقواهم وإخلاصهم ﴿ إن أكرمكم عندالله اتقاكم ﴾ .

ولذلك وجدنا هذا المبدأ يسري ويحطم التقاليد المتبقية من آثار الماضي ، وعصبية النسب « فقد جاءت فاطمة بنت قيس ، رضي الله

عنها ، وهي قرشية ذات جمال وفضل ، ومن المسلمات المهاجرات ، واستشارت الرسول فيمن تتزوجه ، وكان قد خطبها رجلان من قريش : معاوية بن أبي سفيان ، وأبو جهم ، فأشار الرسول بتركهما ، وبالتزوج من أسامة بن زيد وقال لها « أنكحي أسامة بن زيد » وهو مولاه وابن مولاه زيد بن حارثة . » .

وزوج عبد الرحمن بن عوف ـ وهو صحابي قرشي ـ أخته « هالة بنت عوف » بلالا العبد الحبشي صاحب رسول الله ومؤذنه(٦) .

وهذا ينطق بما كانوا يتمتعون به من احترام وتقدير في المجتمع الاسلامي ، إلى حد الإصهار اليهم ، وهو من الأمور الحساسة في العلاقات الاجتماعية . بل إن الأمر في احترام هؤلاء الأرقاء بعد تحريرهم لم يقف عند حد هذا التصرف الفردي ، ولكنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، إلى تعيين الواحد منهم قائدا عاما للجيش ، وفيه من فيه من كبار الصحابة ، ومن هم أكبر سنا . وأعرق نسبا ، وقائد الجيش له منزلته المعروفة . . ففي « غزوة مؤتة » حين كان الروم وأتباعهم في شمال الجزيرة يدلون بكثرتهم ، ويهددون الدولة الاسلامية الوليدة ، وجه الرسول إليهم جيشا جعل على رأسه « زيد بن حارثة » وقدمه على ابن عمه « جعفر بن ابي طالب » وعبدالله بن رواحة ، وكانت تعليماته « إن أصيب زيد ، فالأمير من بعده جعفر ، فإن أصيب جعفر ، فعبدالله بن رواحة » واستشهد زيد ، وكان مثالا عاليا في الشجاعة والإخلاص حتى لتقول السيدة عائشة رضي الله عن الجميع « ما بعث الرسول سرية فيها زيد إلا أمره عليها ، ولو كان حيا

---

(٦) من كتاب « المساواة في الاسلام والمدنية الغربية » ص ٢٨ طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

لاستخلفه » والعبارة الأخيرة رأى للسيدة عائشة من خلال معرفتها بنظرة الرسول إليه ، لكنه مع ذلك يدل على مكانة هؤلاء الأرقاء المحررين في الوسط الاسلامي . . حتى وجدناه في هذه الغزوة يقدمه على جعفر ابن عمه في قيادة الجيش »

ثم نجد رسول الله ﷺ يجعل ابنه الشاب « أسامة بن زيد » على صغر سنه ، قائدا للجيش الذي جهزه ، وهو في مرض موته ، للتوجه شمالا لمحاربة الروم . وفاجأه موت رسول الله ، قبل ان يتحرك بجيشه ، فاختير أبو بكر خليفة للمسلمين فاقره على قيادة الجيش ، وكان صغير السن ، وتحت إمرته كبار الصحابة ، وسار ابو بكر الخليفة في توديع الجيش ماشيا ، واسامة في مركز القيادة راكبا ، مما جعله يستحي من هذا المنظر، ويهم بالنزول فمنعه أبو بكر ، وقال له « ما على ان أغبر قدمي ساعة من نهار في سبيل الله » ثم استأذن منه في استبقاء صديقه « عمر بن الخطاب » بجانبه يساعده على القيام بأعباء الخلافة ، وتدبير أمور المسلمين فأذن له . .

وتتصاعد النظرة الطيبة الحسنة إلى هؤلاء في المجتمع المسلم الى أن ترقى بهم الى درجة استحقاقهم لتولي منصب الخليفة على المسلمين . . وإذا كان هذا لم يقع فعلا ، فقد كان أمنية من أماني الخليفة الثاني الحازم عمر بن الخطاب . . « فقد روي عن سعد بن زيد بن عمر وأنه قال لعمر في آخر حياته : إنك لو أُشرت برجل من المسلمين ، ائتمنك الناس ـ أي رضوا برأيك ـ فقال عمر : إني قد رأيت من اصحابي حرصا شديدا ، ثم قال : لو ادركني احد رجلين ، فجعلت هذا الأمر إليه ، لوثقت به : سالم مولى أبي حذيفة ، وعبيدة بن الجراح » .

« وشاهدنا في هذا ، سالم مولى أبي حذيفة ، فقد كان عبدا رقيقا ، ثم أعتقته زوجة أبي حذيفة ، وتبناه بعد عتقه ، وزوجه بنت أخيه وهي « فاطمة بنت الوليد بن عتبة » واستطاع بعمله وكفاءته ، أن يحتل هذه المكانة الكريمة »(٧) لكنه كان قد توفي . كما توفي ابو عبيدة رضي الله عن الجميع . .

فاتجاه عمر وعزمه على تولية سالم خلافة المسلمين ووضعه في صف واحد مع أبي عبيدة بن الجراح ، واختياره لهذا المنصب ـ وعمر هو من هو ـ ليسوس أمور المسلمين ، بعد ان اتسعت رقعة الدولة الاسلامية، وفي المسلمين من فيهم من كبار الصحابة ، وكبار البيوت الهاشمية والقرشية ، ممن يعتزون بنسبهم ومكانتهم في شبه الجزيرة ، وتمنيه أن يكون حيا ليتولى هذه المهمة ، يعطينا أقوى مثل على حسن نظرة الاسلام للأرقاء أصلا ، وللمحررين منهم ، ومحو كل آثار الفترة الرقية عنهم . فما كان قصد الإسلام من استرقاقهم ولا كانت نظرته للأرقاء ، امتهانهم ولا الحط من شأنهم وكفاءتهم . وإنما كان القصد منه إجراء وقائياً ينتهي بانتهاء الحاجة إليه ، ولا تتبعه آثاره . .

فحين تفلت من أبي ذر حبيب رسول الله في ساعة غضب كلمة يوجهها إلى « بلال » العبد الحبشي سابقا ، من آثار العصبية الجاهلية ويعيره بأمه ويقول له « يا بن السوداء » ويبلغ ذلك لرسول الله ﷺ يغضب على ابي ذر شديد الغضب ، حتى ظهر ذلك على وجهه ، ويقول لأبي ذر : « إنك امروء فيك جاهلية » وهذا يعني انه انسلخ عن آداب الإسلام في هذه الناحية ، ثم يقول له : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى ، أو بعمل صالح » فيأخذ الالم

---

(٧) المصدر السابق صـ ٧٣

بنفس ابي ذر ، ويستبد بها حتى يذهب لبلال ، ويعتذر له ، لا بكلمة سهلة يقولها ، يجب بها الكلمة التي رماه بها . بل إنه يضع خده على التراب ، ويقول لبلال « قم فطأ على خدي برجلك » ، فلا يجد تكفيرا عن ذنبه إلا بهذه الصورة القاسية ، تأديبا لنفسه ، أشد ما يكون التأديب ، وردعا لها أقوى ما يكون الردع ، حتى لا تحدثه بعد ذلك بمثل ما بدر منه .

ويأخذ هذا بنفس بلال كل مأخذ ، فتجيش في نفسه عاطفة الأخوة الحميدة ، وعاطفة الصفح الجميل ، ويأخذ بيد أبي ذر في حنان الصاحب الوفي ، وتقديره لصاحبه وأخيه ، ويحيطه بكل ما يعبر عن الصفح الجميل قولا وعملا . .

هذه وغيرها هي تعاليم الاسلام ، وصور لها نفذت إلى قلوب المسلمين وتصرفاتهم ، إزاء الأرقاء وهم في حالة رقهم ، وإزاءهم بعد أن يتحرروا ، وكلها تنطق بمعاني الانسانية السامية . التي لم يتسرب منها شيء وحتى الآن ، إلى قلوب الغربيين ونظرتهم حتى إلى الشعوب الحرة والتي استعبدوها بالقهر والقوة ، ولا يزالون يستعبدون أناسا أحرارا لمجرد لون بشرتهم التي خلقهم الله بها . .

﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ .

الجزية

من الضروري وأنا أتحدث لشبابنا أن أجلي بعض المفاهيم الاسلامية ، وأزيل ما علق بها من غبار في أذهان المغرضين ، إن كان من الممكن أن يسلم المغرضون من مرضهم ، وتزول المرارة المزمنة في حلوقهم نحو الاسلام ،ولست على هؤلاء أعلق أملا كبيرا ، ولكني أكتب لشبابنا ؛ كي يعرفوا دينهم وقضاياه ، ويستطيعوا في أي مجال يوجدون فيه ، أن يدفعوا الباطل بالحق ، ويذودوا عن دينهم وأنفسهم أيضا ، ما يحاول بعض الناس أن يجرحوه ، ويجرحوهم كذلك ، بما علق في أذهانهم من أكاذيب عن الاسلام ، وأرى أن أبادر فأضع أمام شبابنا قضية الجزية التي قررها الاسلام على بعض الناس لنعلم ما المراد بها ؟ ولماذا قررها الاسلام ؟ وعلى من ؟ وهل في تقريرها وفرضها عنت من الاسلام ؟ أو أنها شيء طبيعي وعادي جدا ، وإن كان لا يستسيغه أصحاب الحلوق المريضة .

فمن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

أصل لفظ الجزية وأول من فرضها : كانت الجزية نظاما معمولا بها عند اليونان والرومان ودولة الروم الشرقية (بيزانطة) ، وعند الفرس .

وقد نقل تفسير المنار[1] للمرحوم السيد محمد رشيد رضا خلاصة بحث في هذا للمرحوم العلامة الهندي السيد شبلي النعماني الذي رجح في بحثه أن اللفظ فارسي الأصل «كزيت» ويغلب على ظني ان الكاف فارسية ونطقها كنطق الجيم عند أهل القاهرة ، ونطق القاف عند الريفيين وهي بكسر الكاف وسكون الزاي ، وكان أول من نظمها في فارس هو « كسرى أنوشروان » ملك الفرس ، جعلها على الشعب الفارسي ، وعلى البلاد العربية الواقعة تحت حكمه ، في شرق الجزيرة العربية الشمالي . منازل النعمان ابن المنذر ، فنقلها العرب وتحدثوا بها ، ودخلت في اللغة العربية ، مع تحريف بسيط جدا ، هو جعل الكاف جيما مع التاء المربوطة فنطقناها « جزية » .

وحين نظمها « كسرى » جعلها على غير المقاتلين من الزراع والتجار ، لمصلحة الجند المقاتلين ، أو الانفاق عليهم ، نظرا الى أن هؤلاء الزراع والتجار لا يقاتلون ، ولذلك أعفى منها الجند ، ومن في حكمهم في خدمة الملك ، وجعلها على الرجال : من سن العشرين - الى الخمسين :٤,٦,٨,١٢ دراهم على حسب حالة الشخص المالية ، وعلى هذا الاساس ، ولهذا الغرض نظم الملك الفارسي أمور الجزية التي كان معمولا بها قبله ، وسبق الفرس وغيرهم الاسلام في فرضها وتنظيمها على طبقات من الشعب ، كضريبة دفاع .

والذين يقولون أن كلمة « الجزية » عربية الاصل ، يقولون أنها من الجزاء ؛ لأنها تؤخذ جزاء دفاع المسلمين عنهم ، وحمايتهم ، وجزاء إعطاء من تؤخذ منه حقوق المسلمين . . الخ ، مستدلين أو متأنسين بذكر لفظ جزاء ، تعبيرا عن الجزية ، في بعض العهود التي

(١) عند شرحه للآية ٢٩ من سورة التوبة .

أعطاها المسلمون أهل الذمة كما سيأتي :

■ أصلها في الاسلام :

ونحن لم نأخذها عن الفرس أو غيرهم تقليدا لهم ، وإنما أخذناها من قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾(٢) .

والآية في حاجة الى شيء من التوضيح والتفسير .

فليس الامر بالقتال هنا يعني الابتداء به دون سبب إلا مجرد أنهم مخالفون لنا في العقيدة ، بل الأمر هنا هو بقتال من تضطرنا الظروف لقتاله ، كما يقول صاحب المنار « أي قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال ، كالاعتداء عليكم ، أو على بلادكم أو اضطهادكم ، وفتنتكم عن دينكم ، أو تهديد أمنكم وسلامتكم ، كما فعل الروم مما كان سببا لغزوة تبوك » .

فالقتال هنا للدفاع ، وكسر شوكة المعتدين ، حتى يستسلموا ،

وعلامة استسلامهم والدخول في طاعتكم أن يستقر الأمن ، ويدفع القادرون منهم ضريبة سماها القرآن « الجزية » هي نظير وجزاء الدفاع والحماية لهم ، وعبّر القرآن عن ذلك بقوله ﴿ عن يد وهم صاغرون ﴾ أي يدفعها القادرون ، وهو تفسير « عن يد » أي قوة مالية على دفعها « وهم صاغرون » أي مستسلمون استسلاما تاما لكم ، لأنه لا يتأتى دفعهم لها ، إلا إذا كان خضوعهم ، واستسلامهم

(٢) الآية / ٢٩ .

للمسلمين تاما ، بعد انهزامهم أمام الجيش الاسلامي ، أو عدم قدرتهم على التصدي له .

[نوع الجزية]

والقرآن لم يحدد جنسها ، ولا مقدارها ، ولكن تركها للرسول ، وللحكام المسلمين ، يتصرفون فيها حسب الظروف التي أمامهم ، فقط وضع لهم المبدأ ، كما وضع مبدأ الشورى ، وترك أمر تطبيقهما للحاكم المسلم ، ولذلك كان الرسول ﷺ يتصرف في أمرها ، حسب ظروف من تؤخذ منهم دون إعنات لهم ، وحسب مصلحة المسلمين وحاجتهم .

فأحيانا كان يأخذها ذهبا ، وأحيانا ثيابا وشياها ، وبقرا وابلا وأخشابا .

وكانت توضع على القرية كلها دفعة واحدة حينا ، ويتولى حاكمها توزيعها على القادرين وحيناً آخر على الرؤوس واستمرت كذلك ، حتى كثرت الفتوحات في أيام عمر رضي الله عنه ، فأخذ في تنظيمها وترتيبها وتعيين مقاديرها ، مراعياً أحوال الدولة الاسلامية ، ونفقاتها في الحروب ، وحالة الشعوب المفتوحة التي ستدفع الجزية ، يعني الحالة المالية لأفرادها .

[من يدفعها ؟]

وقد جعلها على الذكور البالغين الأصحاء ، القادرين على

دفعها ، من القادرين على الحرب ، وأعفى منها من عداهم ، ممن لم يبلغوا ، ومن النساء ، والشيوخ كبار السن ، وأصحاب العاهات ، كما جعل موعد جبايتها وقت الحصاد كل سنة ، تسهيلا على الدافعين .

والمهم بعد هذا كله أن نعلم أن قوله تعالى ﴿ عن يد وهم صاغرون ﴾ يعني يدفعونها عن قدرة على دفعها ، وهم مستسلمون ، وليس المراد ـ كما قيل خطأ ـ يسلمونها يدا بيد ، مظهرين الصغار والضعة ، فاليد تستعمل في القرآن بمعنى القدرة كما في قوله تعالى ﴿ يدالله فوق أيديهم ﴾ أي قدرة الله فوق قدرتهم ، وقوله ﴿ وقالت اليهود يدالله مغلولة ﴾ اي قدرته ، ويقول الحاكم مثلا « إن يدي تصل إليكم » أي قدرتي . وهكذا فالذي نصت عليه الآية شيء طبيعي ، وفيه إنصاف ، حيث لا يدفعها إلا القادرون ، ويدفعونها دليلا على استسلامهم وخضوعهم وعدم محاربتهم للمسلمين .

[ضريبة الدفاع]

كما يهمنا أن يعرف الجميع أن هذه الضريبة ـ بلغة عصرنا ـ انما هي بديل وجزاء عن حمايتهم وعن عدم اشتراكهم في الدفاع وحماية أنفسهم ، فهي شبيهة بضريبة الدفاع والأمن القومي ، يؤديها الرجال القادرون على الحرب ، وعلى الدفع ، حتى لنرى تسمية هذه الضريبة في بعض المعاهدات ، باسم « الجزاء » ، عوضا عن تسميتها بالجزية ؛ لأن الكلمتين بمعنى واحد ، فهم يدفعونها جزاء ومقابل حمايتهم وأمنهم ، والدفاع عنهم ، لأنهم لا يشتركون في الدفاع

حماية ، وتركوا أمر ذلك للجيش الاسلامي ، بدليل أنهم لو اشتركوا في الحرب ، أو في شيء من المعونة للمسلمين ، للدفاع عن الدولة ، فإنهم يعفون من دفعها .

وقد ورد ذلك نصا في بعض المعاهدات والعهود ، التي أعطاها إياهم قادة المسلمين وولاتهم ، وبدليل ان المسلمين كانوا إذا لم يقدروا على حمايتهم ، والدفاع عنهم ، يردون لهم الجزية التي أخذوها منهم ، ويتبين ذلك كله بوضوح من النصوص والوثائق التي نضع أمامك بعضاً منها هنا .

ولعل أقدم عهد في ذلك ، هو ما كتبه خالد بن الوليد في صفر12 هـ لصلوبابن نسطونا حين دخل الفرات ، وأوغل فيها ونصه : « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبابن نسطونا وقومه » أني عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة ، وما منعناكم « أي حميناكم » فلنا الجزية وإلا فلا .

ولما أدىَ هؤلاء الجزية كتبوا لأمراء المسلمين عليهم يقولون : « إنا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالد ، على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم » .

ونلاحظ ما ورد في عهد خالد رضي الله عنه « فلك الذمة والمنعة » ، فهذا يعني معاملتهم كرعايا في الدولة الاسلامية ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، من الحقوق والواجبات العامة ، كتوفير الأمن والعدل ، وسبل كسب العيش ، وإقامة مراسيم دينهم .. الخ .

والمنعة هي الحماية من الاعتداء عليهم داخليا وخارجيا ، كما جاء

في خطابهم : « على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم » .

فهذا واضح في أن المال الذي يؤديه هؤلاء ، إنما هو جزاء وبدل حمايتهم ، وتوفير الأمن لهم ، في الداخل والخارج .

إذ لا يعقل أن يعيشوا رعايا في الدولة ، يتمتعون بما يتمتع به المسلمون : من أمن ورعاية ، والمسلمون هم الذين يتحملون وحدهم عبء الدفاع والتأمين ، بأنفسهم ، وبمال الزكاة الذي يدفعونه للدولة ، لتجهز منه الجيوش ، وتنفق منه على المرافق ، ولا يدفع غير المسلمين شيئا ؛ إذ أن هذا يمثل ظلما يقع على بعض الرعية وهم المسلمون . فكان من العدل ، أن يشارك غير المسلمين بشيء من المال ، في توفير الأمن والحماية لهم . .

نعم فإن الاسلام إذا لم يقرر مثل هذا على غير المسلمين ، يكون قد ألحق ظلما بالمسلمين ، لأنه يكون قد حملهم وحدهم ، دون رعايا الدولة الآخرين ، عبء الأمن الداخلي والخارجي ماليا وبدنيا ، فكانت الجزية مظهرا من عدالة الاسلام مع الرعية وانصافهم ، حتى لا يقع على عاتق بعضهم وحدهم هذا العبء ، بينما ينعم الآخرون فيها ، دون التزامات يؤدونها . .

أرأيت هذه الجزية التي يتمسح بها المغرضون ، للنيل من الاسلام لماذا جعلها الاسلام ؟ وكيف أنها مظهر للعدل بين الرعية ولإنصاف المسلمين ، وتسويتهم بغيرهم ، في تحمل الالتزامات نحو الدولة التي تظلهم وترعاهم ، فكما أن الأمن والرعاية حق للجميع ، فإن الجميع يتحملون نفقات هذا الأمن وهذه الرعاية . .

[المسلمون ينفذون عهودهم]

في عهد خالد بن الوليد السابق قال « وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا» فهل كان هذا مجرد وعد أثناء الحرب ، للاستهلاك اليومي ، كعهود الدول المحاربة في أيامنا ؟ أو كان عهد شرف ، أعطاه المسلمون ، ووفوا به على أحسن وأجمل ما يكون الوفاء ؟

إن الذي يتتبع التاريخ بعد ذلك يجد أن المسلمين كانوا أبر الناس بعهودهم ، لا في حادثة فردية واحدة ، ولكن في حالاتهم كلها ، فكانوا اذا أخذوا جزية من قوم ، ثم لم يستطيعوا بعد ذلك الدفاع عنهم وحمايتهم ، يردون عليهم ما أخذوه منهم ، مما يدل على أن ذلك كان دستورا لهم ـ بلغة عصرنا ـ أو أمرا مقررا دينيا ، يلتزمون به ، كما يدل بصراحة على أن الجزية كانت نظير الأمن والحماية ، والوقائع الدالة على ذلك كثيرة ـ كما قلت ، أكتفي هنا بما ذكره القاضي ابو يوسف في كتابه « الخراج » قال (إنه لما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم ، وحسن السيرة فيهم ، صاروا أشداء على عدو المسلمين وعيونا للمسلمين على أعدائهم ، فبعث أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم أي المسلمين بأن الروم قد جمعوا جمعا لم ير مثله ، فأتى رؤساء أهل كل مدينة الأمير ، الذي خلفه أبو عبيدة بن الجراح عليهم ، فأخبروه بذلك ، فكتب والي كل مدينة إلى أبي عبيدة يخبره بذلك ، وتتابعت الأخبار على أبي عبيدة ، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين ، فكتب إلى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها ، يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج) وكتب اليهم أن يقولوا لهم :

« انما رددنا عليكم أموالكم ، لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من

الجموع ، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم (نحميكم) ، وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كان بيننا وبينكم ، إن نصرنا الله عليهم » .

فلما قالوا ذلك لهم ، وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم ، قالوا لهم : « ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلما قالوا ذلك لهم ، وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم ، قالوا لهم :

« ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيءحتى لا يدعوا شيئاً » .

فلم يكن وعد حرب ، ولكنه وعد شرف ودين ، أعطاه المسلمون ، فوفوا به خير وفاء ، وردوا فعلاً أموال الجزية التي أخذوها ، وما ذكره أبو يوسف ذكر غيره أكثر منه وكله غنى عن التوضيح والشرح فيكفي هذا . . .

[من عاون فلا جزية عليه]

ونضيف الى هذا ـ تكملة وتوكيدا له ـ أن الذي كان يشترك بأي جهد أو عون ، للجيش الاسلامي أو الدولة الاسلامية ، ممن كانت عليهم الجزية ، كانوا يعفون منها ، نظير اشتراكهم ومعونتهم ، ففي كتاب العهد الذي كتبه « سويد بن مقرن » أحد قواد عمر بن الخطاب رضي الله عنهم « لكم الذمة ، وعلينا المنعة ، على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم ، على كل حالم ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته ، عوضا عن جزائه (أي جزيته) . . الخ .

وفي العهد الذي كتبه « عتبة بن فرقد » عامل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضا لأهل أذربيجان جاء فيه « ومن حشر معهم في سنة (أي اشترك مع الجيش) وضع عنه جزاء تلك السنة (أي جزيتها . . الخ) ونكتفي بهذين الشاهدين من شواهد كثيرة مثلهما تدل على أن الجزية كانت جزاء تعهد المسلمين بحمايتهم وأمنهم والدفاع عنهم ، وكانت مجرد مشاركة مالية بينما كان المسلمون يشاركون ماليا وبدنياً بالاشتراك في الجيش والحرب ، ودفع الزكاة .

ولقد كان عندنا الى عهد قريب ما يشبه هذا ، وهو الذي كان يعرف بنظام « البدلية » يدفعها الشاب القادر على دفعها ، ويعفى من الجيش أيا كان دينه . . فألغى هذا ، وفرض التجنيد الاجباري المعمول به الآن . .

ولقد كان الرسول ﷺ وصحابته من بعده ،شديدي الحرص على تحري العدل والانصاف في معاملة أهل الذمة الذين نجبي منهم الجزية ، فيذكر أبو يوسف في كتابه الخراج أن رسول الله ﷺ ولى عبدالله بن أرقم على جزية أهل الذمة ، فلما ولى من عنده ، ناداه ، فقال له :

ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة » أي أحاجه وأخاصمه .

وقد التزم المسلمون من بعده بهذا ، خلفاء وولاة . . حتى وجدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرص على التوصية بأهل الذمة عند وفاته ، واستشهاده رأسا برسول الله فكانت وصيته للخليفة بعده : « وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ خيرا مقاتل من ورائهم (يدافع عنهم وهم لا يشهدون الحرب) وألا يكلفوا فوق طاقتهم » .

تلك هي قصة الجزية التي ولغ فيها المغرضون ، وأثاروا حولها ما أثاروا ، من غبار الأكاذيب ، تتمثل فيها عدالة الاسلام والمسلمين على نحو لم يشهد التاريخ له مثيلا . .

(أولئك آبائي فجئني بمثلهم) .

الحرب والسلام

ونواصل الحديث لشبابنا في الخارج ـ وفي الداخل أيضا ـ عن قضايا دينهم وما يجب أن يعرفوه عنها ، استكمالا وإنصافا لشخصيتهم ولدينهم ، فدين الانسان ـ كما قلنا ـ جزء مهم من تكوين شخصيته ومن نظرة غيره اليه .

التقى بي قارىء مثقف ، يتولى عملا مهما ، وهو في الأربعينات ، وقال لي : لماذا تخص بكلامك شبابنا في الخارج ، ونحن هنا في مواقعنا المختلفة ـ لا شبابنا وأولادنا وحدهم ـ في أشد الحاجة الى أن نفهم هذه التفاصيل عن ديننا ؟

لقد مررنا بمراحل التعليم المختلفة ، وما خرجنا منها بشيء ذي بال عن ديننا وقضاياه .

فالتعليم الجامعي لاشيء فيه عن الدين ، مع أن الطالب فيه يكون قد بلغ سن النضج ، وإدراك المشاكل المادية والفكرية ، بل تلعب هذه المشاكل برأسه ليصبح في حاجة إلى تثبيت رأسه حتى لا يميل وينحرف . .

وما أخذناه في التعليم العام . الابتدائي والأعدادي والثانوي ـ كنا

نأخذه على أنه شيء ثانوي ، بجوار المواد المهمة الأخرى ، فكنا نهمله ، كما يُهمَل من المدرسة والمدرسين ولا يلقى العناية التي تأخذها بقية المواد !! حتى كنا لا نستوعب ما يجيء في الكتب الدينية المقررة ، على قصورها ، فجيلي ، والأجيال التي جاءت بعدي ، والتي لا تزال تفرخها الجامعات ، في أشد الحاجة إلى أن يقرأ عن دينه ، مثل هذه التفصيلات التي تزيده إيمانا به ، وتسلحه بالرد على الشبه التي تعرض له . .

قلت له : أعرف هذا كله مع الأسف الشديد ، وأدرك تماما مدى حاجة شبابنا الى هذه المعرفة وأمثالها عن دينهم ، سواء استقروا هنا أم سافروا للخارج ، وقد أشرت الى هذا في حديث سابق لكن المناسبة التي أثارت حماسي للكتابة كانت حديث عائد من الخارج . أبدى لي فيه مدى ما كان يعانيه هو وزملاؤه ، من إثارة الشبه ضد دينهم ، وما كانوا يستطيعون لها ردا ، مما أشرت اليه من قبل ، فوجهت حديثي لهم خاصة ، إثارة لاهتمامهم ، وان كان الحديث عاماً للجميع ، لكل قارىء ، سواء بقي هنا ، أم سافر لبيئات لا تعترف بالاسلام .

ونواصل الحديث عن قضية من أهم القضايا التي تثار حول الاسلام ، ويجابه بها المسلمون هنا وفي الخارج ، وهي موقف الاسلام من أهل الأديان الأخرى ، وهل اعتمد على السيف والضغط في انتشاره ،؟ وهل يقف المسلمون موقف حرب وعداء من غيرهم باستمرار؟ أو ما موقف الاسلام من الحرب والسلم ، تساؤلات قائمة يثيرها بعض الناس ، للرغبة في المعرفة والتثبت ويثيرها آخرون لمرض في نفوسهم وقد كتب حولها بحوث كثيرة من قبل ، حوت وجهات نظر

مختلفة ، وجاء كتابنا وعلماؤنا المحدثون ، وحاولوا تحقيقها في كتب ، لعل الكثيرين لا يتيسر لهم قراءتها ، كما يتيسر لهم قراءة وهضم هذه الوجبات الخفيفة .

■ مراعاة الظروف والمصلحة :

ولنبدأ بالحديث عن موقف الاسلام من الحرب والسلم فهو الأساس الذي يمكن أن تبنى عليه الاجابة عن هذه التساؤلات ، ونستعرض آيات القرآن الكريم ، وسنة الرسول ﷺ ، الخاصة بذلك ، فتحس أن هذه التعليمات كانت تراعي الواقع والعقل والمصلحة ، ولا عجب ، والاسلام دين الفطرة والطبيعة ، فلم يأت بتعليم يصادر العقل ، ويهمل الظروف والمصلحة ، ولذلك نرى أن الايات التي نزلت في مكة ، والمسلمون قلة قليلة لا شوكة لها ، بل كانت مستضعفة مضطهدة ، والموقف كله في يد أعدائها ، نرى هذه الآيات تنزل على الرسول ﷺ توصيه بالصبر والعفو « لست عليهم بمسيطر » « الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك الا البلاغ » « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » . . إلى غير ذلك من عشرات الآيات التي توصي الرسول ﷺ وأصحابه بالصبر والتجمل ، وعدم الرد على القوة بمثلها ، وذلك مراعاة لظروف المسلمين الذين لا يستطيعون الوقوف بالقوة والحرب أمام الكثرة المشركة في مكة وما حولها ، وإلا فما الذي يفعله العاجز ؟ .

فلما هاجر الرسول والمؤمنون معه إلى المدينة ، وأسلم كثير من أهلها ، تغير الوضع ، وأصبح للمسلمين شوكة ومجتمع مستقل ، آمن ، يقوده رسول الله ، وصار من الممكن لهم في ظل وضعهم الجديد

أن يقاوموا ، وأن يردوا على القوة بمثلها ، وإن كانوا أقل عددا من المشركين ، حينئذ نزلت أول آية ، تبيح لهم وتوجههم إلى القتال ، والدفاع عن النفس والمصالح ، وهي قوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾(٣) أي بسبب ما دفع عليهم من ظلم .

وبدأ بذلك صدام القوة بالقوة ،

ويتمثل ذلك قويا في « معركة بدر » في رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، والمعارك التي بعدها ، ونزلت الآيات بعد ذلك ، تحرض المؤمنين على القتال ، لكنا نلاحظ أنها حصرت دائرة القتال في الدفاع عن النفس والعقيدة ، لرد المعتدين وكسر شوكتهم .

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾(٤) .

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾(٥) أي قاتلوهم حتى يكفوا عن تعذيب المسلمين وفتنتهم ، لإرجاعهم عن دينهم ، وحتى يكون الناس أحرارا فيما يعتنقون ، لا يتعرض لهم أحد بقهر وأذى ، وهذا معنى « ويكون الدين لله » أي بينه وبين الانسان لا يفرضه أحد .

﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾(٦) الى غير ذلك من الآيات المشابهة .

وبذلك حصر القرآن دائرة القتال في الدفاع عن النفس

---

(٣) سورة الحج / ٣٩ .
(٤) البقرة / ١٩٠ .
(٥) البقرة / ١٩٣ .
(٦) التوبة / ٣٦ .

والعقيدة ، ومقابلة القوة بالقوة ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾(٧) فلم يشرع القرآن ـ إذن ـ ولم يقر حربا هجومية ، لقهر أحد ، أو إجباره على اعتناق الاسلام ، أو لمجرد ايذائه .

[مسالة المسالمين]

وفي المقابل نجد القرآن يأمر بمسالة المسالمين ، وعدم قتالهم .

﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوْا إليكم السلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾(٨) .

﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾(٩) .

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾(١٠) الى غير ذلك من الآيات المشابهة ، وهذا وذاك يدلان على المبدأ الاسلامي المقرر من قديم ، والذي وصل إليه القانون الدولي الان : « نسالم من يسالمنا ، ونقاتل من يقاتلنا » أو نعادي من يعادينا ، ونقاتله ، حين تكون لنا قدرة على القتال ، وإلا صبرنا حتى نُعِد انفسنا ، ونقوى على قتاله . وهذا مفهوم طبيعي .

ولقد كان هذا هو سلوك الرسول ، عملا بالقرآن الذي نزل عليه في مكة ، ثم في المدينة لم يخرج عنه .

---

(٧) البقرة / ١٩٤ .
(٨) النساء / ٩٠ :
(٩) التوبة / ٧ .
(١٠) الأنفال / ٦١ .

[ضرورة الاستعداد للحرب ولماذا ؟]

فالاسلام اذن لا يقر الحرب العدوانية ، ولا يقر الحرب واستعمال القوة ، لجبر الغير على اعتناق الاسلام ، فالآية صريحة : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ، وهو مقتضى الفطرة ، فالتدين اقتناع وحب ، وهو متعلق بالقلب ولا سبيل يقره بالقوة على شيء معين .

فالحرب المشروعة ـ إذن ـ هي الحرب الدفاعية ، وهو مبدأ قرره الاسلام ، قبل أن يصل اليه القانون الدولي بمئات السنين ، تأمينا للانسانية من البطش والارهاب والغدر ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾(11) ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله** ﴾(12). أي لقضي على الخير والحق ، وانفرد الباطل بالسيطرة . .

ولما كان الظلم من شيم النفوس ، وكان الكثيرون لا يعبأون بخلُق ولا يكترثون بحقوق الغير ، مغترين بقوتهم ، ولما كانت القوة لا يرد عليها الا بالقوة ، وكان الحق في حاجة الى حراسة تحميه من العدوان ، أمر الله المسلمين ، أن يكون استعدادهم كاملا للدفاع عن أنفسهم ، وإرهاب من تحدثه نفسه بالاعتداء عليهم ، حتى لا يدفعه ضعفهم وغروره ، إلى هذا الاعتداء .

وجاءت الآية تأمرهم بهذا ، وتحدد لهم وظيفة القوة التي يوفرونها

---

(11) البقرة / 251 .

(12) الحج / 40 .

لأنفسهم ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ وخص الخيل بالذكر لانها كانت العدة القوية في الحرب فهي ترمز الآن إلى الدبابات والطائرات الخ . . ثم بين لهم الغاية من تلك القوة فقال : ﴿ تُرهِبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾(١٣) .

ولم تصرح الآية بأن الغرض هو الحرب فعلا ، فحتى لفظ الحرب والقتال تحاشته ولم تصرح به بل ذكرت ما يمنع وقوعها ؛ لكراهية الله للحرب وشرورها ، وهو قوله : « ترهبون » أي تخيفون عدو الله وعدوكم من الدخول في حرب معكم ، فان الاستعداد للحرب يمنع غالبا وقوع الحرب ، كما نرى روسيا وأمريكا الآن ـ فالاستعداد للحرب في نظر الاسلام ، إنما هو أمر وقائي من وقوعها وهجوم الغير عليهم ، لأن ضعف الأمة يغري الأقوياء بها ، بينما قوتها توقفهم عند حدهم وتمنعهم من الدخول معها في حرب وتحقق السلام . كما أن تشريع القصاص طريق للحياة ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ .

واذا كان المسلمون لا يحاربون إلا دفاعا عن أنفسهم وعقيدتهم ، وعرضهم ، ومصالحهم ، وهذا أمر مشروع ، باتفاق فإن الإسلام يريد أن يجنب المسلمين حتى الوصول الى هذه النقطة ، وهي الحرب ، وذلك بقوة الاستعداد لها .

فإلى هذا الحد الذي بلغ منتهاه في الانسانية ، والحفاظ على مصالح البشر عامة ـ مسلمهم وغير مسلمهم ـ ينظر الاسلام ويعمل .

أفبعد هذا يظن ظان أن الاسلام يرضى عن الحرب الهجومية العدوانية ، أو يشرع الحرب ؛ لقهر الناس واجبارهم على الاسلام ،

---
(١٣) الأنفال / ٦٠ .

والله يعلم أن مثل هذا القهر لن يجدي ، ولن يأتي بنتيجة ايجابية ، بل يأتي بنتائج عكسية ضد الاسلام ؟

[وقفه مع حديث]

وهنا قد يجد بعض الناس شيئا من الخلاف ، أو التناقض بين ما نقرره ، وبين حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة : فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » .

فهذا الحديث يفيد أن الرسول ـ وتتبعه أمته ـ مأمور بأن يقاتل الناس جميعا حتى يسلموا . . ولكن نظرا لأن هذا الحديث في منطوقه ومفهومه الظاهر يدل على غير ما دلت عليه الآيات ؛ والأحاديث الكثيرة القولية والفعلية من أن هدف القتال هو الدفاع والحماية وجدنا شراح الأحاديث والأئمة يقولون : أن كلمة الناس هنا عام أريد به خاص(١٤)وهم عرب الجزيرة الوثنيون أهل الرسول وعصبته ومن نزل القرآن بلغتهم ، فهولاء الوثنيون لا يتسامح معهم ، كما يتسامح مع غيرهم ، لأنهم أول الناس جميعاً في فهم القرآن ، وإدراك معجزته

---

(١٤) وقد جاء مثل ذلك في عدة مواضع من القرآن ، ومنها آية فيها كلمة الناس » ولم يرد كل الناس ، بلي جماعة خاصة « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا » ١٧٣ / آل عمران . فالناس جميعا لم يقولوا للمسلمين ، بل فرد أو أفراد ، والناس جميعا لم يتجمعوا لقتال المسلمين بعد أحد ولكن المراد أبو سفيان وجماعته . فإطلاق العام وإرادة الخاص به شيء مألوف في الاستعمال القرآني وفي السنة وفي كلام العرب . .

فصدودهم عن الاسلام ، إنما هو عن تكبر وتعنت ومجرد عصبية ، ومثلهم لا يليق لهم إلا القوة ، تكسر حدتهم وغرورهم ، وحينئذ ينطقون بالحق الذي يعرفونه بقلوبهم ولهذا أجمع الأئمة على أن العرب الوثنيين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف على عكس الأمم الأخرى ، فإنها يقبل منها ـ حين هزيمتها فى حرب ـ إما الدخول فى الاسلام أو طاعة المسلمين ودفع الجزية ، علامة على طاعتهم ومشاركة منهم في الدفاع عن مصالح الدولة داخلياً وخارجياً علماً بأن هؤلاء لم نقاتلهم ، إلا دفاعاً عن أنفسنا ، بعد تهجمهم علينا ، وتحرشهم بنا ، ولم نقاتلهم ابتداء للدخول في الإسلام .

[ولهم مالنا وعليهم ما علينا]

ولقد حرص الاسلام على أن يعامل المسلمون غيرهم من اهل الكتاب وممن في حكمهم ، إذا كانوا تحت حكمهم ورعايتهم ، بالعدل الذي شرعه الله ، والرحمة التي يحبها ، فيصبح لهم كل الحقوق العامة التي للمسلمين ، وعليهم الواجبات العامة كذلك ، غير أنهم لا يجبرون على الانخراط في سلك الجيش الاسلامي ، كما لا يجبرون كالمسلمين على دفع الزكاة ، ويدفعون عوضا عن هذين ، مبلغا من المال ، يدفعه الرجل الغني القادر على الحرب عن نفسه فقط ، دون النساء ، والصبيان ، والمسنين ، وذوي العاهات ، وهو مبلغ لا يمثل عبئا ، مبلغ زهيد رمزي عن خضوعهم ، ومشاركتهم في المصالح العامة ، التي يستفيدون منها داخليا وخارجيا ، كما سبق أن تكلمت عن ذلك بتوسع ، فهم في الحقوق والواجبات العامة ، شركة مع

المسلمين ، ومتساوون معهم ، والقاعدة « الشرعية » لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

أما في الأمور الخاصة بدينهم كالزواج ، والطلاق ، والميراث ، والعبادة ، والأعياد فإنهم يتبعون دينهم ، وتتاح لهم حرية كاملة في ذلك .

كتب أبو عبيدة بن الجراح قائد الجيش في الشام الى عمر بن الخطاب رضي الله عن الجميع ، يخبره بما أفاء الله به على المسلمين ، وما أعطى أهل الذمة من الصلح ، فكتب اليه الخليفة يقول له : وامنع المسلمين ظلمهم ، والإضرار بهم ، وأكل أموالهم الا بحقها ، ووف لهم بشروطهم التي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم . .

وكان قواد الجيش الاسلامي كخالد بن الوليد ، أو أبي عبيدة حين يدخلون بلدا يكتبون لأهلها عهدا .

ومما جاء في عهد خالد لأهل الحيرة « على ألا تهدم لهم بيعة ولا كنيسة ، ولا يمنعون من ضرب النواقيس » إلا في أوقات الآذان والصلاة ، حتى لا يحدثوا فتنة ، كما جاء في عهد آخر : « ولا يمنعون من إخراج (إبراز) الصلبان في يوم عيدهم » ، وجاء مثل ذلك في عهد أبي عبيدة أيام عمر بن الخطاب « على أن تترك لهم كنائسهم وبيعهم »وحادثة عمر بن الخطاب حين ذهب للقدس وامتنع عن الصلاة في الكنيسة حتى لا يتعلل المسلمون بذلك ، ويأخذوها ، حادثة معروفة مشهورة ، وقد خرج وصلى خارجا ، بعد أن طلبوا منه الصلاة فيها ، حفاظا على حق المسيحيين على مر الزمن حتى لا يأخذها المسلمون بحجة ان عمر صلى فيها .

ومما جاء في بنود معاهدة خالد « أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ؛ معرفة بحاله ، طرحت عنه الجزية ، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله » وهو بذلك يقتدي بما فعله عمر مع اليهودي

الذي كان يسأل الناس احسانا في المدينة ، فلما عرف حاله ، حط عنه الجزية ، وجعل له ولأولاده معاشا من بيت مال المسلمين ، فلم يكن المسلمون يستغلون ضعفهم المالي للضغط عليهم ، للدخول في الاسلام ، كما أن الجزية لم تكن تمثل ضغطا ، وهي كما عرفنا شأنها من قبل .

وهكذا كان موقف الإسلام والمسلمين الاول من الحرب والسلام ، وموقفهم من غير المسلمين ، مواقف كلها عدل وانصاف ورحمة ، لا نجد لها مثيلا على مر التاريخ كلها ، مواقف متناسقة ومتلاقية من الخلفاء وقوادهم ، مع تعدد الخليفة ، وتعدد القواد ، والاماكن ، والأمم ، لانها تصدر عن منبع ومصدر واحد ، هو نبع الاسلام دين الله الخالد « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » .

[رأي مردود]

ولكي يتحصن شبابنا بالفهم الصحيح ، الذي قدمناه من قبل عن نظرية الاسلام في الحرب والسلم ، وهو الفهم ، الذي صار إليه الأئمة ، والعلماء الفاقهون ، لآيات القرآن الكريم ، وللأوضاع العالمية كما ينبغي أن تكون عليه ، نقول لهم احتياطيا بإنهم حين يراجعون بعض الكتب ، التي تعرضت لتفسير آيات القتال : من كتب التفسير ، أو كتب الأحكام الشرعية ، سيجدون رأيا آخر في

تحديد موقف الاسلام ، والمسلمين من الحرب ، ومن الأمم التي لا تدين بالإسلام ، وهذا الرأي وإن كان ضعيفا مردودا عليه ، ولا يتلاقى مع النظرة الصحيحة ، والفهم المستقيم لآيات القرآن الكريم ، بل يورد الشبه والطعون على الاسلام ، إلا أنه رأي في الكتب ، قالت به طائفة من علماء المسلمين.

وكم حوت الكتب من آراء ثمينة وغثة ، ويحتم علينا العقل ، والإخلاص للإسلام ، أن نغربلها ، ولا نقر منها إلا ما يتفق مع وجهة النظر الصحيحة ، لمبادىء الاسلام ، وحسن نظرته للقضايا العامة ، وصدق الفهم لآيات القرآن الكريم ، وللحديث الشريف .

[دار الحرب ودار السلام]

هذا الرأي يذهب أصحابه إلى تقسيم العالم إلى دارين ، أو قسمين : دار إسلام ، وهي التي تقام فيها شعائره ، وتجري فيها أحكامه ، ويأمن المسلمون فيها على أنفسهم ومالهم ، ودار حرب ، وهي التي يقيم فيها غير المسلمين ، ولا تقام فيها شعائر الإسلام ، ولا تجري فيها أحكامه .

ويرى أصحاب هذا الرأي ، أنه لا توجد علاقة سلمية بين المقيمين في دار الاسلام ، والمقيمين في دار الحرب ، بل العلاقة بينهم حربية مستمرة ، وعلى المسلمين إذا كانت بهم قوة أن يعلنوا الحرب عليهم ، ويحاربوهم باسم الإسلام ، ولو كانوا مسالمين ، حتى يسلموا ، أو يستسلموا ، ويبقوا على دينهم ، ويدفعوا الجزية علامة على استسلامهم .

وأصحاب هذا الرأي يرون أن أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، هي العداوة والحرب المستمرة ، وأن الآيات التي تقرر السلم مع المسالمين ، غير المعتدين منسوخة ، مثل قوله تعالى : ﴿ فإن اعتزلوكمْ فلم يُقاتِلوكم وألْقَوْا إليكُمُ السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾(١) . وكذلك كل الآيات التي تدعو إلى الصفح والموادعة ، وهي فوق المائة والثلاثين آية منسوخة ، واستدلوا بآيات وأحاديث على رأيهم ، ولم يسلم لهم استدلالهم بها مثل قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم . . . ﴾(٢) الآية ، ﴿ فليقاتِل في سبيل الله الذين يَشْرُونَ الحياة الدنيا بالآخرة . . . ﴾(٣) ، ﴿ يأيها النبي حَرِّضِ المؤمنين على القتال . . . ﴾(٤) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات العامة ، التي لا تسعفهم بدليل . كما استدلوا بحديث : « أُمِرْت أن أقاتِل الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله . . . »(٥) الحديث وقد سبق أن بينت أن جميع المسلمين يكادون يتفقون على أن المراد بالناس هنا هم مشركو العرب خاصة ، كما يقول المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف . فاللفظ عام أريد به خاص ؛ لأنه توجد آيات أخرى تحدد صراحة معاملة أخرى لغير المسلمين ، وتفرق بين المسالمين منهم ، وبين المعتدين ، مما سبق أن ذكرناه من قبل ، وليس هناك دليل صحيح على نسخها ، فبقي الحكم بها قائما .

---

(١) سورة النساء من الآية ٩٠ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٢١٦ .

(٣) سورة النساء من الآية ٧٤ .

(٤) سورة الأنفال من الآية ٦٥ .

(٥) الحديث متواتر وروى عن أبي هريرة : في البخاري ومسلم وابى داود والترمذى والنسائي وابن ماجه (الفتح الكبير ١ / ٢٦٠ .

وهكذا لم يسلم لأصحاب هذا الرأي دليل من أدلتهم ، التي اعتمدوا عليها ، هذا أولا . وأما ثانيا : فلأن هذا الرأي لا يتفق وطبيعة العلاقات السلمية ، التي يحرص عليها الاسلام ، ويراها أصلا في علاقات الأمم بعضها مع بعض .

وأما ثالثا : فلأن هذا الرأي يؤدي إلى تأكيد الشبهة القائلة بأن الإسلام انتشر بالسيف ، وأن المسلمين على عداوة ، وحرب دائمة لغيرهم ، في أنحاء العالم ، وهذا فوق أنه غير صحيح بالمرة ، لم يسر عليه المسلمون منذ صدر الإسلام في علاقاتهم الدولية ، أيام قوة الدولة الاسلامية وسطوتها ، حيث هادنوا دولا مسيحية ، وتبادلوا معها السفارات ، والمصالح دون أن يهاجموها ويعلنوا عليها الحرب . لأنها كانت مسالمة .

ولم نجد من الأئمة في ذلك الوقت ، من يرى خطأ سلوك الدولة الاسلامية ، ومخالفته للاسلام .

ثم إن العقل والمنطق الاسلامي ، والمصلحة العامة ، كل ذلك يأبى أن يأخذ المسلمون هذا الوضع في العالم ، وباسم الاسلام ، فهذا الرأي إذن رأي ليس له أساس ، ولا دليل سليم ولذلك رفضه الأئمة ، وجمهور العلماء .

[منشأ هذا الرأي]

لكن كيف نشاهد هذا الرأي ، وقال به علماء محترمون لهم مكانتهم ؟ .

أعتقد أنهم تأثروا ـ فيما ذهبوا إليه ـ بالوضع الذي كان قائما في العصر الأول من الاسلام ، حين كان المحيط بالدولة الاسلامية من العالم في ذلك الوقت ، متألباً على الاسلام ، والحرب قائمة بينه ،

وبين المسلمين فعلا ، أو في حالة حرب وتربص ، فتحت هذا الواقع المتوتر نشأ هذا الرأي ، فلما استقرت الأمور ، وتغيرت الأوضاع ، ووجد على الرقعة المعروفة من العالم ، من لا يعتمد على الحرب ، ومن لا يتربص بالمسلمين ، بل يريد معاهدات ، وعلاقات سلمية معهم ، برزت الحاجة ، كما يقول الدكتور الزحيلي في كتابه : « آثار الحرب » ، ويقول غيره ـ إلى تدعيم العلاقات الطبيعية والسلمية بين المسلمين وغيرهم ، عن طريق المعاهدات ، كما برزت وقويت الفكرة ، والنظرة الإسلامية إلى السلام ، الذي هو أصل العلاقات بين المسلمين ، وغيرهم ، في العلاقات الخارجية ، وفي ظل الإسلام . فتقسيم العالم إلى دار اسلام ودار حرب ، كان بناء على الواقع المحيط بالاسلام في ذلك الوقت ، الواقع العدائي . . وأعتقد أنه كان تطبيقاً ايضا لنظرية الاسلام العامة « نعادي من يعادينا ونقاتل من يقاتلنا » ، فلما وجد المهادنون للمسلمين من الأمم حولهم ، طبق عليهم المبدأ المقابل « ونسالم من يسالمنا » فهذا الخلاف ـ كما أفهم ـ كان خلاف زمن وواقع ، وليس خلافا موضوعيا حقيقيا ، وهو اجتهاد على كل حال . .

[الآراء الاجتهادية]

ويجب أن نعرف : أن الآراء الاجتهادية ، التي ذهب إليها بعض المسلمين ، والقادة الأول ، في معاهداتهم ، أو في فقههم ، وتقنينهم للحرب والسلام ليست ضربة لازب ، يجب علينا أن نأخذ بها الآن ، كنص قرآني ، فإنهم قد بنوا آراءهم حين أصدروها ، على ضوء ما أمامهم من ظروف ، وما قرروه من مصلحة ، والظروف تتغير ، كما أن ما يحقق المصلحة فى وقت ، قد لا يحققها في وقت آخر ، ولاسيا في

المسائل الدولية المتشابكة المتموجة في كل يوم .

فعلى الذين يتكلمون باسم الإسلام في مثل هذه الأمور ، أن يضعوا المصلحة العامة للمسلمين نصب أعينهم أولا ، ثم يتخذوا على ضوء القرآن والسنة ، من القرارات أو الآراء والإجراءات ما يحققها ، ولو اختلفت كلا أو بعضا ، عما قرره السابقون ، عن طريق الاجتهاد في فهم الآيات ، تحقيقا للمصلحة في أيامهم ، وتحت ظروفهم .

أقول هذا خاصة لبعض شبابنا ورجالنا الذين نجدهم يقفون عند بنود بعض العهود ، التي أعطاها أسلافنا من الحكام والقادة ـ رضي الله عنهم جميعا ـ بناء على ما رأوه أمامهم ، وقدّروه من ظروف ؛ تحقيقا للمصلحة العامة ، بينما لا نجد لها مكانا اليوم ، فقد اجتهدوا هم في اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتوفير الأمن ، والمصلحة للمسلمين ، ولمن كتبوا لهم هذه العهود على ضوء الحالة القائمة أمامهم ، وهذه الحالة قد تتغير من زمن إلى زمن ، ومن بيئة إلى بيئة ، فليس من العقل أن نتمسك ببند ورد في هذه العهود ، لايتفق والظروف التي نعيشها ، ولا المصلحة التي نبتغيها ، لمجرد أنه كان رأيا للسابقين . .

[مثال]

فمثلا كان من الشروط التي أخذها أبو عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ مع من صالحهم من أهل الشام المسيحيين أن يستضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام ، وكان هذا الشرط لظروف خاصة ، حيث لم يكن يوجد مسلمون في وقتهم ، يقيمون بهذه البلاد ، يمكن أن يلجأ إليهم ويستعين بهم المسلم المار بهم ، فكان من الاحتياط أخذ هذا الشرط ، حتى لا يضيع مسلم تدفعه ظروفه للمرور في هذه

البلاد . .

فإذا تغير الوضع ووجد مسلمون يمكن اللجوء إليهم وكان الأمن مستقرا ، وفيه مطاعم وفنادق ، لم يعد هناك معنى لهذا الشرط . .

ومثلا منعهم من حيازة السلاح أو التظاهر بحمله . . وكان ذلك لظروف أمنية تقتضيها ؛ تأمينا للسلطة الاسلامية الجديدة حتى لا ينتقضوا عليها بقوة السلاح ، ومثل هذا يتخذ الآن حين تدخل دولة أرض دولة أخرى ، فإذا تغيرت الظروف ، وأصبح للدولة نظام أمني عام تجاه حيازة السلاح بحيث لا تجيزه إلا في حالات تأمنها ، ولأفراد تأمنهم ، تحولنا إلى هذا النظام الذي يشمل المسلم وغير المسلم ، كما هو الحال الآن ، حفاظا على الأمن العام للدولة وأفرادها .

وهناك أمثلة كثيرة على غرار هذا يمكن أن أذكرها ، ولكني لا أرى داعيا لذكرها واكتفي بهذا لإخواني ، لعلهم يتفكرون ، ويحلّون العقد التي ربطوا بها فكرهم عند بعض البنود ، التي لم يعد لها مجال الآن لتغير الزمن والظروف .

ولكي أزيدهم اقتناعا بما أدعوهم إليه أقول لهم : إن فقهاءنا المتأخرين كان لهم فقه آخر في موضوع الزي وغيره لأهل الكتاب ، لم يرد في العهود ، التي أعطاها كبار الصحابة من القادة ، وأقرهم عليها الخليفة ، ولا شك أن فقهاءنا المتأخرين كانوا مثلنا يجلُّون كل عمل للصحابة ، لكنهم تصرفوا بالرأي تحت ظروف البيئة التي عاشوا فيها ، فاشترطوا شروطا لم يشترطها الصحابة ، أو توسعوا في الشروط ، مما نراه في كتبنا الفقهية التي ندرسها ، والتي كتبها المتأخرون ، تحت ظروف خاصة في أيامهم ، ونراها الآن غير

ملائمة ، لأن تقال باسم الإسلام[٦] ومع ذلك قد يقول بها طالب ، أو عالم درس هذه الكتب ، ولم يعرف تاريخ تأليفها ، ولا السبب فى هذه الآراء ولا يستطيع التفرقة بين رأي ورأي ، ولا بين ما يصح أن يقال ، وما لا يصح . مما يمثل إساءة كبرى الآن للإسلام .

أقول هذا وفي إيجاز يقتضيه المقام لأبنائنا وإخواننا الذين قد يتمسكون ببعض النصوص الاجتهادية ، ويعطونها قدسية لا تستحقها ، كما أقوله لبعض الناس الذين قد يتصيدون هذه الآراء ، للطعن بها على الاسلام ، وأقول لهؤلاء وهؤلاء وغيرهم ، تلخيصا لما سبق عن موقف الإسلام من الحرب والسلم ومن علاقة المسلمين بغيرهم :

---

(٦) مثل ما ورد في كتب الفقه التي الفت أخيرا من أن المعاهدين والذميين عموما يؤمرون بلبس الغيار (وهي ملابس خاصة بهم) وشد الزنار على الوسط ، ويمنعون من ركوب الخيل ومن تطاول ابنيانهم على ابنية للمسلمين ، ومن حمل السلاح . . الخ . . مما يمثل تمييزا شبه عنصري ولبس مقبولا ، والإسلام ليس في حاجة إليه أبدا ، وهو شيء طارىء على الرأي الإسلامي ، ونابع في ظروف خاصة انتهت تماما ولم يعد لها مجال الآن ، مما يؤدى القول بها إلى استهجان الاسلام ، وتكتل العالم ضده كما يتكتل الآن ضد التمييز العنصري . . وإلا فماذا ننتظر الآن لو أننا حرمنا على أهل الكتاب بيننا أن يركبوا الخيول أو السيارات ، أو ان يبنوا بيتا من طوابق متعددة تعلو على بيت المسلم الفقير ، وحرمنا ذلك باسم الاسلام ، مع أنه لم يرد في كتاب ولا سنة ؟ ! بل في كانت آراء تعصبية أملتها الظروف على من قالوا بها ، كما رأينا مثل هذه الآراء التعصبية تبرز في التفرقة بين أهل المذاهب الاسلامية ، فرأينا يقول : ان بنت الشافعي ليست كفؤا لابن الحنفي ، ورأيناهم يتعصبون لمذاهبهم إلى حد إفتائهم بأن صلاة أهل مذهب كذا ، لا تصح خلف إمام من مذهب آخر . . مما كان سببا لتعيين اربعة أئمة على عدد المذاهب في الحرم المكي منعا للخلافات والمشاحنات ، وظل ذلك إلى عهد قريب ، رأيت بعض آثاره في الخمسينات داخل الحرم ، وزالت الآن تماما .

١ ـ إن السلم هو أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، في علاقاتهم الخارجية مع الدول ، فمن عاداهم وحاربهم ، عادوه وحاربوه ، ومن سالمهم سالموه ، والحرب هي لدفع الظلم والعدوان لا لفرض الإسلام على أحد .

٢ ـ إن علاقة المسلمين بمن يقيم معهم من المواطنين من أهل الأديان الأخرى ، هي علاقة مودة وتعاون ، ومساواة في الحقوق والواجبات العامة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، لا يجبرون على الاسلام ، ولهم إقامة شعائرهم ، والاحتكام إلى دينهم ، في الأمور الخاصة بهم ، كالزواج والطلاق ، والميراث ، لا تطبق عليهم أحكام الاسلام ، في هذا ، إلا إذا طلبوا هم ذلك ، وذلك كله في حدود عدم إساءتهم للإسلام ، والمسلمين قولا أو فعلا .

٣ ـ إن كل ما يتصل بتطبيق هذه المبادىء من احكام وإجراءات هي أمور اجتهادية ، تدور في فلك تحقيق المصلحة العامة للمسلمين ، فعل ذلك السابقون في ضوء ظروفهم ونفعل ذلك فى ضوء ظروفنا دون أن يكون عمل السابقين حجة علينا حين تتغير الظروف ، وتختلف المصلحة .

٤ ـ فقد يدخل تغير الظروف ، واختلاف المصلحة من زمن إلى زمن ، في تغيير بعض الأحكام ، حتى التي كان الرسول قد حكم بها ورآها ، كما حصل من الخليفتين الراشدين عثمان وعلي ووافقهم الصحابة ، في تغيير حكم التقاط ضالة الإبل الذي منعه الرسول ، فأباحوه ، وعملوا به ، وكما حصل في تضمينهم للصناع ، وكانوا لا يضمنون ، وقالوا « لا يصلح الناس إلا هذا » وكما حصل في

إجازة المجتهدين لتسعير السلع مع ورود حديث صحيح في منعه ، وكانت اجازتهم للتسعير مراعاة لتغير الظروف ولفساد الذمم ولمصلحة الناس . . وكما أوقف عمر إعطاء المؤلفة قلوبهم كما نص القرآن ، وكانوا يعطون في عهد الرسول وأبي بكر ، فمنعهم إجتهادا منه وقال : لم يعد للإسلام بهم حاجة بعد قوته ، وكما اجتهد فمنع المباح بالقرآن من تزوج المسلمين بالكتابيات لجمالهن خوفا على المسلمات العربيات أن يصرن عوانس ولظروف أخرى . . وهكذا كانت الفتوى والآراء الاجتهادية تتغير تبعا للظروف المستجدة وللمصلحة ، مما يمكن الرجوع إليه في موضعه في كتب التشريع والأصول[1] ، وعلى ضوء قوله عليه الصلاة والسلام « أنتم أعلم بشئون دنياكم » ومسائل الحرب والسلام والمعاهدات والعلاقات الدولية من اخص المسائل الدنيوية . .

٥ - ولهذا يجب أن نحتاط كثيرا في أخذ الآراء الاجتهادية السابقة قضية مسلمة ، دون نظرة حصيفة فقهية إليها ، على ضوء الظروف المحيطة والمصلحة العامة ، وهذا أمر متفق عليه . .

---

(١) وكتابي « الاجتهاد » .

بالحب . . لا بالقوة إنتشر الإسلام

ماعرف التاريخ حاكماً أعدل ولا أرحم من العرب

(جوستاف لوبون)

إذا كانَ الإسلام قد قرر نصا في القرآن الكريم أنه « لا إكراه في الدين[1] كما قرر أيضا أن المسلمين لا يلجأون إلى الحرب إلا مضطرين ، دفاعا عن عقيدتهم ، وحريتهم ، وأرضهم بنص القرآن الكريم أيضا ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[2] وإذا كان القتال الذي خاضه رسول الله ﷺ لم يكن في حدود الدفاع ، ودفع الظلم الواقع على المؤمنين ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا اللهُ . . . ﴾[3] .

وإذا كان من المقرر ـ طبيعة وعقلا ـ أن الإكراه على فكرة ما ، لا جدوى منه ، ولا أثر له إلا أن يكون أثرا عكسيا ، وأن الاقتناع بأية فكرة أو عقيدة ، لا يكون إلا عن الرضا والاختيار ، والحرية التامة . .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٣) سورة الحج من الآية ٤٠ .

إذا كان ذلك كله معلوما ومقررا ، فإن من سخف العقول بعد ذلك ، أن يوجه أي اتهام ، أو أية شبهة ، بأن الاسلام الذي انتشر سريعا لم ينتشر إلا بحد السيف ، وعن طريق الإكراه !!

وأن يتضاعف هذا السخف ، حين يستمر هذا الاتهام الهزيل عائشا بيننا حتى اليوم كسلاح يشهره بعض الناس ضد الاسلام ، بعد أن كتب الكثيرون من كتاب وعلماء الغرب المسيحيين المنصفين ، يفندون هذا الإتهام ويصفونه بالسخف . .

فهذا الكاتب الغربي الكبير مؤلف كتاب : « الأبطال وعبادة البطولة » وهو « توماس كارليل » يقرر وهو في صدد الكتابة عن بطل النبوة في رأيه ، محمد ﷺ : « إن اتهامه بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم » .

ويقول سير توماس أرنولد بعد سرده لأحداث واقعية من تسامح المسلمين على الشعوب المفتوحة : « وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الاسلامي ، ظهر أن الفكرة التي شاعت : بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام ، بعيدة عن التصديق ، ومن ثم كان لا بد من أن نتلمس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد »(٤) .

[الفتوح الاسلامية]

إن من الثابت تاريخيا أن العلاقة ساءت بين الدولة الاسلامية

(٤) الدعوة إلى الإسلام ص ٨٨ طبعة ثالثة .

الناشئة في المدينة وبين دولتي الفرس والروم المتاخمتين لها ، منـذ أيام الرسول ﷺ حيث أساءتا لبعثة الرسول إليهما وإلى الرسول ، وبدأ منهما التوثب للقضاء على هذه الدولة الاسلامية الناشئة التي تهـدد وجودهما ، والتي تجرأت فأرسلت لكل منهما وفدا يعرض على حاكمها الدعوة الجديدة وبدأت دولة الروم فعلا ايام الرسول تحشد جيوشهـا على حدود الدولة الاسلامية مما كان سببـا في توجيه الرسـول لجيشه مرتـين إلى الشمال لمنازلـة الـروم ، وذلك في غزوة « مؤتة » وغـزوة « تبوك » ثم توجيه الجيش بقيادة اسامة في مرض موته للشمال أيضاً .فلم يكن من المستغرب أن يبادر المسلمون بمهاجمة هاتين الدولتين ، عملا بالخطة الحربية المعروفة من أن « الهجوم أفضل وسائل الدفاع » وخرج جيش الدولة الناشئة من المدينة الى الشمال والغرب ، وإلى الشرق ، بعد إخضاع المتمردين في الجزيرة ، وقـد حالفـه النصر في كل مكان ذهب إليه ، وكل موقعة خاضها ، ولم يمض قرن من الزمـان حتـى كانت الدولة الاسلامية ، قد امتدت غربـا حتـى المحيط الأطلسي ، وشرقـا حتـى تاخمـت الصـين ، وشمالا حتـى دخلـت ارض الدولـة البيزنطية ، بل هاجمت القسطنطينية عاصمتها ، وإن ارتدت عنهـا . وكان هذا ـ ولا يزال حتى الآن ـ شيئا مذهـلا ، لم يحـدث مثلـه في التـاريخ ، من حيث الزمـن ، واتسـاع الرقعة ،وهزيمـة الدولتـين الكبيرتين ، اللتين كانتا تقتسمان النفـوذ في العالـم ، فظهـرت القـوة الجديدة المسلمة ، وسحبت البساط من تحت أقدامهما ، وقضت على الدولة الفارسية العتيدة ، وحررت الشـام ومصر وشمال إفـريقيا من سيطرة الدولة الرومانية البيزنطية ، التي انكمشت داخل حدودهـا ، حتى جاء الأتراك العثمانيون ، وقضـوا عليهـا ، وحولوهـا إلى دولـة إسلامية ، كما انتزع المسلمون أسبانيا من حكامهـا ؛ لتـوسيع رقعـة

الدولة الاسلامية .

وكان من الطبيعي أن يحمل الفاتحون معهم دينهم ولغتهم ، وأن يعملوا لنشرهما ، لكن في الحدود التي قررها القرآن الكريم ﴿ لا إكراه في الدين ﴾[٥] مع معاملة غير المسلمين بالحسنى والمودة .

ومع أن هذه هي الحقيقة التاريخية الثابتة ، التي يعترف بها المنصفون من المسيحيين الغربيين ، كان الذهول الذي أصاب أعداء الإسلام من تتابع الأنتصار شرقا وغربا ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية ، مع ما في نفوسهم من غل وحقد كان هذا هو السبب في هذا الخلط بين تكوين الدولة الإسلامية ، واتساعها بواسطة القوة والحرب ، وبين انتشار الإسلام ، الذي لا يمكن ان يتأتى بالقوة والإكراه ، فقالوا : إنه أيضا انتشر واتسع بالقوة والإكراه ، وفرق كبير ـ كما نعرف ـ بين الاستيلاء على البلاد ، الذي لا يكون إلا بالقوة ، وبين الاستيلاء على القلوب ، الذي لا يكون إلا بالإقناع والتلطف .

والمسلمون يعرفون كلا الطريقين ، وقد سلكوهما معا ونجحا ، لكن الذهول والحقد كانا من وراء هذا الخلط ، وهذا الاتهام ، الذي ليس له أي سند من التاريخ ، كما يقول هؤلاء المنصفون .

■ لكل شيء أسبابه :

إن لكل من النصر والهزيمة في ميدان الحروب أسباب ، وقد توافرت أسباب النصر للمسلمين في أنفسهم القوية ، وفي الأمم الضعيفة التي غلبوها وفتحوها وللحديث عن ذلك مجال آخر .

---

[٥] سورة البقرة من الآية ٢٥٦ .

أما انتشار الإسلام، فله أسباب ذاتية وخاصة به، وأسباب أيضا، على الجانب الآخر، في الامم التي أقبلت على الاسلام، ولا يمكن أن يعزى انتشار العقيدة إلى السيف، المسلط على رقاب الأفراد، لأن استعمال القوة لنشر العقيدة، لا يأتي إلا بالنتائج العكسية والنفور من هذه العقيدة كما هو معروف. ولهذا رأينا العليم الخبير يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾[٦]. لأن ذلك هو الطريق الطبيعي الى القلوب. وقد رأينا أمما يقوم فيها حكم اسلامي لعدة قرون. كالهند، وتظل أغلبيتها غير مسلمة، ورأينا أمما لم يصل لها جيش اسلامي، ولا يتصور فيها استعمال قوة، ومع ذلك تتحول كلها تقريبا، أو أغلبها إلى الإسلام كأندونيسيا وما حولها من الأمم.

ورأينا الاسلام يغزو القلوب في آسيا، وفي أفريقيا، بل وفي أوروبا وأمريكا، والعالم الاسلامي ضعيف، يسيطر الغرب المسيحي عليه. وليس له حول ولا طول حتى لإنقاذ نفسه، فماذا يقولون في هذا ؟ ولسنا هنا ـ على أي حال ـ بصدد الكلام عن اتساع، وسرعة الفتوحات الإسلامية، ولكنّا بصدد انتشار الإسلام بهذه السرعة، وهذا الاتساع.

■وشهد شاهد من أهلها :

وإذا كنا وكان المنصفون معنا قد استبعدنا فكرة استعمال القوة في نشر الاسلام، فما السبب في انتشاره إذن بهذه الصورة، لاسيما في الأمم التي استولى عليها المسلمون وحكموها، ويمكن أن ترد فيها شبهة استعمال القوة ؟

---

(٦) سورة النحل من الآية ١٢٥.

وقد جمع لنا « سير توماس أرنولد » في كتابه : « الدعوة إلى الاسلام » كما جمع لنا غيره كثيرا من الحقائق العلمية التاريخية ، التي لا يمكن أن يشكك فيها أحد ؛ لأنها صادرة من غير مسلمين ، ولا يمكن اتهامهم بالتعصب للإسلام ضد دينهم ، ولذلك نؤثر أن نتركهم يردون على هذه الشبهة ، لنقول : « . . . وشهد شاهد من أهلها . . . »(٧) .

يقول عالم مسيحي هو « كيتاني » في كتاب سير توماس أرنولد : « الدعوة إلى الإسلام » : « إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية ، التي جلبتها الروح الهيلينية إلى اللاهوت المسيحي ؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية ، إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة ، مليئة بالشكوك والشبهات ، مما أدى إلى خلق شعور من اليأس ، بل إلى زعزعة أصول العقيدة الدينية ذاتها ، فلما أهلت آخر الأمر ، أنباء الوحي المحمدي فجأة من الصحراء ، لم تعد تلك المسيحية الشرقية ، التي اختلطت بالغش والزيف ، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتزعزعت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط ، من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد ، الذي بدَّد بضربة واحدة من ضرباته ، كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا مادية جليلة ، إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة ، التي لا تقبل الجدل ، وحينئذ ترك الشرق المسيح ، وارتمى في أحضان نبي العرب »(٨) .

---

(٧) سورة يوسف من الآية ٢٦ .

(٨) صفحة ٨٩ طبعة ثالثة .

فماذا يقول هؤلاء في كلام هذا الرجل ، وهو بالطبع ليس متعصبا للاسلام ، لأنه غير مسلم ؟ .

وأيضا يقول « تايلور Canon Taylor » : إنه من اليسير أن ندرك : لماذا انتشرت تلك اليهودية المهذبة « يريد الاسلام » بهذه السرعة في افريقيا وآسيا . ويذكر مثل ما ذكره « كيتاني » من قبل ، ويؤكد على فساد الكنيسة ، وافكارها المضادة للعصر في ذلك الوقت ، من تفضيل الغزوبية ، والقذارة كصفة للرهبنة ، ويقول :

كان الناس في الواقع مشركين ، يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة ، والطبقات العليا مخنثة ، والوسطى مثقلة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم ، فأزال الاسلام ـ بعون الله ـ هذه المجموعة من الفساد والخرافات ، وكان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى ، وبين اصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته ، كما بين أن الله عادل رحيم ، يدعو الناس إلى الامتثال لأمره ، والايمان به ، وتفويض الأمر اليه ، وأن المرء مسئول عن نفسه ، وهناك حياة آخرة ، ويوم للحساب ، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير ، ونبذ الفضائل الكاذبة ، والدجل الديني ، والترهات ، والنزعات الاخلاقية الضالة ، وسفسطة المتنازعين في الدين ، وأحل الشجاعة محل الرهبنة ، ومنح العبد رجاء ، والانسانية إخاء ، ووهب الناس إدراكا للحقائق الاساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية »(٩) .

ومؤدى هذا الكلام ان الفساد الذي ساد المجتمع المسيحي لم يكن

---

(٩) المصدر السابق ص ٩٠ .

وحده السبب في إقبال الناس على الاسلام ، بل لأن الاسلام قضى بمبادئه على كل هذا الفساد ، ووجد الناس فيها وفي ممثليها العدل والمساواة والانصاف إلى غير ذلك من المبادىء والأخلاق التي تعشقها الشعوب .

ويضيف الكونت هنري دي كاستري في كتابه « الاسلام سوانح وخواطر »(١٠) سببا تمهيديا لانتشار الاسلام ، وهو مذهب « آريوس » المصري(١١) الذي كان ينكر ألوهية عيسى ، ويسود مذهبه في مصر وغيرها مخالفا بذلك مذهب التثليث ، الذي أقره مجمع البابوات قبل الاسلام . . وكان لآريوس أنصاره ، وظل فكره ومذهبه متنقلا مع الأجيال برغم اضطهاده حتى ساد نهائيا مذهب التثليث . . فيقول الكونت :« إن هذا المذهب متفق تماما مع ما ينادي به الاسلام » وهو يعني بذلك ان معتنقيه وأنصاره وجدوا في الاسلام ضالتهم ، فأقبلوا عليه ، بالإضافة إلى ما كانوا يلاقونه من عسف وظلم حكامهم المسيحيين واستبدادهم في القسطنطينية . . فانقذهم المسلمون من هذا الظلم . .

وهذه الأقوال التي تحلل اندفاع الناس وإقبالهم على الاسلام ، لا شيء فيها يتصل بإجبار الناس عليه ، بل كلها تبرر إقبال الناس طواعية على الاسلام .

---

(١٠) ترجمة المرحوم أحمد فتحي زغلول باشا « من الفرنسية ص ٢٧ » طبعة مطبعة السعادة .

(١١) ومن هنا يمكن لنا أن نفهم ما جاء في جاء كتاب الرسول إلى المقوقس حاكم مصر « فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين » من أن المراد بكلمة « الأريسيين » أتباع آريوس المنتسبون إليه ، وإن قيل في معناها غير ذلك .

بل إن هؤلاء المنصفين يذكرون أن المسلمين كانوا اكثر محاسنة ، وأنعم ملمسا من مسيحيي الشرق على الاطلاق فيقول الكونت(١٢) المسيحي : « فما عارض العرب أبدا شعائر الدين المسيحي ، بل بقيت

روما نفسها حرة في المراسلات مع الأساقفة الذين ما زالوا يرعون الأمة الخالية . . وكان الوئام مستحكما بين المسلمين والمسيحيين حتى ان « غريغوريوس » السابع ، كتب إلى المسيحيين ، يلومهم على المحاكمة مع اسقفهم أمام المسلمين وكان ذلك في ٥ سبتمبر سنة ١٧٢٣ م » ثم يقول « على ان الاسلام لم يكن له دعاة مخصوصون ، يقومون بالدعوة إليه ، وتعليم مبادئه ، كما في الديانة المسيحية ، فإنا قد شاهدنا الملك شارلمان ، يستصحب معه على الدوام في حروبه ، ركبا من القسس والرهبان ، ليباشروا فتح الضمائر والقلوب ، بعد أن يفتح هو المدائن بجيوشه ، التي كان يُصْلي فيها الأمم حربا تجعل الولدان شيبا ، ولكنا لا نعلم للاسلام (مجمعا دينيا) ، ولا رسلا ولا أحبارا كانوا يمشون مع الجيوش ، ولم يكرّه أحد عليه بالسيف ، ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن شوق واختيار » ثم ذكر « الكونت هنري » ما حدث من كثرة دخول المسيحيين المصريين في الاسلام ايام الأمويين ، وسقوط الجزية عنهم ، مما جعل إيراد الجزية يتناقص سنة بعد سنة ، (وكان في عهد عثمان اثني عشر الف دينار ، وفي عهد معاوية خمسة آلاف ، ثم نقص بعد ذلك) مما جعل واليها يبلغ الخليفة عمر بن عبد العزيز ، خشيته من نقصان المال الذي يدفعه للمدينة نتيجة نقصان الجزية ، ويود لو يسمح له الخليفة بأن يبقي الجزية على من أسلم منهم ، ونصّ العبارة التي وضعها الكونت بين قوسين « إذا دام الحال في مصر على ما هو عليه الآن ، أصبح مسيحيو البلاد كلهم

---

(١٢) المصدر السابق ص ٣٩ .

مسلمين ، وخسرت الخلافة حينئذ ما تجبيه منهم من الأموال » من نص رسالة والي مصر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز .

ويذكر الكونت : أن عمر بن عبد العزيز كتب للوالي سريعا كتابا حمله رسول منه ، وقال له : إذا لقيت الوالي فاضربه ثلاثين سوطا على أم رأسه ؛ عقابا له على كتابه ، وقل له : أن يرفع الجزية عن كل رجل يعتنق الاسلام ، فإني أرى سعادتي في أن يصبح المسيحيون أجمعون مسلمين ؛ لأن الله ارسل نبيه ليبلغ رسالته ، لا ليجمع الضرائب . يشير إلى العبارة المشهورة للخليفة عمر « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » علما بأن الجزية لم تكن مرهقة على القادرين ، وكان الفقراء والنساء والمسنون لا يدفعون الجزية . .

ويعلق الكونت على هذا الموقف فيقول : إن خوف المسلمين من نقصان الإيراد ليس بغريب ، فإن الضرائب على المسلمين في الجزائر كانت اكثر جدا من التي تطلب من المسيحيين (!!!) فلو تنصر مسلمو الجزائر ، ومنحوا جميع الامتيازات المخولة للمسيحيين ، لأصبحنا في حيرة شديدة « من أجل نقص الايراد . . ومع ذلك لم يتنصر الجزائريون طمعا في تخفيف الضرائب عنهم والحمد لله » . .

وهذه الحادثة مع دلالتها على تمسك عمر رضي الله عنه ، بتنفيذ تعاليم الاسلام في رفع الجزية عمن أسلم ، مهما يقل الايراد منها ، تدل على الخشية من جانب الوالي المسلم من ظاهرة اندفاع المسيحيين على الاسلام ، خوفا على نقصان الميزانية ، فلا يتصور والحالة هذه أن يكون هناك ـ ولا شعرة ـ كما يقال ، من الإكراه على الاسلام . . لأن الوالي الذي يقترح هذا الاقتراح خوفا من نقص في ميزانيته ، لا شك انه كان لا ينظر بعين الارتياح إلى دخول الداخلين في الاسلام . . لأن

نظره ـ لوزراء المالية دائما ـ كان مركزا فحسب على الناحية المالية ، وجاءه الرد العكسي من عمر : لوددت ان الناس جميعهم دخلوا في الاسلام » فلا تتصور ابدا حتى رائحة الإكراه من وال كهذا ، ولم تكن الجزية ـ كما قلنا ـ تمثل ضغطا لأنها كانت ضيئلة وعلى القادرين وحدهم ، وبفئات مختلفة . .

ويقول « الكونت »(١٣): لقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين في الأندلس حتى صاروا أهنأ من الحالة التي كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين . . وتولد عن هذه السياسة انحياز عقلاء الأمة الاندلسية إلى المسلمين .

وبعد أن يسرد الكونت بعض الحوادث الدالة على حسن معاملة المسلمين للمسيحيين ، لا لإرغامهم على الاسلام ، يقول :(١٤)

وعلى هذا يتحقق أن الدين الاسلامي لم ينتشر بالعنف والقوة بل الأقرب للصواب أن يقال : إن كثرة مسالمة المسلمين ولين جانبهم ،كانا سببا في سقوط المملكة العربية » ثم يكرر هذا بعد ذلك في صورة اخرى فيقول « ومن المظنون ان المسلمين لو عاملوا الأندلسيين ، مثل ما فعل المسيحيون بالأمم السكسونية (الواندية) لأخلدت الى الاسلام ، واستقرت عليه ، لأنها مع تمتعها بحرية دينها المسيحي ، كانت كثيرة الانشقاق والاحزاب » .

ثم يقول « ومالنا ولهذه الظنون والتخمينات وامامنا أمر واحد ينبغي الوقوف عنده وهو أن ديانة القرآن تمكنت من قلوب جميع الأمم اليهودية والمسيحية والوثنية في افريقيا الشمالية ، وفي قسم عظيم من

---

(١٣) ص ٤١ .

(١٤) ص ٤٨ .

آسيا حتى انه وجد في بلاد الأندلس من المسيحيين المتنورين من تركوا دينهم حباً في الاسـلام ، كل هذا بغـير إكراه ، إلا ما كان من لوازم الحروب ، وسيادة حكومة الفاتحين (يعني اشياء تتصل بالحرب والأمن لا غير) ومن دون ان يكون للإسلام دعاة وقوام مخصوصون ، وهو ما يقنعنا بأن الاسلام جاذبية وقوة انتشار ،سنبحث فيما بعد عن سببهـا الحقيقي لأنه لا يزال ينتشر حتى الآن » .

ثم ما لنا نظل نبحث في الماضي ، ونأتي بأدلة من اقوال المنصفين العقلاء من غير المسلمين ، وهذا هو الاسلام قد أخذ في الانتشار والمد أيام ضعف الدولة الاسلامية ، وأيام سيطرة المستعمـرين على البـلاد الاسلامية ، ولا يزال حتى الآن ينتشر ، ويغزو قلوبا كثيرة وكثيرة ، دون ان يكون على الداخلين فيه اي سلطان لمسلم ، بل إننـا نرى ـ ويرى غيرنا ويحقد ـ انتشار الاسلام ، برغم القـوى المالية والتنفيذية الواقفة ضده ، في صف الجماعات التبشيرية في افريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا . .

إن من الصحيح أن المسلمين فتحوا البلاد بقوة جيوشهم وروحهم المعنوية ، ولكن ليس من الصحيح أبداً أن المسلمين فتحوا القلـوب بالقوة أيضاً ، لأن هذا من المحالات . . بل فتحوها بمبادئهم السمحة العادلة التي سبقتهم إلى قلوب الشعوب فرحبت بهم ، وسهلت لهـم شيئا من عناء الفتح ، ثم اقبلت على دين الله . . الإسلام .

هذه هي الحقيقة . وليلغط اللاغطـون ما شاءت لهـم أهواؤهـم وأحقادهم ، فإن ذلك لا يغني عن الحق شيئا ، وإنهم لفي سكرتهـم يعمهون . . ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ .

من تسامح الشرق وتعصب الغرب

إذا كنا ذكرنا من قبل بعض المبادىء والنصوص القرآنية ، والنبوية ، التي أرست في المسلمين ورسخت في نفوسهم روح العدالة والانصاف ، والتسامح مع غيرهم ، وجعلتهم لا يكرهون احدا على اعتناق الاسلام ، وذكرنا بعض الشواهد القليلة على هذا من كلام غير المسلمين ، فإنني أجد من الضروري أن أطيل الوقفة قليلا عند هذه النقطة لأضع أمام القراء ، ولاسيا شبابنا . شيئا من تاريخ أسلافهم وتصرفاتهم مع غير المسلمين ،من واقع حضارتهم ، وروحهم الاسلامية ، وشيئاً آخر من تاريخ غيرهم وحضارتهم من خلال تصرفاتهم إزاء المسلمين ، وعلى مر القرون ، حتى عصرنا الحاضر ، ليرى القارىء صفحتين من التاريخ ، هو وغيره في أشد الحاجة إلى معرفتها . . كمدخل لإنصاف التاريخ ، والحكم العادل في الأحداث ، وفي الذين صنعوها ، وليعرف المسلم أن مبادئه وتعاليمه ، وتاريخه،ولاسيا إزاء غيره من الديانات ، وأصحابها ، صفحات من الفخر والشرف ، والمجد والانسانية المهذبة ، يمكن أن يعتز بها ويفخر ، ويعرف مواقع أقدامه من التاريخ ، ومن الحياة التي يحياها الآن ، ووراءها هذا الرصيد الضخم من التاريخ الحافل بالأمجاد ، الذي يعلي هامته ، ويرفع قامته ، فلا تطرف له عين ، ولا ينخفض له

رأس من هذه الهجمات وليواصل مسيرة أسلافه ، وعلى نفس المبادىء التي ساروا عليها ولو أترعت نفسه من الآلام ، وتقززت من الوحشية التي أنزلها الآخرون به وبإخوان له على مر التاريخ كذلك ، لأن المسألة مسألة مبادىء ، وقيم وحضارة ، وأصل نثبت عليه ونعتز به . وليعرف هو وغيره : أي الفريقين خير مقاما . .

صفحتان : صفحة بيضاء ، نقية ومشرقة ، وصفحة سوداء ملطخة بالعار للذين صنعوها ، لا بد أن يعرفهما المسلم جيدا ، حتى نعرف أنفسنا وتاريخنا ، وتاريخ غيرنا معنا . . ولا نضيع في زحمة الأحداث والأمواج ، أو نتهاون إلى حد الغفلة إزاء مكائد تحاك لنا ، للقضاء علينا وعلى أمتنا « والمؤمن كيِّس فطن » أو نسترسل في حسن الظن بغيرنا ، فنشق به ونسير وراءه ، حتى في اتهام أنفسنا . . وسأجتهد قدر طاقتي أن أترك رسم هاتين الصفحتين ، لكتاب أجانب لا يتصور فيهم التعصب للاسلام ، لأنهم غير مسلمين ، ولا يتصور فيهم محاباة لنا ، مما سبق أن ذكرنا بعض الشواهد عنهم ، وقلنا : وشهد شاهد من أهلها .

ففي كتاب قصة الحضارة[1] : « إن أهل الذمة من المسيحيين والزردشتيين واليهود والصابئين كانوا يستمتعون في عهد الخلافة بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الايام . . كانوا أحرارا في ممارسة شعائرهم الدينية ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم . . واصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية ، والذين كانوا يلقون منها صورا من الإضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية وأورشليم والاسكندرية ، وأنطاكية ، أحرارا

---

(١) ص ١٣٠ جـ ٢ تأليف ول ـ ديورانت

آمنين تحت حكم المسلمين ، بل إن والي أنطاكية (المسلم) عين حرسا خاصا ليمنع الطوائف المسيحية من أن يقتل بعضها بعضا » .

ويقول : « كان من المألوف أن المسلم مثال الرقة والإنسانية والتسامح ، وكان المسيحيون يحتلبون أرقى المناصب في الدولة الاسلامية ، بينما نجد « النورمان » لما فتحوا صقلية سنة١٠٦٠-١٠٩١م كانوا يفخرون بأنهم سووا بالأرض المدائن والقلاع والقصور العربية التي بذل المسلمون في إقامتها أعظم الفنون وأعجبها » !!

ويذكر توماس أرنولد في كتابه « الدعوة »[٢] قصة كتبها القسيس الخاص للويس السابع ، وكان يصحبه في حملته على بيت المقدس برا ، فيذكر القسيس ما أصاب جيشهم من كوارث على يد الترك والمسيحيين من إخوانهم الاغريق . . ثم يذكر موقف المسلمين الأتراك منهم بعد ان هزموهم « فواسوا المرضى ، وأغاثوا الفقير ، وأطعموا الجائع ، وبذلوا لنا العطاء في كرم وسخاء . . فكان البون شاسعا بين المعاملة الرحيمة ، التي لقيها الحجاج من الكفار (يعني المسلمين في رأيهم) وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم المسيحيين من الإغريق » !!

ويذكر كتاب « الدعوة » السابق[٣] . . كيف أن الأتراك العثمانيين المسلمين احتضنوا المسيحيين وبطارقتهم حتى إن محمد الثاني « محمد الفاتح » أعلن بعد فتح القسطنطينية أنه حامي الكنيسة الاغريقية ، وكيف أن المسيحيين وجدوا في ظله الأمن الذي لم يلقوه في ظل السلطة المسيحية . . الخ ، وكيف « كان « بايزيد » الصارم نفسه ، رحب الصدر ، كريم الخلق ، مع رعاياه المسيحيين » (ص١٧٣) .

---

(٢) ص ١٠٨ الطبعة الثالثة .

(٣) ص ١٧٠ وما بعدها .

وكيف أن « المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين على الأقل بعد أن غزوا اليونان بقرنين تدل على تسامح كريم ، لم يكن قبله معروفا ، حتى ذلك الوقت في أوروبا ، وأن أصحاب كلفين «Calvin » في المجر ، وترانسلفانيا وغيرهم ، طالما آثروا الخضوع للأتراك ، على الوقوع في أيدي أسرة « هابسبرج » المتعصبة ، ونظر البروتستانت إلى تركيا بعيون الرغبة ، وتمنوا أن يشتروا حريتهم الدينية ، بالخضوع للحكم الإسلامي ، كما أن اليهود الأسبان الذين هربوا من الاضطهاد في جموع هائلة ، لم يجدوا لهم ملجأ إلا في تركيا المتسامحة » ص١٨٢ .

وحتى وجدنا « البطريق مكاريوس » بطريق انطاكية في القرن السابع عشر ، في ظل الحكم التركي يعلن : أنه يهنىء نفسه بمعيشته ، حين رأى اعمال القسوة الفظيعة ، التي اوقعها البولنديون الكاثوليك ، على روسيي الكنيسة الشرقية الأرثوذوكسية .

ويقول : « إننا ذرفنا الدمع غزيرا على آلاف الشهداء ، الذين قتلوا في هذه الأعوام الأربعين ، وكانوا نحو سبعين او ثمانين ألفا . . ثم يقول : « أدام الله دولة الترك خالدة إلى الأبد » ص ١٨٣ .

كانت هذه معاملة الترك المسلمين للمسيحيين ، وهذه معاملة المسيحيين للمسيحيين ، لاختلاف في المذهب بينهما !!! فما بالك بما يفعلونه بالمسلمين حين يتمكنون منهم ؟ !

ولقد كان تسامح الاتراك وعدلهم حين يعدلون ، شاملا لكل سكان البلاد التي تحت رعايتهم ، مسلمهم وغيرهم . . . وحين يكون الحاكم منهم ظالما يقع ظلمه على رعاياه المسلمين والمسيحيين على سواء . .

لاحظ هذا لتقارنه بما فعله مسيحيو هذه الدول من البلقان ، حين ثاروا على العثمانيين ، وتخلصوا منهم في أوائل هذا القرن بمساعدة كل دول أوروبا وما فعلوه بالمسلمين مما سأذكره ، بعد أن أذكر لك المزيد من سلوك المسلمين مع أهل أسبانيا التي فتحوها ، لتكمل الصورة عن المسلمين . .

يقول سير توماس أرنولد كما يقرر غيره . إن المسلمين حين دخلوا أسبانيا وجدوا أهلها واقعين تحت ضغط وظلم الكنيسة الكاثوليكية ، حتى كان الملوك يقسمون حين تولي الملك بألا يسمحوا بانتشار أي مذهب غير المذهب الكاثوليكي ، وأن أهل المذاهب الأخرى كانوا يلقون أشد العذاب والاضطهاد . . ولاسيما اليهود . . مما جعلهم ، وجعل الكثيرين من المسيحيين يرحبون بالحكم الاسلامي العادل المتسامح . . وبلغ تسامح المسلمين الى الحد الذي كانوا يتركون فيه المسيحيين - حين يعتدون على الاسلام - للمحاكمة أمام قضاتهم ، وفقا للقوانين المعمول بها عندهم ، ولم يتعرض لهم المسلمون فى إقامة شعائرهم الدينية ، بل وقربوا كثيرا منهم الى بلاطهم ، حتى قال بعض المؤرخين : إن هذا التسامح الذي سار عليه المسلمون في أسبانيا (الأندلس) هو الذي عجل بالقضاء عليهم[٤] .

كان هذا هو موقف المسلمين الدائم في الشرق والغرب ، والشمال والجنوب من غيرهم ، حين كانوا هم اصحاب الملك والصولجان ، وسادة العالم وفاتحيه ، لأنه كان موقفا مستمدا من تعاليم دينهم التي حافظوا عليها . .

---

(٤) في كتابه « الدعوة » ص ١٥٤ وما بعدها .

[فماذا فعل غيرهم معهم ؟]

يتحدث « ول ديورانت »[٥] عن المندفعين من أوروبا بتعصبهم الأعمى ، وتوحشهم في الحروب الصليبية : « وسارت قوة تحت قيادة « جود فري البيوني » البلجيكي الى بيت المقدس ، وبعد حصار دام اكثر من شهر بقليل ، استولوا على المدينة نهائيا في ١٥ يوليو ١٠٩٩م ، وكانت المذبحة رهيبة ، وكان دم المقهورين يجري في الشوارع ، حتى لقد كان الرجال من الصليبيين ، يصيبهم رشاش الدم ، وهم ركوب ، وعند ما أسدل الليل سدوله ، جاء الصليبيون وهم يبكون من شدة الفرح ، إلى الناووس ، بعد خوضهم فيما أريق من دم ، سال كالخمر من معصرة العنب ، ورفعوا أيديهم المضرجة بالدماء يصلون شكرا لله » !

ويقول الكونت هنري دي كاستري في كتابه « الاسلام سوانح وخواطر » ترجمة المرحوم فتحي زغلول ص٤٢ « ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ، ما دخلوا بلادا إلا وأعملوا السيف في يهوديها ومسلميها ، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيرا وملجأ في الاسلام ، فإن كانت لهم باقية حتى الآن ، فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ، لا إلى ما بين الاثنين من الجامعة في الأصل والجنس . . كما ادعى « افيديكور شايكن » .

ولا نطيل الاقتباس هنا كثيرا فأمر ذلك معروف لدى القراء . . ولكن لا بد من ان نقارن أفعالهم هذه ، مع تصرف البطل المسلم صلاح الدين وغيره معهم بروح الاسلام ، برغم ما فعلوه ، كما نقارنه

(٥) ص ٧٠٩ في كتابه « قصة الحضارة » .

بما فعله الأتراك المسلمون مع بقاياهم الذين شردوا بعد هزيمتهم ، مما ذكرناه من قبل ، ونقارن افعالهم ، بالمعاملة الحسنة التي كان يعاملهم بها الحكام المسلمون عموما . .

■ في أسبانيا :

بينما كان المسيحيون وغيرهم ينعمون بالأمن والرفاهية في ظل الحكم الاسلامي ، وجدناهم ينقضون على المسلمين وآثارهم ، بعد أن تغلبوا عليهم وسقط الحكم الاسلامي بالاندلس ، فأعملوا فيهم القتل ، والتمزيق ، والإحراق ، وحتى الذين تنصروا منهم تحت وطأة التعذيب ، لم يسلموا من التعذيب والمصير المحزن . . وكان الفرق كبيرا بين موقف المسلمين الحاكمين من المسيحيين المحكومين ، وبين موقف المسيحيين حين حكموا ، من المسلمين المحكومين . .

وبينما لم يحدث من المسلمين إكراه أحد من المسيحيين على الاسلام ، نذكر كتب التاريخ ومنها « نهاية الأندلس » للاستاذ محمد عبدالله عنان « أنه في سنة ١٤٩٩ م ٩٠٥ هـ ذهب « الكردينال كمنيس » إلى « غرناطة » وحث مطرانها « الدوق تالافيرا » على اتخاذ وسائل فعالة ، لتنصير المسلمين ، مستعملا الوعد والوعيد والارغام ، وزاد « كمنيس » فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من كتب ومصاحف ، قدرت بأكثر من مليون كتاب وأضرم فيها النار » .

وكانوا يستعملون كل طرق التعذيب المتصورة ، من الأسياخ المحماة ، والقوالب المحماة الثقيلة للبطن ، وسحق العظام بالآلات الضاغطة ، وتمزيق الأرجل ، وفسخ الفك ، وغير ذلك من الوسائل البربرية الفظيعة، وبعد هذا التعذيب الوحشي كان يحمل المتهم ممزقا

داميا إلى محكمة التفتيش ، ليجيب عن التهم الموجهة إليه لأول مرة ، وهو غائب عن وعيه !! ومصيره النهائي مقرر مقدما . .

« وقد اضطلع ديوان التحقيق أو التفتيش الأسباني ، بأعظم قسط من هذه الإجراءات الهمجية ، التي أريد بها تنفيذ حكم الاعدام في امة بأكملها » .

حتى من سموهم « بالموريشكيين » أي العرب المتنصرين تحت التعذيب ، لم يتركوهم ، فكانوا يعدمونهم بالجملة ، أو يبيعونهم عبيدا ، أو يجمعونهم في سفينة ، ويغرقونهم جملة . . أو ينفونهم إلى أي مكان ، بعد مصادرة أموالهم ، ويذيقونهم الوان العذاب .

ولا أطيل عليك في ذلك مما ذكرته الكتب المطولة . فهو شيء تقشعر منه الأبدان . . وتتمزق القلوب ، وكما يقول الشاعر في رثائه لهم

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ
إن كان في القلب إسلام وإيمان

وقارن هذا بما ذكرته المصادر المسيحية عن حسن معاملة المسلمين ، حين حكموا اسبانيا ، للمسيحيين فيها ؛ لترى سمو أسلافك العظام ، وترى ما نزل بهؤلاء الكرام على يد هؤلاء الأنذال اللئام .

■ في دول البلقان :

استمرت دول البلقان تحت حكم الأتراك العثمانيين مدة ليست بالقصيرة ، وقد ذكرنا لك من قبل كيف كان يعامل ملوك بني عثمان رعاياهم من المسيحيين ، بمنتهى التسامح معهم ، بل وتقريبهم

إليهم ، فانظر ماذا فعل هؤلاء بالمسلمين في حرب البلقان مع الدولة العثمانية ، في اوائل هذا القرن وآخر الماضي وبإشراف القسس أنفسهم ، كما تشهد تقارير مراسلي الصحف الغربية المسيحيين ، وكما ذكر المؤرخ « يوسف البستاني » في كتابه « تاريخ حرب البلقان الأولى » مما أذكر لك منها هنا بعض المقتطفات :

« جاء في منشورات رسمية من ملوك البلغار والصرب واليونان تسمية الحرب البلقانية بالحرب الصليبية ، وفيها تهييج للعواطف » « بينما ظهر منشور من جلالة السلطان ، يذكر فيه الجنود العثمانيين بمجد آبائهم ، وأجدادهم ، وشجاعتهم التاريخية ، ويحضهم على احترام النساء والأطفال وسائر الذين لا يدخلون معمعان الحرب » .

قارن بين الروحين ، وأقرأ ما يلي مما نقله المرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون في موسوعته[٦] .

قالت جريدة فريستش : إن مائتين من النساء والأطفال لجأوا إلى جامع في « دده أغاج » فوضع البلغاريون تحته « ديناميتاً » ، ونسفوه بمن كان فيه ، وفي بلدة « غور حصار » سادت فيها الأعمال الوحشية ، وأُحرِق المسلمون وهم أحياء ، وهدد جماعة منهم أن يعتنقوا المسيحية ، وإلا أحرقوا ، وألقى جماعة من « كوملنجه » في النهر ، وهم مكتوفو الأيدي ، والجروح تقطر دما من أبدانهم ورؤوسهم » !!

نشر مراسل « الالوستارسيون » مقالا قال فيه : « إن حي المسلمين الذي كان عدد أهله ثلاثة آلاف نسمة ، خُرب كله وأحرقت

---

(٦) « سماحة الاسلام » ص ١٢٢ وما بعدها في مجلدين .

منازله ، وما من شيء يبرر هذا التوحش المنكر » !!

وقال مراسل الديلي تلغراف في « كليبولي » : « إنني لا أستطيع وصف البؤس الذي حل بهؤلاء المساكين(من المسلمين) . . الخ وقال المسيو « ستيفان لوزان » رئيس تحرير « الماتين » : « إن اليونان والبلغار يسلكون مسلكا دنيئا في مقدونيا ، والنصارى الساكنون في القرى يذبحون المسلمين ، وينزعون الحلى من آذان النساء ويعتدون عليهن ، وحدث ان النساء بالأطفال لجأن إلى الأديرة بعد قتل الرجال ،ولكن الأهالى المسيحيين هجموا عليهن ، وقتلوهن » ثم قال « ومما يزيد تلك الفظائع وحشية أن رجال الدين المسيحي هم الذين يشهدون بها ، أو يقودونها » . . !!

وكتب مراسل جريدة « كيلوزيتوغ » يقول : « إن جماعة القسس في مقدونيا ، نشروا رسالة قالوا فيها : الواجب المفروض على كل مسيحي أن يقدم روحا إسلامية ، على هيكل الكنيسة !! ونفذ الأهالي توجيههم بوحشية فظة » ، وكتب مراسل « المساجيرو » الإيطالية : إن الصربيين أفرغواجهدهم في قتل المسلمين وذبحهم ، وبينهم عدد كبير من النساء » ونشرت جريدة « كونيش زيتونغ » كتابا عن الفظائع التي ارتكبها البلغاريون في « قوله » جاء فيه : « في اليوم الثاني من وصول آلاى بلغاري للمدينة ، شرع أهلها يقودهم مطرانها ، في ارتكاب أعمال وحشية ، في معاملة أناس لا ذنب لهم الا أنهم مسلمون ، ثم اعتدوا على أعراض النساء والفتيات ، وأخرجوا المسجونين المسلمين وقتلوهم في فظاعة ، وكانوا يطعنونهم في أدق المواضع حتى يخرجوا أرواحهم » !!.

وقال مراسل « الديلي تلغراف » : « إن جنود الجنرال « يانكوفتش » أعادوا في القرن العشرين ، جميع ضروب الاضطهاد

القاسي الفظيع التي رواها التاريخ ، وكان الضباط يقولون لجنودهم : إن خير وسيلة للراحة ، هي إبادة المسلمين ، وأسرع الجنود إلى تنفيذ هذه التعاليم فقتلوا وأحرقوا وفتكوا بمن أبقته المصادفة حيا ، وتفننوا في أساليب ، كانت في غاية التوحش والفظاعة ، حتى كانوا يعمدون لقتل الرجال أمام النساء والأولاد ، ويضطرون الوالدات البائسات إلى حضور مشهد الفتك بأبنائهن ، وتقطيعهن إربا أمام أعينهن » .

وفي كتاب عن السلطان عبد الحميد للدكتورة « آلما وتلن » ترجمة الاستاذ راسم رشدي ، بعض اخبار هذه المذابح جاء فيه : لقد أعلن الروس أنفسهم حماة للنصارى « في الحرب البلقانية » وأعلنوا الحرب ولقد كانت معاملة الروس للمسلمين من القسوة ، بحيث دمرت قرى بأكملها ، وسمح للسولاف المسيحيين المتمتعين بحماية الروس ، ان يذبحوا سكانها جملة . وان قصة نهر « مارتيزا » الذي تغير اتجاه مجراه ، لأن جثث ألفي طفل كانت تسد طريقه ، ما هي إلا تعبير عن الحقيقة ، التي فاقت كل خيال . ولقد بلغ من صور الوحشية المستهترة بالأرواح والدماء ، أن هؤلاء المتوحشين كانوا يشقون بطون الحبالى ويراهنون فيما بينهم عما إذا كان الجنين ذكرا أم أنثى » !!

واكتفي بهذا القليل مما أمامي ، من حقائق مخجلة ومذهلة جعلت « اللورد سالزبوري » نفسه يقول : إنه منذ أيام القوط لم يقع في العالم المسيحي مثل تلك الفظائع التي ارتكبتها الجيوش الروسية ، وكان ذلك أيام القيصرية ، على ان ذلك لم يكن قاصرا على الروس .

كما حملت هذه الفظائع ، المستر « مرمدوك بكتول » الانجليزي المسلم ، أن يرسل كتابا إلى جريدة التيمس يقول فيه :

« إن شهرة التيمس باستقلال الرأي تحملني على الرجاء منكم ان

تسمحوا لي بتوجيه الخواطر على صفحات جريدتكم ، إلى حالة مسلمي مقدونيا ، فقد دلت الأخبار التي جاءتني ، وجاءت غيري ، أن هناك مكيدة مدبرة لذبح غير المقاتلة من الرجال والنساء والأولاد ، وقد بدأت المذابح منذ اسبوع ، ولا تزال ، وليس لهم غاية إلا إبادتهم عن آخرهم ، وقد زاد عدد الضحايا حتى الآن (حين كتابة هذا) على نصف مليون نسمة !! أفظع المذابح في العصور الحديثة تجري باسم المسيحية !! » .

صور متلاحقة ، ترسم صورة عامة ، لكل من المسلمين وتسامحهم مع غيرهم من المسيحيين واليهود وأهل الأديان الأخرى ، وصورة مقابلة للمسيحيين الغربيين ، في تهجمهم على المسلمين ، وارتكاب الاعمال الوحشية معهم ، ابتداء من الحروب الصليبية ومرورا بما حدث في الاندلس ، ونهاية بما حدث في البلقان وفي ليبيا سنة ١٩١١، وبالأمم الاسلامية عامة .

ونتساءل : هل كان الحكام المسلمون في أوج عظمتهم في الشرق ، أو في الأندلس ، أو في الدولة العثمانية ، عاجزين عن أن ينزلوا بغير المسلمين في الأمم التي فتحوها وحكموها ، مثل أو قريبا مما أنزله الغربيون حين قوي أمرهم ، بالمسلمين ؟

كلا : لم يكونوا عاجزين بالطبع ، ولكن كانت تحكمهم مبادىء دينهم ، في الرحمة والتسامح . يقول الأمير شكيب ارسلان في تعليقاته على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » : « إن السلطان سليمان القانوني » فكر في سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار ، والأرمن ، وغيرهم في مملكته ، وأحب إخراجهم ، وقيل : السلطان سليم ، وكان كل مرة يعترض على ذلك شيخ الاسلام ، ويقول :

ليس لنا عليهم إلا الجزية . .

ثم يقول : « فلماذا يا ليت شعري لم يهذب الإنجيل أقوام أوروبا ، ولم يمنع البابا اسكندر السادس وأساقفة الكنيسة في اسبانيا ، والملك فرديناند ، والملكة إيزابيلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكثلكة ، من نصب ديوان التفتيش ، وارتكاب تلك الفظائع . . الخ » ؟ ثم يقول أخيرا : « إننا لا نفهم كيف إذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشا وبربرية ، وتمتلىء الصحف بألفاظ القسوة والهمجية . . وتقوم القيامة ، فإذا ذبح البلقانيون مسلمي الروملي واستباحوا حرمهم ، أو ذبح الأروام مسلمي غرب الأناضول ، لم نجد شيئا من تلك القيامة ، ولا هاتيك النعرة . الخ ؟ » !!

ونلاحظ أيضا مع هذا أن الدول والقوى الغربية كلها ، وقفت مع دول البلقان ، لتحريرها ، ضد الدولة العثمانية ، بينما هذه الدول كانت تستعمر دولا أو أمما في الشرق والغرب الاسلامي ، أرقى بكثير من دول البلقان . والسبب في ذلك واضح ، وهو التعصب المقيت والكالح ، ضد الاسلام وأممه .

وفي تلك الأيام كان أيضا هجوم ايطاليا على ليبيا إحدى البلاد الخاضعة للدولة العثمانية سنة ١٩١١ وما فعلته بها من وحشية وهمجية ، قال عنها شاعرنا المرحوم محمد حافظ ابراهيم :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما
فاستفق يا شرق واحذر أن تناما
أحرقوا الدور استحلوا كل ما
حرمت « لاهاي » في العهد احتراما

بارك المطران في أعمالهم
فسلوه بارك القوم علاما ؟
كشفوا عن نية الغرب لنا
وجلوا عن أفق الشرق الظلاما

« ونية الغرب » هذه تكمن في نفسه باستمرار ، وحتى هذا القرن وحتى ما بعده تظهر بشكل كالح ، حين تتاح لها الفرصة ، ولا يمكن أن تموت حين لا تتاح لها الفرصة الكاملة ، بل تأخذ صورا شتى تتجسم فيها ، والضعف يغريها ، والقوة تردعها وتخفيها . .

فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

مع الأسف !!

ولكن هل يفيق الشرق ؟

ونحن لا نريد له أن يفيق ، ليتعصب تعصبا أعمى ، ولا ليحقد حقدا يخرجه عن الروح الاسلامية العادلة المتسامحة ، ولكن نريد له أن يفيق ويتنبه لما يبيته له غيره من مصائب ، ومكائد ليتقيها ، نريد له أن يعرف موقف الغير منه ، ولا يأخذ الأمور بمقتضى طيبته وظنه الحسن « فحسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة » نريد له أن يعرف الشرق الأوروبي الملحد ويعرف الغرب على حقيقته ، يعرف روحه الصليبية المتمكنة فيه ، فبرغم أن دوله فصلت الدين عن الدولة ، وأعلنت أنها دول علمانية ، فإن رجالها لم ولن يتخلوا عن روحهم الصليبية ، في معاملتهم للمسلمين ، وبرغم ما يعلنونه ، ويظهرون به ، من انهم متمدنون ، إلا أن تمدنهم هذا ينقلب إلى وحشية كاسرة حين يتحكمون في المسلمين ، أو حين ينظرون اليهم كفريسة لهم ، يجب اصطيادها والتنكيل بها . . وروحهم العدائية الكامنة فيهم باستمرار تبدو مظاهرها في الحرب أكثر ، وأحيانا على فلتات لسانهم « وما تخفى صدورهم أكبر » كما تظهر في مواقفهم المتناقضة ، من الشيء ونظيره ، فهو اذا وقع من مسيحيين أينما كان موقعهم يسكتون سكوت الرضا والاغتباط ، فاذا وقع الشيء نفسه من مسلمين هاجوا وماجوا وحملوا على المسلمين ، وشهروا بهم ، ويملئوا الدنيا ضجيجا عليهم . يقول

الاستاذ أحمد أمين في كتابه « يوم الاسلام »[1] :

الحق أن موقف الاوروبيين المسيحيين عجيب ، فهم إذا علموا أن شعبا نصرانيا عذب أو أهين ، ثارت ثورتهم ، أما إذا علموا أن المسلمين عذبوا وأهينوا ، لم تتحرك شعرة فيهم ، خذ مثلا هذا الذي كان بين الأرمن والمسلمين ، فقد تعدى الأرمن على المسلمين الأتراك وعذبوهم وقتلوهم فلم يتحرك الأوروبيون لنصرتهم « أي المسلمين » ، وتعدى المسلمون (الاتراك) على الأرمن وعذبوهم وقتلوهم (ردا على ما فعلوا) فثارت ثورة الأوروبيين » .

ثم يقول : « ولما شبت الحرب الريفية في مراكش ، أرسل الصليب الأحمر بعثة طبية لمعالجة جرحى الفرنسيين ، وجرحى المسلمين تبعا ، ولكنه لما أراد المسلمون أن يبعثوا بعثة طبية ، لم يرضوا عن ذلك ، وقد حموا نساطرة العراق ؛ لأنهم نصارى ، وتآمروا معهم ضد المسلمين فيه ، واتخذوهم لهم بطانة ، وقال ملك أسبانيا عند حرب الريف : إن اسبانيا اشتهرت منذ القدم بقتال المسلمين !! وفي هذه النوبة ، هي مصممة على ألا تترك قتال المسلم ، حتى تنصيب الصليب هناك محل الهلال » !! ثم يقول المرحوم احمد أمين :

« ومالنا نذهب بعيدا ، وقد سمعنا في الأيام الاخيرة عن القتال في فلسطين ، بين اليهود والمسلمين : أنه إذا انتصر المسلمون نادوا بوقف القتال ، وإذا انتصر اليهود ، سكتوا ، ويفعل النصارى الأفاعيل في المسلمين ، فلا يقال : إنهم متعصبون ، ويفعل المسلمون جزءاً صغيرا مما فعله الأوروبيون النصارى فيرمونهم بالتعصب المقيت ، والخلاصة أن فكرة الحروب الصليبية متغلغلة فى نفوسهم ، فإن خفيت فى

(١) ص ١٢ طبعة ١٩٥٢ .

عقولهم ، فهي كامنة في وعيهم الباطن ، لا يصدرون إلا عنها ، ولا يغفرون للمسلمين أبداً ، أنهم انتصروا عليهم يوما ما ، كما لا يغفرون لهم نجاحهم ، في إدخال الناس في دينهم ، حتى من غير تبشير ، وعجزهم هم حتى مع التبشير . . » .

ثم ينتهي إلى النتيجة التي يبرزها فيقول : « فمن الغفلة أن نقول : إن الحرب اليوم حرب سياسة لا حرب دينية ؛ لأن المظاهر كلها ، تدل على ما نقول ، وأن النصرانية(٢)وعداءها للاسلام كامن في نفوسهم لم يزلها اي عامل ، غاية الأمر انها تحت ستار ، وأوضح مثل على ذلك انهم عابوا على ملك أسبانيا قوله المتقدم ، لأنهم يريدون أن يعملوا من غير أن يقولوا ، ويستتروا من غير أن يظهروا ، وإنما هي فلتات تدل على منحاهم ، فليتعظ المسلمون . فإن ما يشيعونه من عدل وإخاء ، ومساواة ، ليس إلا فيما بينهم . أما الأجناس المسلمة فليس واجبا عليهم فيهم عدل ، ولا إخاء ولا مساواة »ا هـ .

ونضيف إلى هذه المظاهر التي ذكرها الاستاذ احمد امين سابقا ، ما شهدناه ، في أحداث الثورة الانفصالية ، التي قام بها « إقليم بيافرا » أحد الأقاليم التي تتكون منها دولة نيجيريا ، فقد قام هذا الاقليم ، وأغلبيته مسيحية بثورة ، يريد بها الاستقلال عن الدولة الأم ، وأغلبيتها مسلمة ، وذلك في أواخر سنة١٩٦٨ م ، فرأينا المساعدات تنهال عليها من الدول المسيحية الغربية ، وأغلبها أسلحة تصل إليها

---

(٢) مفهوم من السياق كله أن الحديث عن تعصب الغرب ضد الشرق وأهله ، مدفوعا بعصبيته الدينية وأطماعه التوسعية ، وهو لا يميز في الشرق ، بين مسلم ، ومسيحي ، فكلنا في الهم شرق ، وهذا مفهوم لنا من قديم حتى وحدنا المسيحيين الشرقيين يحاربون الغربيين الصليبيين في صف صلاح الدين وغيره ، ويظهر منهم أبطال مخلصون لبلادهم ، ولا يزالون

متسترة تحت علم الصليب الأحمر الدولي ، أو عن طريق الدول المجاورة إليها ، وكان المفروض ، والعرف الدولي ، أن تراعى الدول الغربية علاقتها بدولة نيجيريا ، ولا تقدم على مثل هذه المخالفات ، ولكن الغرض مرض كما يقولون ، والأمر لم يقتصر على الدول بل سرى أيضا إلى الشعوب المسيحية التي أعلن بعضها بشكل سافر مساندته لبيافرا !! وكانت حركات مكشوفة !! وكان تدخلا غير مشروع في الأمور الداخلية لدولة من الدول ، وهو امر لا يجوز دوليا . .

وقد تابعت في أيامها هذه الظاهرة ، وعلقت عليها في مجلة « الوعي الاسلامي » الكويتية ، وكنت ارأس تحريرها ، مما يحسن أن أضع أمامك هنا بعض ما قلته في العدد ٤٨ (ذي الحجة سنة ١٣٨٨هـ ـ فبراير سنة ١٩٦٩) تحت هذا العنوان :

■ لماذا بيافر ؟

« نشرت جريدة السياسة الكويتية خبراً من لندن تحت عنوان « طلاب بريطانيون يصومون في البرد من أجل بيافرا » :

تجاهل فريقان من الأشخاص البرد والجليد هنا اليوم ، واستمرا في صيام ، يهدف إلى لفت الانتباه إلى الوضع في بيافرا . وأتم أحد هذين الفريقين ، بزعامة « المستر أليكس كيربي » وهو قس سابق ، في كنيسة انكلترا ، في التاسعة والعشرين من العمر ، اكثر من ٤٧ ساعة صيام ، في ساحة « بيكاديللي » في قلب منطقة المسارح في لندن ، ويعتزم هؤلاء الاشخاص الصيام لمدة يومين ، واعتصم ١٤ طالبا خارج مقر المستر هارولد ويلسون رئيس الوزارة البريطانية على الرغم من البرد والجوع مددا مماثلة « انتهى كلام السياسة » .

« وقد سبق أن أثرت ملاحظات ، حول تعصب الغرب لبيافرا ، ولفت أنظار المسلمين إلى هذه الروح ، واليوم أسوق هذا الخبر أيضا وأتساءل : لماذا بيافرا ؟ ، وهي التي انشقت عن الدولة الأم ، وخرجت عليها ؟ ومن أين لهذه الولاية المنشقة كل هذه الأسلحة ، التي تقف بها أمام قوة الدولة الكبيرة ، طول هذه المدة ؟ ولماذا نجد كل هذا الاهتمام من الدول الغربية ، وهيآتها ، بمد بيافرا ، بالمساعدات الكثيرة والطائرات ؟

وتسوق لي الإذاعة وأنا أكتب هذا ، خبرا عن مد أميركا لهيئتي الصليب الأحمر والإنماء ، بأربع طائرات لمساعدة بيافرا !! فلماذا كل هذا العطف على « بيافرا » بالذات ؟ ولماذا لا نجد له مثل هذه الروح من اجل لاجئي فلسطين والمشردين من أهلها ؟

« أسوق هذا ليتنبه المسلمون ولا يكونوا « مغفلين » حتى يعرفوا الروح التي تسود الغرب ، وعلى الأقل ، يحذرون الانسياق وراء الدعايات الغربية « لبيافرا » فقد حرصت وكالات الأنباء الغربية ، على توزيع الأخبار والصور التي تثير الاشفاق على « بيافرا » وتصورها ضحية للدولة الأم ، التي تحاول إرجاعها إلى حظيرتها ! ولاحظت أن أجهزة الاعلام عندنا ، تنساق وراء نشر هذه الاخبار والصور ، وهي لا تدري الروح المتعصبة التي تكمن وراء توزيع هذه الأخبار !! إن نيجيريا اكبر دولة إسلامية في أفريقيا إذ يبلغ عدد المسلمين فيها فوق الخمسة والثلاثين مليونا ـ في ذلك الوقت ـ وهم يكونون الأغلبية التي تتولى زمام الحكم فيها ، فهل عرفت السر ؟

« ولزيادة المعلومات أقتطف لك هنا فقرات من تحقيق عن نيجيريا نشرته اهرام ٢٧ / ١٢ / ١٩٦٨ للاستاذ محمد حقي وهو أحد

الخبراء بالمشاكل الدولية : يقول : « لقد كانت فرنسا تأمل بعد شحنات الأسلحة إلى « بيافرا » في الصيف الماضي ، عن طريق « جابون ، وساحل العاج ، وغينيا الاستوائية » أن تتمكن قوات « بيافرا » من أن تحرز ولو قدرا ضئيلا من النصر العسكري . . الخ » .

« وإلى جانب فرنسا » وسويسرا ، هناك عدة دول كانت ضالعة هي الأخرى في مساعدة بيافرا ، وهي كندا والسويد ، وهولندا ، حتى هددت حكومة نيجيريا الاتحادية ، بمصادرة نشاط الشركات الهولاندية فيها ، إذا هي استمرت على مساعدة بيافرا . . الخ »

ثم قلت في النهاية تعليقا على ذلك :

« لعلك أخي ، بعد أن تضيف هذه المعلومات إلى معلوماتك

السابقة ، تدرك مدى التيار الخطر الذي تتعرض له نيجيريا المسلمة ، وتدرك مع هذا ، واجب كل منا تجاه اخوانه هناك ، تجاه أكبر دولة اسلامية في افريقيا ، تتعرض لضغط ومؤامرات غربية تكبت انفاسها ، وتحول دون انطلاقها ؛ لتأخذ دورها مع أخواتها الدول العربية الاسلامية ، ولعل القارىء يذكر أن اغتيال الزعيمين المسلمين لنيجيريا كان مؤامرة استعمارية بسبب موقفهما معنا ضد الصهيونية . الخ »

وترى أنني أشرت في أول هذا التعليق إلى ما سبق أن كتبته أيضا عن هذا الموضوع . . وقد كتبته في العدد ٤٣ بتاريخ رجب سنة ١٣٨٨ هـ - سبتمبر سنة ١٩٦٨ م وفي الباب الثابت الذي كنت اكتبه في المجلة « خواطر » ، وقد رأيت بعد الاطلاع عليه ، أن أضعه امامك هنا أيضا لأهميته وصلته الوثيقة بموضوعنا . قلت تحت عنوان :

■ حقد قديم جديد :

« منذ شهور يلح على قلمي خاطر ، وتموج النفس بالأسى ، لما أرقبه من حقائد قديمة ، لا تزال تسيطر على الرأي العام في الغرب ، ضد الاسلام والمسلمين في اي مكان ، وفي كل الظروف والأحوال ، التي تمر بالمسلمين ، والتي تتاح لهؤلاء الحاقدين !! والمسلمون شبه نائمين أو غافلين ولا أقول (مغفلين) يعومون في بحر راكد من التسامح ، أو الأهمال ، وعدم التنبه لما يحيط بهم ، ويدبر لهم ، خائفين من أن يتصفوا لأنفسهم ، أو لدينهم ، حتى لا يرموا بالتعصب ، في الوقت الذي يتصرف فيه الغرب معنا بدافع من تعصبه وحقده علينا ، ويتمثل ذلك في كل تصرف من تصرفاته في الماضي البعيد ، والقريب ، وفي الحاضر . .

تمثل ذلك في وثبة فرنسا على الجزائر وتونس والمغرب ، ووثبة ايطاليا على ليبيا ، واحتلال هذه البلاد الاسلامية ، في الوقت الذي وقفت فيه هذه الدول الغربية وغيرها مع دول البلقان ، التي كانت تابعة للخلافة العثمانية ، لتسلخها عن الخلافة وتحقق لها استقلالها . . ولم تكن البلاد الاسلامية أقل تقدما ورقيا من دول البلقان ولكنها العصبية ، حملت الدول الغربية على احتلال البلاد الاسلامية ، وحملتها في الوقت نفسه ، على تخليص بلاد البلقان من الخلافة الاسلامية . . الغرض في الحالتين واحد ، هو التعصب ضد الاسلام والمسلمين ، ثم رأينا هذه الدول تساعد اليونان بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى لكي تغزو بجيوشها أرض الخلافة العثمانية في استانبول وأزمير وغيرهما . . حتى هب مصطفى كمال ، ومعه الجيش والشعب التركي ، فأوقف المعتدين وردهم . . ثم رأينا ما سموا بالحلفاء يشترطون على مصطفى كمال ومن معه لاجراء صلح اخير أن يلغي

الخلافة العثمانية ، ويزيل شبحها من الوجود ، لا لشيء الا لأنها كانت تمثل في نظرهم كلمة المسلمين المجتمعة ، أو دولة الاسلام . .

ثم رأينا صورة من هذا قريبا في حرب التحرير الجزائرية ، وما كانت تتعمده البلاغات الرسمية ، والأخبار الصحفية : في فرنسا وغيرها ، من ذكر كلمة « مسلم » أو « مسلمون » في كلامهم عن الجزائريين ، لم يكونوا يستحسنون ذكر كلمة جزائري او عربي ،بل كلمة مسلم ، قام المسلمون بكذا . . قتلنا من المسلمين كذا . .

ولم يكن هذا الا عملا مقصودا لعتاة المستعمرين العسكريين من الفرنسيين ، أرادوا به إثارة العصبية الدفينة في نفوس الفرنسيين ضد المسلمين . . ليعينوهم على الاستمرار في حرب الجزائر ، وكبت أنفاس الجزائريين . .

ولا يمكن أن نخدع أنفسنا فنقول ان موقف الغرب منا في نزاعنا من اسرائيل وعطفه الدائم عليها انما هو نتيجة الدعاية الاسرائيلية فقط . . لا . . ان هناك عاملا آخر دفينا يسيطر عليه ، وحقدا كمينا يوجهه ، ويجعله يتناسى كل الحقوق التي لنا ، وينحاز لباطل أعدائنا . .

هذه الروح السوداء في الغرب ، أخذت تظهر كذلك الآن في مجال آخر . . في « نيجيريا » التي يكون المسلمون أغلبية حاكمة فيها ، فكانت وراء قتل الزعيمين المسلمين العظيمين ، اللذين كانا يديران دفة السياسة في نيجيريا ، وهما الشهيدان : أحمدو بيللو ، رئيس وزراء الشمال ، وأبو بكر تيفاوا رئيس الحكومة المركزية في لاجوس ، ومن أبناء الشمال . وقفت على كثير من جهودهما وروحهما الطيبة في

سبيل الاسلام ، والبلاد الاسلامية ، والقضية الفلسطينية ، لا من الصحف وحدها ، ولكن من أحد رجالات نيجيريا الشبان وهو الشيخ أبو بكر جومي قاضي قضاة نيجيريا ، أو كبير قضاتها ، حتى أراني حينما كان في مصر منذ سنوات « سنة ١٩٦٣» برقية وصلته من نيجيريا ، تزفّ إليه إحصائية ، بعد د الداخلين في الاسلام ، من أبناء نيجيريا في ثلاثة شهور ، وأذكر أن هذا العدد كان نحو ستين الفاً . . وقال ان وراء ذلك كله ، الزعيم المسلم أحمدو بيللو ، الذى يرأس جمعية أنصار الاسلام التي تقوم بهذه الجهود ، بتشجيعه ورعايته . . وعرفت منه أن هذا الزعيم المسلم وقف أمام كل التيارات ، والاغراءات الاسرائيلية ، بدافع من اسلامه ، وحبه للبلاد الاسلامية ، ودفاعه عن القضية الفلسطينية . .

ولم يكن ذلك كله بخاف على أصحاب الروح السوداء والأحقاد العمياء فدبروا لهما ما دبروا ، وذهبا شهيدين . .

ذلك كله ، وأكثر منه ، أعرفه وأنوء بحمله ، واتابع أحوال نيجيريا بعدهما ، والأغلبية فيها للمسلمين ، الذين يكثرون في الشمال . . بينما يكثر غيرهم في الولايات الاخرى التي تكون مع الشمال اتحاد نيجيريا ، ومنها الولاية الشرقية ، التي انفصلت منذ سنة عن الاتحاد ، وسمت نفسها (بيافرا) وأعلنت العصيان ، وأشهرت مدافعها في وجه الاتحاد الذي رجع الحكم فيه للمسلمين بعد فترة من استشهاد الزعيمين أحمدو بيللو وأبو بكر تيفاوا . .

وأصبح الاقليم الشرقي المنفصل ، يمثل تمردا على الاتحاد ، وبالتالي على الزعماء المسلمين الذين يديرون دفته . .

وهنا تبرز الروح السوداء والأحقاد العمياء ، لتفعل فعلها في كسر شوكة الحكم الاتحادي ، الذي تمثله الزعامة الاسلامية . .

وقد أردت قبل الآن ، أن الفت الأنظار الى هذا ، وكتبت كلمة عن الدول التي بادرت بالاعتراف بالاقليم المنشق . . وما وراء هذا الاعتراف من روح سوداء . . لكني أجلت ما كتبت ، وطويته ، حتى رأيت أخيرا تحقيقا في مجلة (النهضة) الكويتية لمراسلها في ألمانيا . . تحدث فيه عما تكتبه الصحف في فرنسا وألمانيا ، من تعضيد لحركة الانفصال ، وتمجيد للانفصاليين ، وتصوير لهذه الحرب الدائرة الآن ، بأنها حرب بين المحمديين وبين الرجل الأبيض ، وأن المحمديين يريدون القضاء على الرجل الأبيض ، ونفوذه في نيجيريا ، وأن مصر تمد المحمديين بالطائرات والطيارين ؛ ليقتلوا الرجل الأبيض ، ومن يناصره في بيافرا . . الى غير ذلك مما تعمدت به هذه الصحف ، إثارة روح عطف قرائها في فرنسا والمانيا ، وغيرهما ، على الأقليم المنشق ، واثارة روح الحقد ضد المسلمين . .

ولعل من آثار ذلك أو من بوادر ما قرأناه ، عن اعتراف فرنسا بالاقليم المنشق ، وعن المساعدات التي تحمل في طياتها الاسلحة للمنشقين ، بواسطة الصليب الأحمر ، ما حمل القائد الشمالي على التمسك بتفتيش قوافل الصليب الاحمر ، التي تحمل المساعدات للاقليم المنفصل . .

ورأينا مع ذلك كله اسرائيل ، تدلي بدلوها ، وتثأر لنفسها ، من موقف المسلمين وزعمائهم منها ، فتؤيد المنشقين ، وتساعدهم !!

لا أريد بذلك أن أثير من ناحيتنا تعصبا أعمى ، ولكني أريد فقط

من المسلمين أن يتنبهوا ، ويعرفوا أنفسهم ، ويعرفوا أعداءهم . ويقفوا الموقف اللائق بوضعهم وبوضع غيرهم منهم .

كم من الصحف والكتاب عندنا ، ذكروا للزعيمين الشهيدين فضلهما وموقفهما الكريم ، منا ، ومن قضيتنا ، وحدثوا قراءهم عنهما وعن مواقفهما الطيبة ؟

هل رأينا صحفنا تعني بموقف النيجيريين ، الذين يدافعون عن اتحادهم ، ويقفون وحدهم أمام الحقد الأسود الذي يهب عليهم من أوروبا وغيرها وأذيالها . .

لقد صورت الصحف الغربية الحرب الدائرة الآن في نيجيريا بأنها حرب بين المحمديين وغيرهم ، لتكتل القوى ضد المسلمين هناك . . فما هي الصحف العربية الاسلامية التي ناصرت قضية الحق والوحدة هناك ؟ أم أن ذلك شيء لا يعنينا ؟

■ رأى أستاذ كندي كبير :

قد يتسرب إلى ذهن إنسان أنني بوصفي من رجال الدعوة الاسلامية ، وبحكم ثقافتي ، أتصور هذا التعصب ، أو أتخيله وأبالغ فيه ، برغم ما ذكرته من شهادات الغربيين بهذا التعصب ، ولذا رأيت أن أضيف إلى ما تقدم ما عثرت عليه في أوراقي ، من قصاصة « الأخبار » ، وبها مقال كتبه الاستاذ الكبير المرحوم محمد التابعي (في أواخر سنة ١٩٥٥) حول الموضوع نفسه ، تعليقا على تصرفات فرنسا إزاء المغرب العربي ، وبهذا المقال إضافة جديدة ،تعني أن الملاحظة التي نلاحظها على موقف دول الغرب المسيحي المتعصبة ، لنسا

وحدنا ـ علماء الدين والمتحدثين به ـ الذين نلاحظها ، ولكن يلاحظها معنا رجال الصحافة والسياسة ، من خلال نظرتهم الى المواقف السياسية ، لهذه الدول وتحليلهم لها ، بل في المقال نرى إضافة أهم ، وشهادة شاهد مثقف كبير معاصر وهو من الاساتذة المسيحيين المعاصرين وهو مدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة « ماكجيل » بكندا ، بهذا التعصب الغربي . . ونكرر ما قلناه من قبل وما يقوله الاستاذ التابعي حين عاد للكتابة في هذا الموضوع بعد مقال نشره في الأخبار في ١٦ سبتمبر سنة ١٩٥٥ ، بأننا لا نمس بهذا أي مسيحي في الشرق ، ولا يصح أن يفهم هذا ، لأن المسيحي الشرقي مصاب مثلنا بتعصب الغرب ضدنا . « فكلنا في الهم شرق » . ولا اطيل عليك بأي تعليق على هذا المقال ، فهو غني عن أي تعليق ، وأسارع فاضعه أمامك بدون تعديل وكما جاء تحت عنوان : **استاذ كندي مسيحي لا ينكر تعصب الدول المسيحية ضد الاسلام . .**

■ يقول المرحوم الاستاذ التابعي :

كتبت في شهر سبتمبر الماضي في (يوميات الاخبار) مقالا عن التعصب الديني ـ كان في ١٦ سبتمبر سنة ١٩٥٥م .

تعصب الدول الكبرى المسيحية ضد الاسلام والمسلمين ، وتساءلت في صدر المقال هل كانت حكومات الدول الكبرى ـ وهي مسيحية ـ مثل أمريكا وبريطانيا ودول أمريكا الجنوبية ودول أوروبا . . . هل كانت تسكت على الدماء التي تراق في شمال أفريقيا لو أن أهل الجزائر ومراكش كانوا مسيحيين ولم يكونوا مسلمين ؟ . . . أو لو ان فرنسا كانت دولة اسلامية وكان سكان شمال افريقيا من المسيحيين ؟!

ثم قارنت بين موقف حكومات الدول المسيحية اليوم من هذه الاحداث التي تجري في شمال افريقيا وهو موقف عدم مبالاة أو موقف حياد . . وموقفها من الفظائع التي ارتكبتها حكومات سلاطين تركيا الاسلامية ضد الارمن المسيحيين وكيف ثارت يومئذ ضد تركيا المسلمة واحتجت وهددت وتوعدت ووقفت الى جانب الارمن المسيحيين . .

وكانت هذه خلاصة المقال . . .

ولقد شاء بعض اخواننا المسيحيين المصريين ان يفهم مقالي على غير ما قصدت منه وظن انني أتهم المسيحية عامة بالتعصب ضد الاسلام . . وهذا فهم خاطىء كما بينت في كلمة أخرى قلت فيها ان كلامي كان عن تعصب الحكومات لا تعصب الافراد . . وان الدين شيء والحكومات شيء آخر . وأن جميع الأديان توصي بالمحبة والاخاء والتسامح ولكن هل جميع الحكومات تعمل بوصايا الدين ؟ وهل لندن وواشنطن تعملان دائما بوصايا السيد المسيح ؟!

وكان بين الذين اعترضوا واحتجوا على مقالي وما جاء فيه عن فرنسا وأعمالها في شمال افريقيا العربي . . كان منهم السيد الاستاذ الفاضل موريس ارقش المحامي وهو ـ كما عرفت فيما بعد ـ سكرتير (الاتحاد العربي العام) . .

والاتحاد العربي العام يعمل ـ كما يقال ـ على حفظ حقوق العرب وتحقيق استقلالهم وحرياتهم . .

وكتب الي سيادته محتجا على عدم نشر خطابه . .

وسكت عن الرد عليه . ولم أنشر خطابه لانني أشفقت ان يخرج الموضوع عن الحدود الضيقة التي اردت يومئذ أن احصره فيها . . فقد كان علي ـ اذا نشرت خطابه ـ ان انشر كذلك الردود والتعليقات التي

جاءتني ردا عليه أو انتقادا لموقفه . . الخ .

اشفقت اذن ان يخرج الموضوع عن حدوده وان تتطور المناقشة الى البحث في تعصب الاديان . . لا تعصب الحكومات ! .

ومن هنا أغلقت الباب تماما ولم انشر أي خطاب من الخطابات الكثيرة التي تلقيتها يومئذ . .

ثم تلقيت اخيرا هذا الخطاب من السيد الاستاذ احمد حسين الصاوي المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة . .

نشرت في يومياتك بالاخبار في يوم ١٦ سبتمبر الماضي مقالا رائعا عن التعصب الديني . ولما كان الموضوع هاما وخطيرا وكان ما أثبته في مقالك يمثل الحقيقة المؤلمة التي لم يجرؤ الكثيرون من الكتاب على التعرض لها فقد ارسلت هذا المقال الى الاستاذ الدكتور « ولفرد كانتول سميث » مدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجيل بكندا الذي حصلت منه على درجة الماجستير ليبدي رأيه فيه باعتباره من أنشط المشتغلين بالدراسات الاسلامية في العالم الغربي واشدهم اخلاصا وفهما لمشاكل العالم الاسلامي . واقترحت عليه ان يرد على المقال كتابة حتى ابعث به اليكم لنشره في « الأخبار » . وقد أرسل الي سيادته اليوم رده الذي أرفق به بعض نشرات معهده . وهأنذا بدوري ارسل اليكم برده راجيا نشره والتعليق عليه .

وتفضلوا . . الخ .

وها هو ذا رد الاستاذ الدكتور ولفرد ك . سميث . . وقد كتبه على ورق يحمل شعار الجامعة وعنوانها . .

جامعة ماكجيل ـ مونتريال
معهد الدراسات الاسلامية
٣٥٢٠ شارع الجامعة

وقد حرصت على ترجمة الرد ترجمة حرفية على قدر الامكان حتى ولو على حساب الاسلوب .

٢٢ اكتوبره١٩٥٥

■ سيدى العزيز :

تفضل احد المصريين المتخرجين من هذا المعهد وارسل الى قصاصة من عدد جريدتكم الصادر بتاريخ ١٦ سبتمبر الماضي وهي تحوي مقالا عنوانه : (التعصب الديني) منشورا بقسم « اليوميات » . ويقرر كاتب المقال مستر محمد التابعي ان إحجام الدول الغربية عن زجر فرنسا بسبب سياستها في المغرب انما سببه ان فرنسا دولة مسيحية بينما ضحاياها من المسلمين . هذا بينما وقف الغرب موقفا عدائيا مريرا ضد تركيا اثناء الحرب العالمية الاولى من جراء المشكلة الارمنية لان تركيا كانت مسلمة بينما كان ضحاياها الارمن من المسيحيين . ومن ثم فهو يخرج بهذه النتيجة وهي ان الخلافات الدينية لا تزال لها الكلمة العليا ثم يبدو منه أنه يشير الى ان العداء الديني بين المسيحية والاسلام أمر لا مفر منه .

وان الحقائق التي أوردها كاتب المقال لا يمكن الزعم بأنها على غير اساس . ولكنني اظن ان من الممكن الخروج منها بنتائج مختلفة .

صحيح ان ابناء الدول الغربية قد انتموا منذ قرون عديدة كثيرة الى اخوة دينية .

وصحيح انه بالرغم من الخلافات التي شجرت بينهم قد احتفظوا بسبب هذه الاخوة في الدين بنوع من الصداقة وروح التضامن الجماعي بين بعضهم البعض .

ولهذا السبب فان الحركة المطردة النمو هنا والتي تتهم فرنسا بسبب سياستها الحالية وتؤيد بحرارة العرب . . هذه الحركة تجد مشقة كبيرة في النهوض بمهمتها . . مشقة ما كانت لتوجد لولا ما أسلفت من اسباب إذ أن على هذه الحركة ان تعمل وتتغلب على تقاليد موروثة منذ قرون عديدة . ومع ذلك فان هذه الحركة موجودة وقوية وهي تزداد قوة . ولقد يهم كاتب المقال (يقصد محمد التابعي) ان يطلع على بعض المقالات الافتتاحية التي نشرت في صحف مونتريال حول هذا الموضوع خلال الشهور القليلة الاخيرة .

والذين منا هنا في الغرب يجاهدون بصدق واخلاص للوصول الى علاقات أفضل وتفاهم أفضل بين الغرب والعالم الاسلامي يرون انه لا يزال امامهم طريق طويل عليهم أن يقطعوه وعقبات كثيرة لا بد من تذليلها قبل ان يحققوا ما يجاهدون في الوصول اليه .

ومما لاجدال فيه ان كاتب المقال (اليوميات) قد اصاب الحقيقة في قوله ان هناك ميولا ، وأهواء واغراضا كثيرة موروثة وهي في طريقها الى الزوال ولكن ببطء . . الا ان ذلك لا يثبط من عزيمتنا بل الواقع اننا لا نجد ما يدعو الى اليأس مادام كل عام يمر يزيد في حركتنا قوة ونجاحا . . وما كان في اول الامر عداء مريرا ثم اصبح عدم مبالاة قد اخذ يتطور ببطء الى محاولة مخلصة في سبيل الادراك وبناء الصداقة .

ولقد هزمت فرنسا اخيرا في اجتماع الامم المتحدة . وكانت هذه

الهزيمة في ذاتها نصرا لقوات الحرية . وهذا النصر ليس كاملا . لان عرب شمال افريقيا لم يحصلوا بعد على استقلالهم ولا يزال عليهم ان يكافحوا ويجاهدوا ولكنني اقول مع ذلك ان شيئا من التقدم البطيء قد تم . واظن ان مستر محمد التابعي سوف يدهش لو عرف كم للعرب من اصدقاء كثيرين في العالم الجديد . . حتى ولو لم يكن هؤلاء الاصدقاء من الكثرة أو القوة بحيث يمكنهم التغلب على الفريق الاخر (أي فريق المتعصبين ضد العرب المسلمين) .

وخلاصة القول انني اعتقد انه لا ينبغي لكل من عالم الاسلام وعالم الغرب ان ينكرا وجود الخلافات الدينية أو ينكرا هذه الحقيقة وهي ان الخلافات الدينية امر خطير وهام فليس من السهل ان نشيد مجتمعا عبر حدود دينية . ولقد كان المسلمون والمسيحيون في الماضي جماعات مغلقة . كل منها مغلقة على نفسها . ولكن ليس معنى هذا ان تزيد كل جماعة في إحكام إغلاق الباب على نفسها والوقوف موقف العداء من الجماعة الاخرى وهو ما يقترحه مستر محمد التابعي كما يبدو لي هكذا) ! . . وانما الواجب ان يعمل المخلصون من الفريقين على توحيد القوى من اجل التغلب على الصعاب وبناء جسر تفاهم فوق الهاوية التي فرقت بيننا في الماضي .

المخلص لكم
ولفرد كانتول سميث
مدير المعهد

هذا هو رد الاستاذ العالم الكندي المسيحي . وتعليقي عليه ـ كما طلب مني الاستاذ الفاضل احمد حسين الصاوي ـ انه ايدني في كل ما

قلته عن الدول المسيحية وتعصبها الموروث . . ولس أدل على هذا من قوله أو اعترافه بأنه يدرك هو والعاملون معه على تحسين العلاقات بين المسلمين والغرب .

انه لا يزال امامهم طريق طويل وعقبات كثيرة . . الخ ، قبل ان يتغلبوا على الفريق المناهض او المتعصب ضد العرب المسلمين . .

ثم تعليق اخير وهو انني لم اقل ولم أوص ولم أقترح في (يوميات)١٦ سبتمبر أو في أي مقال لي آخر (بأن تزيد كل جماعة في إحكام اغلاق الباب على نفسها والوقوف موقف العداء من الجماعة الاخرى) . .

ولست ادري من اين جاء الاستاذ الكندي بهذا المعنى . . . واين عثر عليه في مقالي المذكور ؟

وعلى كل حال فأنا اقبل رد الاستاذ الكندي المسيحي كما هو . .

واقبل ان يكون حكما فيصلا بيني وبين السادة الذين اتهموني بالتجني او بالتعصب او بما شاء لهم ادبهم أو فهمهم أن يقولوه .

والحمد لله أولا واخيرا على انني وجدت (كنديا) لا ينكر ما انكره على السيد (العربي) سكرتير الاتحاد العربي العام !

محمد التابعي

وينقل الاستاذ المرحوم أحمد أمين ما قاله مستر جلادستون « بوجوب إعدام القرآن ، وتطهير أوروبا من المسلمين » وجلادستون هذا كان زعيم حزب الاحرار الانجليزي وتوفي سنة١٨٩٨ م . وقال

لورد سالسبري وهو من عظماء الانجليز أيضا « بوجوب إعادة ما أخذه الهلال من الصليب للصليب ، دون العكس » .

ويعزو أحمد أمين هذا التعصب الحاد الممقوت ، ضد المسلمين ، إلى الفكرة اليونانية التي كانت تقوم على تقسيم العالم الى يونانيين ، وبرابرة ، فاعتقدوا هم أيضا أن العالم ينقسم الى سادة اوروبيين ، وعبيد من العالم الآخر »[٣] .

ويقول المرحوم الأمير « شكيب أرسلان » في تعليقاته على كتاب « حاضر العالم الاسلامي »[٤] ويذكر قولا وتعليلا آخر : « إن السبب فى هذا التعصب الأعمى هو الغريزة الأوروبية ، المبنية على الأثرة والطمع ، والجشع ، وحب التسلط في كل شيء ، مما يثبت بالحروب الكثيرة الأوروبية ، وناهيك بالحرب العامة (الأولى) شاهدا . فالنصرانية كانت دين سلام ، ورفق ، وحلم وتوصية بالقريب ، وبكاء على الحزين ، وفيها هذا المبدأ الشريف « أحبوا أعداءكم فإن كنتم تحبون أصدقاءكم فأي فضل لكم » فلما دانت بها الأمم الاوروبية ، تلونت بلون الآنية التي انصبت فيها (أي بلون نفوسهم) وانقلبت إلى ما تراه الآن من الاستبداد ، والظلم ، وامتياز أتباعها الأوروبيين ولا سيما اللاتين بشدة العداوة والشنآن ، خلافا لما كان يأمر به السيد المسيح على خط مستقيم » . ولتأصل هذه الروح المتعصبة العدائية ضد المسلمين في نفوس المسيحيين الاوروبيين نجد مظاهرها واضحة ، وصارخة منهم باستمرار على مرور القرون والأزمان ، واختلاف الجنسيات الأوروبية ، من فرنسيين ،

---

(٣) ص ١١٣ من كتابه « يوم الاسلام » .

(٤) حـ ٣ مبحث « التعصب والتسامح » .

وانجليز ، وطليان ، واسبانيين ، وبرتغاليين ، ويونانيين ،وبلقانيين، وروسيين الـخ » وملفـات هؤلاء كلهـم مع المسلمـين للتمــكن من رقابهم ، وحين يتمكنون منهم تنطق بالخزي والعار ، وتفصح حتى للأبله الضعيف الإدراك ، عما أصاب هؤلاء من جنون العصبية ضد الإسلام والمسلمين ، حتى لا نرى لهم موقفا ساد فيه التسامح ، كما رأينا المواقف المتسامحة الكثيرة من المسلمين في أيام قوتهم متأثرين بروح دينهم وأخلاقهم الأصيلـة ، . . . حتـى ليقـول « مسيو دجوفـارا » الروماني المسيحي البلقاني ـ وهو من أبناء الأمم البلقانية التي حاربت تركيا ـ في كتابه « مائة مشروع لتقسيم تركيا » : إن من أعظم العوامل على انحلال الدولة العثمانية ، هو مشربها في إعطـاء الحـرية المذهبية والمدرسية التامتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها » .

وهذا الرأي يتلاقى مع ما رآه مصطفى كمال أتاتورك وأشياعه في حملتهم على الاسلام واتهامه بأنه السبب في انهيار السلطنة . . مقدمة لما انزله بالخلافة وبالاسلام .

يقول الامير شكيب ارسلان : إن ملاحدة أنقرة ـ مصطفى كمال وأتباعه ـ يجعلون من جملـة حججهـم ،للتخلص من حكـم الشريعـة الاسلامية قولهم : إنه لولا مراعاة هذه الشريعـة ، لكانـت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ، يريد أن مراعاة الشريعة في معاملة غير المسلمين معاملة حسنة ، كانت سببا في انهيار السـلطنة . . ولكن برغم هذه المعاملة الحسنة ، شغلت دول اوروبا وبابواتها لعدة قرون بالقضاء على الدولة العثمانية ورسم الخطط لذلك ، حتى ليقول المؤرخ المسيحي البلقاني السابق ذكره : « لمدة ستة قرون متتابعة ، كانت الشعـوب المسيحية تهاجـم الدولـة العثمانية وكان الـوزراء ورجـال

السياسة وأصحاب الأقلام ، يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة ، بما زاد عن مائة مشروع » .

وقد لخصها الأمير شكيب فيما لخصه من كتاب هذا الكاتب المعنون : « مائة مشروع لتقسيم تركيا » ويقول أيضا :

« وما كان من الأمور يقبل العذر فيه ، إذا صدر من مملكة مسيحية ، كانوا لا يقبلون العذر فيه ، إذا صدر من مملكة غير مسيحية » مدة ستة قرون تتآمر اوروبا المسيحية فيها على الدولة العثمانية الاسلامية ، وتضع المشروعات ، واحدا تلو الآخر ، من هذا ، ومن ذاك ، للقضاء عليها لأنها كانت تمثل المسلمين الأقوياء ، الذين غزوا جزءا من أوروبا الشرقية ، وأكثر من ستة قرون بل أكثر من تسعة قرون والتعصب الاعمى من المسيحيين يثيرهم ، ويلهب فيهم عوامل الحقد والانتقام من المسلمين على الرقعة الاسلامية غربا وشرقا من الأندلس إلى مصر والشام إلى بلاد البلقان ، إلى أفريقيا . .

والكلام الآن مع المسلمين الغافلين الطيبين !! ، إذا كانت هذه الروح قد تأصلت هكذا في نفوس المسيحيين الأوروبيين ، غربا وشرقا ضد الاسلام ، وظلت كامنة حينا ، وظاهرة كالحة أحيانا ، حتى وجدنا القائد الفرنسي « غورو » الذي دخل دمشق بعد الحرب العالمية الأولى ، يذهب إلى قبر البطل « صلاح الدين الايوبي » بجانب الجامع الأموي ، ويرفس أحجاره برجله ، ويقول ـ في حقد وفي خسة أيضا ـ « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » .

وزميله القائد الانجليزي « لورد اللنبي » الذي دخل القدس في الحرب العالمية الأولى أيضا بعد انتصاره على العثمانيين لم يملك نفسه

من الفرحة او الشماتة وشفاء الحقد الموروث في الصدور فقال : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » وذلك باستيلائهم على القدس التي طرد صلاح الدين أجداده الصليبيين منها ، واعادها للمسلمين ! .

إذا كانت هذه هي روحهم فماذا يكون موقفنا ؟

إنه لا ينبغي لأحد منا أن يشك في أن هذه الروح الصليبية لا تزال ، ولن تزال مسيطرة عليهم ، وعلى تصرفاتهم ، إزاء المسلمين وباستمرار ، لا نقول ذلك استعداء لأي مسلم عليهم ، ولكن كما نقول باستمرار ليأخذ المسلم حذره دائما ، ويتصرف على هذا الأساس ، فلا يندفع في حسن الظن ، إذا بدا له شيء مما يبعث على الظن الحسن وينسى هذه الناحية ، بل يأخذها دائماً في حسابه ، ويقدر لرجله قبل الخطو موضعها . .

ولعله حين يعمل بوصيتنا هذه ، يحاذر دائماً ان يقدم - بأعماله وتصرفاته مع إخوانه المسلمين - ما يخدم هذه الروح الصليبية في نفوس الصليبيين ، ويجعلهم يشمتون بالمسلمين ، او يتيح لهم الفرصة ليتدخلوا وينفذوا مآربهم ، ويشفوا غليلهم . .

وقد سرني كثيرا أن أجد كاتبا من كتابنا الكبار وقد عرف عنه قراؤه الدقة في تحليل أية قضية يعرضها ، أجده يتطرق بتحليله للأحداث إلى هذه الناحية ، ويكتب عنها مقالته الرئيسية في مجلة « العربي » الكويتية التي يرأس تحريرها ، وهو الأستاذ احمد بهاء الدين ، في العدد ٢١٣ بتاريخ شعبان١٣٩٦هـ - أغسطس١٩٧٦م . . سرني منه - وهو غير ملتزم مثلي بالكتابات والتحليلات الدينية - أن يتحدث في مقالـه

التحليلي عن هذه الـروح الصـليبية الكامنـة في نفـوس الغـربيين ، والشرقيين الصليبيين ايضا في البلقان وروسيا ، ولكنه مسلم ووطني وشرقي ، ويرى الأخطار تهب عليه وعلى بلاده وأمته من سموم هذا التعصب ، فكتب بدوره ينبه قراءه الشرقيين ـ المسلمين والمسيحيين ـ لهذا الخطر ، حتى يعدلوا مواقفهم ، ويتقوا الأخطار المحدقة بهم كتب تحت هذا العنوان

نحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة

ولذا رأيت أن أضيف إلى ما سبق ، وأضعه أمام القارىء كما هو :

■ نحن نعيش الآن الحرب الصليبية العاشرة :

استنتاج مؤسف ، لا يتمكن من يقرأ التاريخ ، ومن يدرس ويحلل الحاضر من منظور تاريخي ، الا أن يصل اليه . . .

وأبادر فأقول أن الكاتب اذا كان مضطرا الى استخدام هذا التعبير الكريه ، تعبير « الحروب الصليبية » . . فلأن هذا هو الاسم التاريخي للحروب الصليبية الغابرة ، ولأنه فعلا ، وعندما بدأت قبل قرون من غرب اوروبا ضد العالم العربي والاسلامي ، جاءت جيوش الغزو تحت راية الصليب ، وبشعار استرداد الاراضي المقدسة من « المسلمين » ، وتحت رعاية البابا في روما ، وحاكم ورئيس كنيسة الامبراطورية البيزنطية . . .

ولكن الصبغة الدينية لهذه الحروب ، كانت تقل مع الزمن ويبرز من خلفها جوهرها الحقيقي ، وهو بداية تحرك أوروبا الى الاستعمار والاستغلال الاقتصادي ، وتنافس ملوكها وامرائها في هذا المجال . .

ولا نحتاج الى الغوص وراء ادلة كثيرة قد تحرفنا عن جوهر هذا

الحديث ، ولكن يكفي أن نحتكم الى مرجع غربي واحد ، دقيق ، يزن الكلمة والسطر ، ولا يتهم بالتحيز للعرب والاسلام ، بل العكس ، وهو « الانسيكلوبيديا بريتانيكا » ، أو دائرة المعارف البريطانية . . .

فهي في مفتتح حديثها عن الحروب الصليبية تقول أن السبب الاول هو اضطراب الامن في الاناضول (تركيا) مما كان يزعج قوافل الحجاج الاوروبيين الذاهبين الى القدس ، وكان الاناضول في ذلك الوقت ، القرن الحادي عشر ، محل صراع بين الاتراك والبيزنطيين . والسبب الثاني ، والاساسي ، الذي تشرحه الانسيكلوبيديا هو أن اوروبا بعد أن انتهت من حروبها مع القبائل الغازية ـ المجيار والفايكنجز وغيرهم ، وبعد أن تمت مسيحيتها ، انتعشت فيها التجارة ، وزادت حركة المال ، وكان لا بد من مجال « لاطلاق القوة الزائدة في غرب اوروبا من عقالها » ، تعبير مهذب عن الاتجاه الى الخارج ، وراء المستعمرات .

الدليل الثاني ما نجده في صفحات تاريخ الحروب الصليبية من صراع بين ملوك وامراء اوروبا الغزاة ، لا على القدس وكنيسة القيامة كما زعموا ، لكن على اقتسام اجزاء واسعة من المشرق العربي الاسلامي ، صراع تضاءلت الى جانبه الرغبة في تحرير القدس وغيرها من الاماكن المقدسة . . .

والدليل الثالث أنهم حين دخلوا القدس مثلا ذبحوا « المسلمين واليهود » كما تقول دائرة المعارف البريطانية ايضا . ونضيف الى ذلك انهم حرّموا على اليهود سكنى القدس حتى حررها صلاح الدين الايوبي بعد ما يقرب من مائة سنة . والاهم من ذلك قول دائرة

المعارف البريطانية ان المسيحيين الارثوذكس الشرقيين اشتركوا في مقاومة الغزو الاوروبي البيزنطي المشترك ، ورفضوا الخضوع لهذه الكنيسة او تلك ، وحين سقطت امبراطورية بيزنطة كلها « قبل المسيحيون الشرقيون حكم المسلمين » .

وتعترف دائرة المعارف البريطانية في تحليلها لنتائج الحروب الصليبية كلها ـ الحملات الثمانية خلال خمسة قرون ـ بأن المشرق العربي الاسلامي لم يكن يعرف التعصب ضد اي دين قط ، قبل أن تداهمه اوروبا بهذه الحروب ، وان الحروب الصليبية ، وتنكيلها الوحشي بالمسلمين واليهود واحيانا بالمسيحيين العرب ، هي التي تسببت في حالات الاضطهاد الديني بعد ذلك ، كنوع من رد الفعل .

فأوروبا سعيا وراء مصالحها المادية ، هي التي صدرت الى بعض بلاد المشرق بعض صور التعصب الديني ، الذي كانت اوروبا تتوسل به كأسلوب لتبريد السيطرة والنفوذ .

وأيضا ، وفي تحليل دائرة المعارف البريطانية لآثار كل هذه الحروب الصليبية طوال قرون ، تقول ان اوروبا اخذت عن العالم الاسلامي الكثير من العلوم والفنون والصناعات التي كانت تجهلها ، وحملت الى اوروبا البضائع الشرقية والنظم الغربية عليهم على السواء . وازدهرت التجارة والملاحة عبر البحر الابيض ، ثم يقول نفس المصدر ان اوروبا لم تقدم للشرق العربي الاسلامي اي شيء له قيمة حضارية ، لان اوروبا ذلك العصر لم يكن لديها ما تقدمه ! وان كثيرين من الامراء الذين جاءوا معتقدين أن المسلمين برابرة متخلفون ، دهشوا حين وجدوا ان لديهم كل هذه المظاهر للحضارة والتقدم والنظم التي لا تعرفها أوروبا !

المهم نعود الى ما اسلفت ذكره من أن اهتمام اوروبا بالاحتفاظ بالقدس ـ وهو حجة الحروب الصليبية كلها ـ تضاءل ازاء اهتمامها باستعمار المشرق ، بدليل أن كثيرا من الحملات ـ أو معظمها ـ استهدف اقامة ما يسمى « دولا لاتينية » في المشرق ، فاهتموا بغزو انطاكية ، وحلب ، والموصل في العراق ، ودمشق ، بل وحين وجدوا ان مصر تلعب دورا في مساندة المشرق ، شنت بعض الحملات الصليبية ، بقصد الاستيلاء على الدلتا والوصول الى القاهرة .

وفي احدى الحملات تحالفوا مع المغول ـ الوثنيين ـ ليحصروا المنطقة العربية الاسلامية من الشرق والغرب . واهتم المغول بعد ذلك ـ لاسباب خاصة بهم ـ بالاندفاع من اجل اكتساح العالم العربي الاسلامي ، فدمروا بغداد ، ودخلوا دمشق ، حتى تجمعت كلمة العرب المسلمين وهزموهم في الموقعة التي غيرت وجه التاريخ . . « عين جالوت » ، بالقرب من مدينة الناصرة الفلسطينية الآن . وكان قائد المغول في تلك المعركة قائدا اوروبيا مسيحيا بعثه الاوروبيون الى المغول ليحسن قيادتهم !

كانت اوروبا في ذلك الوقت تقلل من حروبها الدينية الداخلية ، وخلافاتها ، وتزداد قوة ، وتتجه الى الخارج . . .

وكان العالم العربي الاسلامي على العكس ، قد وصل الى قمة الحضارة ، ولكنه بدأ مرحلة التفكك والخلافات الاقليمية والصراعات . . .

ولهذا فكرت اوروبا في هدفها الذي لم يتغير من وقتها : غزو الشرق . او في القليل اقامة دويلات اوروبية فيه ، منها تتحكم في بقية تلك المنطقة الاستراتيجية ، الغنية ، القريبة منها . .

في سنة١٠٨٥ ، انهار الوضع الاسلامي في الاندلس ، اذ سقطت طليطلة . . .

وفي سنة١٠٨٧ ، احتل اهل « جنوا » الايطالية مدينة « المهدية » في تونس . . .

وفي سنة١٠٩١ ، طرد الاوروبيون المسلمين العرب من جزيرة صقلية . . . « مـدّ » اوروبي متصل . . و« جزر » عربي اسلامي . . وتأمل التسلسل التاريخي الذي اسلفت ذكره . . .

وقد كان طبيعيا ، بعد ذلك أن تبدأ أول « حملة صليبية » لغزو قلب الشرق كله ، سنة١٠٩٥ ميلادية !

لقد استقر في كتب التـاريخ كلهـا ، أن الحـروب او الحمـلات الصليبية في التاريخ ، عددها ثمانية . . .

وليس هذا مجال التأريخ لهذه الحروب الطويلة المعقدة المتشابكة ، ولكن ربما لم يكن هناك مفر من سرد الحروب الثمانية ، سردا يوحي لنا بالعبرة فقط ، ولكي نصل الى الاضافات التي توضح كيف اننا نعيش الحرب العاشرة .

وسوف نلمح من هذا السرد كيف أن الأغراض الدنيوية كانـت فيها أقوى من الاغراض الدينية ، كما سوف نلمح أن هزائم العرب كانـت مرهونـة بخلافاتهـم ، وان انتصاراتهـم كانـت تتـوقف على تضامنهم .

لقد بدأت فكرة اول حرب صليبية من التقـاء رغبتـين : رغبـة « الكسيوس الاول » حاكم بيزنطة في الاستعانة بجيوش غرب اوروبا ضد غزو الاتراك السلاجقة للاناضول وانتزاعهم اجزاء من بيزنطة . . .

ورغبة البابا اوربان الثاني في روما ، في اعادة توحيد الكنيسة البيزنطية والكنيسة الرومانية تحت رئاسته . فوجد ان ارسال جيوش اوروبا تحت شعار تحرير الاراضي المقدسة ، سيكون وسيلة سهلة لعبور جيوش اوروبا الكاثوليكية الى بيزنطة وما بعدها ، وبالتالي ضم الكنيستين مع الوقت بعد ان يتم « انقاذ بيزنطة » . فاوعز الى ملوك وامراء غرب اوروبا بتجييش الجيوش والاتجاه شرقا لهذا السبب . . .

١ ـ وتحركت اول حملة صليبية ، بكل الحماسة الدينية لدى الاهالي والجنود ، وكانت بقيادة « بوهيموند » احد ملوك فرنسا . . ولكن ما ان وصل « بوهيموند » الى « انطاكية » ـ وهي ليست ارضا مقدسة ـ حتى اقام ما سماه « اول دولة لاتينية » في الشرق . وغضب بابا روما . لأن هذا سيثير مخاوف بيزنطة قبل الاوان ، ولكن بوهيموند لم يلق بالا الى هذا الغضب ، فالمهم هو وضع « مسمار » غربي في المنطقة . وقد سقطت انطاكية في يوم ٥ يونيو آخر سنة ١٠٩٨!!!

وكانت المنطقة العربية الاسلامية تحكمها النزاعات بين الولايات والحكام . وقد تمزقت وحدة الدولة . وصار وجود الخليفة العباسي في بغداد شكليا . .

وكان ثمة صراع ـ وقتال ـ بين المسلمين السنة في الشام والمسلمين الشيعة ـ الفاطميون ـ في مصر . وكان الفاطميون قد انتزعوا القدس لمدة سنة ، ووصلت جيوش الحملة الصليبية الى اسوار القدس والامور على هذا النحو ، وفي ١٥ يوليو ١٠٩٩ اقتحموا القدس ، وقاموا باكبر مذبحة رهيبة ضد المسلمين واليهود وبعض المسيحيين الشرقيين . ومرة اخرى اقاموا حول القدس ـ مثل انطاكية ـ دولة لاتينية ، ورفضوا ان يسلموها للكنيسة او للحكومة الدينية ، بل طبق الامراء الغزاة فيها

نفس نظام الاقطاع الذي كان يسود اوروبا .

وبنفس المنطق ، وازاء تفكك المسلمين العرب ، وتعاظم مطامع الملوك والامراء والتجار الاوروبيين ، اسفرت الحرب الصليبية الاولى عن اقامة عدة دويلات لاتينية عواصمها انطاكية - القدس - طرابلس . . شملت الشواطىء السورية واللبنانية والفلسطينية كما نعرفها الآن (انظر الخريطة) .

كانت اقامة هذه الدويلات - بمثابة اقامة اوروبا والغرب لدولة اسرائيل سنة ١٩٤٨ : فأوروبا المسيحية هي التي اقامت اسرائيل اليهودية . ولكن الدين ليس هو القضية ، انما كانت القضية كما تعرف الان سياسية استراتيجية اقتصادية : موقع متقدم للغرب ، في قلب عالمنا ، يتحكمون من خلاله في شئون المنطقة ذات الاهمية الفريدة في العالم .

٢ - ولكن العرب المسلمين ، بعد ان استكانوا زمنا ، ظهرت فيهم روح المقاومة من جديد ، ويبدأ نشاط عماد الدين زنكي وولده نور الدين من مملكة حلب يهدد ممالك اللاتين من الشرق ، واستولوا على بعض اطرافها ، فجاءت الحملة الصليبية الثانية بعد ما يقرب من سبعين سنة . . ارادت ان تحصن ممالكها بالاستيلاء على حلب ففشلت ، وحاصرت دمشق حصارا طويلا ، فلم تقدر على اقتحامها ، ولكن ملك القدس انتهز الفرصة فهجم في اتجاه مصر ، واستولى على عسقلان وتوسع حتى آخر ما عرف بعد ذلك بفلسطين .

وقد الهب هذا شعور المسلمين . وساد الاقتناع بانه بدون تحالف

نور الدين والسنة في حلب ودمشق من جهة ، والفاطميين في مصر من جهة اخرى ، فانه لا يمكن التخلص من هذه الدويلات الدخيلة .

وكانت عبقرية نور الدين انه بدأ التقريب بين العراق وسوريا ومصر . وانه جعل اسد الدين شيركوه السني ليكون وزيرا للحاكم الفاطمي في مصر . فلما مات اسد الدين شيركوه ، خلفه ابن أخيه صلاح الدين الايوبي . واستمر صلاح الدين بعد موت نور الدين ما يقرب من تسعة عشر عاما يؤكد هذه الوحدة ، ويستعد للحرب التي لا مفر منها . . .

كان دهاء صلاح الدين السياسي لا يقل عن عظمته العسكرية التي اشتهر بها . فقد وحد الممالك الاسلامية قدر الامكان . وقلب على الاوروبيين لعبة الايقاع بين اعدائهم فبعد ان كانوا يستعينون بتفريق صفوف المسلمين والتحالف مع بعضهم ضد الآخر ، لعب صلاح الدين نفس اللعبة ضدهم ، واوقع بينهم سياسيا ، مدركا بذلك لحقائق المصالح التي تحركهم . فاوقع بين بيزنطة وروما . واستمال تجار الدول الايطالية بالتجارة المربحة مع مصر .

وفي ٢ أكتوبر ١١٨٧ ، سقطت القدس في يد صلاح الدين الايوبي ، ثم اسرع يكتسح معظم الدويلات اللاتينية . وكما تقول الكتب الغربية « هرب اللاتين الاغنياء وبقي الفقراء . أما اليهود والمسيحيون الارثوذكس فقد عوملوا معاملة حسنة ، وقبلوا بترحاب حكم المسلمين » .

٣ - وأثارت هذه الاحداث اوروبا واستغلت دعائيا لبدء ثالثة الحروب الصليبية ، وأشدها ، اذ جاءت جيوشهم سنة ١١٨٩ ، يقودها

ريتشارد قلب الاسد ، اشهر قادة الحروب الصليبية ، لطول ما دار من سجال حربي وسياسي بينه وبين صلاح الدين الايوبي . حتى كادت تقترن الحروب الصليبية كلها باسم الرجلين ، رغم انها دامت ـ حربا وسلاما ـ عدة قرون .

جاء في الواقع لاول مرة أهم ملوك اوروبا واشهر محاربيها : ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، واوجستين ملك فرنسا ، وفردريك برباروسه ملك المانيا . وقد نجحوا في استرداد عكا وحيفا وقيصرية ويافا . ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة عند ابواب القدس . فبقيت المدينة للمسلمين ولكن بقيت للاوروبيين سائر مملكة القدس .

لقد اسفرت الحرب الثالثة عن تقليص حجم المالك اللاتينية ، ولكنها اعطت هذه المالك ما يقرب من مائة سنة اخرى من العمر ، قبل ان تنقرض وتجلو تماما .

٤ ـ ولأنها ، كما ذكرنا لم تكن مجرد حروب دينية ، ولان الصفة الدينية لهذه الحروب بدأت تشحب لتزداد الاسباب « الاستعمارية » ـ بالقاموس الحديث ـ بروزا ، فاننا نجد الحملات الصليبية التالية تتجه في الشرق العربي الاسلامي وجهات اخرى .

وكانت مصر ـ بعد الدور الذي لعبه فيها صلاح الدين ـ قد صارت القوة الاساسية ، وبالتالي اتجهت محاولات الغزو اليها .

فالحرب الصليبية الرابعة اشرف عليها الكسيوس حاكم بيزنطة لغزو مصر سنة ١٢٠٤ بحجة اخضاع الارثوذكس في مصر للبابا . ولكن الحرب كانت ممولة من مراكز المال والتجارة الكبرى في ثغور ايطاليا وانجلترا وفرنسا .

٥ ـ وفي سنة ١٢١٨ شنت الحملة الصليبية على مصر ايضا ، لحصار دمياط ، بحجة الاستيلاء عليها ، ثم المساومة عليها بتركها في مقابل استرداد القدس ، ودام حصار الصليبيين لدمياط سبعة عشر شهرا . ثم توغلوا محاربين في الدلتا عشرين شهرا اخرى ، ثم انهزموا وانسحبوا من دمياط في ١٢٢١ ، وعادت فلولهم الى عكا .

٦ ـ وبعد سنوات قليلة ، انتهزوا فرصة شدة الخلافات بين ورثة صلاح الدين الايوبي ، والصراع بين الكامل في مصر وابن عمه الناصر في دمشق ، فاستولى فردريك الثاني على القدس دون قتال !! وظلت في ايديهم حتى استردها جيش مصري في فبراير ١٢٢٩ . وبقيت في يد المسلمين العرب منذ ذلك الوقت .

٧ ـ ولم تخمد شهية اوروبا النامية للاستيلاء على هذا الشرق الغني . فقاد لويس التاسع الحملة السابعة على مصر ، واحتل دمياط في ديسمبر ١٢٤٤ ، واندفع محاربا بقصد الوصول الى القاهرة ، ولكنه سقط اسيرا في ايدي جيوش مصر ، وسجن في المنصورة في ابريل ١٢٥٠ ، وبقي في السجن حتى اشترى حريته وحرية قادته بمال كثير ، وانسحب من مصر .

انسحب عائدا الى احدى ممالك اللاتين في فلسطين . وبقي اربع سنوات يحاول الايقاع بين المسلمين العرب ليسترد القدس . وتحالف مع هولاكو حين بدأ خطر الزحف المغولي الرهيب يلقي بظله على المنطقة .

ووصل المغول الى بغداد ودمروها سنة ١٢٥٨ ، ثم اكتسحوا مملكة حلب ، ثم مملكة دمشق . حتى تقدمت جيوش مصر ومعها جيوش سائر العرب المسلمين ودارت معركة عين جالوت التاريخية ، في سبتمبر

١٢٦٠ ، وانتهى بهذه المعركة خطر المغول بأكمله . وزاد ضعف الممالك اللاتينية ، فتقدمت جيوشنا المنتصرة فحررت حيفا وصفد وانطاكية وغيرها .

٨ ـ فلما تحركت الحملة الصليبية الثامنة والاخيرة من فرنسا ، كانت قليلة الثقة ، فاترة القوى ، فبعد أن ابحرت متجهة الى الشرق ، عادت فاتجهت لاحتلال منطقة اقرب . . وهي تونس !

وفي الشرق مضى السلطان قلاوون يحرر ما بقي للصليبيين من ممالك او ثغور . . صور وبيروت وطرطوس وصيدا .

وانتهت تلك الصفحة التي دامت قرونا ، وسميت باسم الحروب الصليبية ، وقد انقرضت ممالك اللاتين المصطنعة ، وعادت البلاد الى اصحابها . وان ظلت مرارة تلك المرحلة في نفوسهم قرونا . . يؤلفون فيها ويعودون اليها ، ويدرسونها في مدارسهم ، من وجهة نظرهم طبعا .

ولكن هل انتهت القضية ، عند هذا التاريخ ؟

. . كلا ، فاننا نعيش صورة جديدة منها في الحاضر .

ومن حقنا أن نضيف الى الحروب الثمانية المسجلة في كتب التاريخ ، حربين اخريين ، ربما تحت نفس العنوان .

في فترة ما ، ظهرت الامبراطورية العثمانية ، التي كانت آخر امبراطورية ضمت تقريبا كل بلاد المسلمين . وكانت الامبراطورية العثمانية بالذات غير ما سبقها من امبراطوريات اسلامية ، فقد قامت على الفتح والقهر ، وكانت تنظر الى البلاد الاسلامية نفسها نظرتها الى « المستعمرات » . كانت في الداخل امبراطورية مستبدة ظالمة

مظلمة ، لم تساهم في الحضارة الاسلامية بشيء ، ولكنها كانت ذات بأس عسكري منظم قوي ، فبعد ان فرغت اوروبا من اخراج مملكة الاسلام المتحضرة المزدهرة من اسبانيا غربا ، اذا بها تواجه ، وبعد هذه الحروب الصليبية كلها ، خطر الغزو الاسلامي او التركي من الشرق ، بعبور الاتراك من آسيا الى اوروبا واحتلال البلقان بأكمله ، والوصول الى حدود امبراطوريات روسيا والنمسا وغيرها .

ومر وقت طويل ، والامبراطورية العثمانية تشيخ ، والعالم الاسلامي العربي يتدهور ويتحلل وتسدل عليه ستائر الظلم والاظلام . هذا بينما بدأت مستعمرات اخرى بعيدة ، وعصر الصناعة في اعقابه يغذيه ويقويه .

صارت اوروبا اقوى قوة في العالم ، هي سيدة المال . وسيدة التجارة ، وسيدة الصناعة . وسيدة البحار .

ولقد وصلت قوتها وحضارتها الى الهند واستراليا شرقا والى اقصى اطراف امريكا وامريكا الجنوبية غربا وجنوبا .

ولكن الجوهرة الثمينة ، الشرق العربي ، لم تفارق خيالها . وحفر قناة السويس زاد من أهميتها . ومن هنا يمكن القول ان « الحرب الصليبية » التاسعة بدأت منذ انحلال الامبراطورية التركية اذ بدأت انجلترا وفرنسا وروسيا تدعي كل منها حقا في حماية اقلية من أقليات العالم العربي ، انتحالا لاسباب التسلل والتدخل ، ثم صراع انجلترا وفرنسا على مصر ، وفوز انجلترا بمصر وبقناة السويس باحتلالها مصر ، الامر الذي لم تقو عليه الحملات الصليبية كلها . . ثم الحرب العالمية الاولى ، وخداع الانجليز للثورة العربية ، واتفاقية سايكس - بيكو التي قسموا بها العالم العربي سرا بينهم ، ووعد بلفور

لليهود بوطن قومي في فلسطين . .

هـذه السلسلة من الاحداث القريبـة ، والتـي استغرقـت في مجموعها ما يقرب من قرن من الزمان ، وتوجت بدخول لورد اللنبي القدس ، ودخول الجنرال غورو دمشق ، تكوّن في مجموعها ما يمكن ان نسـميه ـ استنـادا الى التاريخ الـذي سردنـاه ـ الحـرب الصـليبية التاسعة . وهي اول حرب تحقق اغراضها كاملة منذ اندحـرت آخـر ممالك الصليبيين في الشرق قبل ذلك بحوالى ستة قرون . .

طبعا ، كثير من الظروف تغيرت ، والأفكار الدينية لم تعد هي الحافز في اوروبـا بل صارت المصالـح الاقتصـادية والسياسية هي الاساس السافر لكل شيء . ولكن عندما دخل الجنرال غورو ، قائد الحملة الفرنسية في الحرب العالمية الاولى ، دمشق ، ووقف امام قبر صلاح الدين الايوبي ، لم ينس ان يقول كلمته الشهيرة : « هـا قد عدنا . . يا صلاح الدين ! » . .

فالجنرال غورو ، حين نطق لسانه بهذه الكلمة وهو يقف امام قبر صلاح الدين ، كان يعـرف طبعـا أنه جاء غازيا لاستعمار الشرق ، ولكن غلب عليه ما تعلمه في المدرسة ، وما وراءه من تراث ، فخفق قلبه ونطق لسانه بما طاف بخاطره في تلك اللحظة . وسواء قالها بالمعنى الديني ، او بالمعنى العسكري ، او بالمعنى الحضاري ، فلا شك أن العناصر الثلاثة كانت متداخلة وهو يقول هذه الكلمة ، وان تغلب فيها عنصر على آخر .

دام هذا النظام الذي اسفرت عنه الحرب التي اسميناها بالحرب التاسعة ، دام هذا النظام من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٤٨ . .

كانت هناك حركات وانتفاضات . وشبت ثورات شتى في هذا القطر العربي او ذاك . ولكن كل هذه التحديات والثورات والانتفاضات لم تغير كثيرا من وضع المستعمرين الانجليز والفرنسيين وفي خضوع السلطات المحلية لحكمهم .

على أن الحرب العالمية الثانية غيرت الظروف الدولية تغييرا عميقا .

لقد ظهر الاتحاد السوفيتي والمعسكر الشرقي ممتدا الى منتصف اوروبا بالضبط ، ومهددا ما عرف باسم « الحضارة الغربية المسيحية » او المعسكر الغربي ، الذي انضمت اليه وتولت زعامته الولايات المتحدة . .

وشبت حركات التحرر في العالم ، وقامت الثورات ، وشعرت اوروبا بالنسبة للشرق ان وجودها فيه مهدد بالزوال ، وان المسألة مسألة وقت . .

وكان هذا الشعور قديما ، منذ احتلوا الشرق سنة ١٩١٩. ففي وثائق مؤتمر فرساي بعد الحرب العالمية الاولى مذكرة ينصح الانجليز فيها امريكا بالموافقة على فكرة اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، لان وجود مثل هذا الوطن (على نمط الممالك اللاتينية القديمة) له صفة قابلة للدوام ، وسوف يكون خير وسيلة لحماية قناة السويس لحساب الغرب .

فهي نفس فكرة اقامة دولة في قلب الشرق تحرس مصالحهم ويمسكون منها بخناق العالم العربي .

نفس ما ترجمه وزير الطيران الامريكي السابق سمنجتون حين

وصف اسرائيل بأنها بمثابة « حاملة طائرات غير قابلة للغرق » .

لقد وجدوا فى ظهور الدعوة الصهيونية وسيلة مواتية ، لانهم صاروا في عصر لم يعد ممكنا ان يقنعوا فيه شعوبهم بحمل الصليب والذهاب تحت اسم الحروب المقدسة . والقدس مفتوحة للحجاج اليها من كل مكان . والحروب الدينية لم تعد مقبولة . ولكن ها هو مجتمع افرزته اوروبا ، وان كانت قد اضطهدته اوروبا . ولديه حافز قوي للرجوع الى مملكة القدس القديمة ، فالفرصة سانحة لاقامة قاعدة غربية في قلب الشرق .

لقد ذبحوا اليهود في القدس ومنعوهم من الاقامة فيها قبل قرون . وقد اضطهدوا اليهود في بلادهم الاوروبية بشتى انواع الاضطهاد ، ولكنهم الان صاروا يرون في اقامة دولة يهودية دينية ، هدفا اساسيا وساميا !!

وقد تزايدت أهمية المنطقة بسوقها التجارية الضخمة ، وبموقعها الاستراتيجي الخطير ، خصوصا بعد ظهور الاتحاد السوفيتي في الشرق ، وفوق كل هذا طبعا ، البترول ، الذي لو انتقل من يد الى يد ـ كما قال كيسنجر صراحة ـ لانقلبت كل موازين القوة في العالم .

هكذا ، تضافرت العوامل لبدء الحرب العاشرة . .

الحرب العاشرة التي بدأت منذ اقامة دولة اسرائيل سنة ١٩٤٨ وما زالت مستمرة الى الان . . وستستمر زمنا آخر طويلا !

أننا لم نتحدث عن الحروب الثمانية المسجلة في كتب التاريخ الا بايجاز . وقد كان بعضها قصير العمر ، وبعضها كان طويلا ، استغرق اجيالا ، وشمل عدة حروب فى حقبة واحدة او مواجهة متصلة

واحدة . .

بهذا المعنى نقول اننا منذ سنة ١٩٤٨، ونحن في الحرب العاشرة .

لقد حاربت اسرائيل العرب عدة مرات : حرب١٩٤٨ـ حرب ١٩٥٦ـ حرب١٩٦٧ـ حرب اكتوبر١٩٧٣ .

كانت لكل حرب ظروفها وملابساتها . وهزم العرب فيها جميعا ، عدا حرب١٩٧٣ . ولكن يجمع بينها صفات اخرى كثيرة . فكلها كان بتأييد ساحق ـ علني او سري ـ من الغرب ، وكلها كان فيه الخصوم يستفيدون من الخلافات العربية . وكانت كلها تستهدف توسيع رقعة اسرائيل وفرض وجودها على العرب بالقوة .

وقد كانت تتخلل هذا كله لحظات من السلم المسلح ، او الهدنة ، او اللاحرب واللاسلم ، ولكنها حين ننظر الى مجموعها نجدها حربا واحدة في فصول ووقفات كثيرة .

وآخر معركة من معاركها ـ الى الآن ـ الحرب الاهلية في لبنان . .

صحيح أن هناك تناقضات عربية كثيرة . وصحيح أن هناك بعد ذلك تناقضات لبنانية فلسطينية ، ثم تناقضات لبنانية بحتة .

ولكن الذي لا شك فيه أمران : الامر الاول ، ان هذه الحرب الاهلية سببها الاول وجود اسرائيل ، وطردها للشعب الفلسطيني ، ورفضها حتى الاعتراف بوجوده ، ومحاولتها المستمرة لعرقلة اي جهد سلمي ، مع الاستمرار في سياسة تهويد ما غزته من اراضي دول عربية اخرى ، وهذا كله يخلق توترات على الجانب الآخر من الحدود ، انفجرت مرة في الاردن ، وانفجرت مرة اخرى في لبنان .

الامر الثاني ، ان هناك أيادي اجنبية ـ اسرائيل ؟ امريكا ؟ . . قوى اخرى ؟ لعبت دورا في اطالة تلك الحرب الأهلية البشعة في لبنان ، وان هناك من تعمّدوا تلوينها باللون الديني ، اذكاء للروح الصليبية القديمة في الغرب ، وهناك من فكروا في التقسيم ، بمنطق ما سبق حدوثه في ظروف سابقة كثيرة وعلى ضوء نجاح اسرائيل الى الان .

وربما كان من أكبر الاخطار ، التي وقع فيها العقل العربي العام ، بعد نكبة١٩٤٨ ، انهم كانوا يفكرون دائما في الصراع العربي الاسرائيلي ، بمنطق قصير الاجل . في حين اننا لو كنا تأملنا الامر في اطاره التاريخي الطويل ، ومن منظور الاهداف السياسية والاقتصادية لشتى القوى في عالم اليوم . . لادركنا أنه احد تلك المواجهات الحضارية الطويلة التي تأخذ اشكالا شتى من الحرب ومن السلم ومن النضال العسكري والسياسي ومن السباق في ساحة التقدم والتفوق ، ومن نجاح في ضم شتات الامة العربية تحت حد ادنى من التكافل والتكامل والتنسيق . .

وانني لاسمح لنفسي بأن أقول انني حين كتبت قبل حرب ١٩٦٧ـ حوالى سنة١٩٦٥ تقريبا ـ انه لا يوجد حل سحري للصراع ولا معركة واحدة تنهي المشكلة ، لان الصراع ليس مع اسرائيل وحدها ، ولكنه صراع حضاري طويل ستتخلله احداث طويلة ومريرة ، وامتحانات سوف ننجح او نرسب فيها . . هاجم الكثيرون قولي هذا ، ولكن يخيل لي ان الاقتناع بأن المواجهة الحضارية طويلة ، وان العالم العربي « مستهدف » ـ بفتح الدال ـ من قوى عالمية كثيرة ، ولاسباب معقدة ، اقول ان هذا الاقتناع فيما اظن بدأ يتسع .

هذا على الاقل هو فهمي للقضية الفلسطينية .

وهو فهمي للمأساة اللبنانية . . وما كشفت عنه من مآس عربية .

فلو كانت البلاد العربية متفاهمة ، لما حدث ما حدث في لبنان . ولو تعلمت انها اذا اختلفت فهناك لحظات يتجمعون فيها خارج خلافاتهم لما حدث ما حدث في لبنان .

ولعل هذا الكلام يصدم الكثيرين . .

ولكن الدواء « المنبه » في هذه الأمور ، خير من الدواء « المنوم » على اي حال !

•••

هذه بعض الحقائق الأولية التي يجب أن يعرفها كل مسلم حتى ولو لم يكن متدينا ويعرفها كل مسيحي شرقي يصاب بما يصاب به المسلمون في اوطانهم ، لأن هدف الغرب ليس مجرد الدين وحده ، بل البلاد الاسلامية بخيراتها وكل سكانها ، والمسلمون على الأخص ، ليضعفهم ويمتصهم ، باعتبار أن قوة الدين في قوة المعتنقين له . . . والمتمسكين به . . وباعتبار ان المسلمين قوة لها خصائصها ، وهم لا يحبون ان يخضعوا لقوة اخرى تتحكم فيهم ،على ان الذي ينزل بالمسلمين في دولهم ينزل بالتالي على المسيحيين الشرقيين من أهل هذه الدول ، وينعكس عليهم ، مما جعلهم ويجعلهم يقفون صفا واحدا مع المسلمين ، ضد هذا التهجم الغربي وأعود فأقول : ليس هدفي من وضع هذه الحقائق أمام كل مسلم ، أن أثير في نفسه روح التعصب الأعمى - كما قلت من قبل - بل روح الحذر واليقظة ، وفهم الأمور على حقيقتها دون انخداع بأي قول معسول ، أومظهر براق ، أو اتهام مكذوب مغرض .

[سلاح يستعملونه]

فقد دأب الغرب على رمينا بالتعصب ، كلما رأى فينا يقظة دينية ، وإخلاصا لمبادئنا ، وهو على حد المثل العربي القائل : « رمتني بدائها وانسلت » ، فهو يشهر علينا سلاح هذا الاتهام ليثبط من عزمنا ، ويبعدنا عن التمسك الطبيعي بديننا ، ويجعل أمرنا فرطا . . وتتعرى بذلك أمامه فريسته ،وينفذ مخططاته فيها !!

ومع الأسف نراه قد نجح الى حد كبير ، ونال سلاحه هذا من نفوسنا كثيرا ، حتى أصبحنا نهاب من مجرد الصلاة ، في مكان عام غير المسجد ، وغير البيت ، حتى لا نرمى بالتعصب ! ، ونخاف من مجرد اعلان الحرص على ديننا وتعاليمنا ، حتى لا نرمى بالتعصب !! ، بل أخذ بعضنا يرمي بعضا منا ، متمسكا بدينه ، بالتعصب ! ، وأصبحنا نهاب ذكر كلمة الاسلام ، أو وصف شيء بوصفه الحقيقي وأنه إسلامي !! خوفا من أن نرمى بالتعصب !! بل أصبح البعض من شبابنا وشاباتنا ، بل ورجالنا الكبار ، يتظاهرون بعدم التمسك بدينهم وتعاليمه ، حتى لا يقال عنهم إنهم متعصبون !!

تافه خاسر ، كل مسلم لا يعتز بدينه ، بعد ان ضعفنا امام هذا السلاح أو هذا الاتهام المكذوب المغرض ، سلاح التعصب ورمينا به ، حتى نجح الغرب في ذلك إلى حد بعيد ، وهو من أسلحته السلمية الاشعاعية التي يستعملها لتحطيمنا ، ونزع روحنا الدينية من نفوسنا ، أو نزع كل مقاومة فينا أمامه ، وأمام مخططاته .

يجب أن يعرف كل مسلم هذا ، ويعرف نوعية السلاح الذي يحاربوننا به ، وأنه سلاح « فيشك » من النوع الذي يطلق صوتا

للإرهاب . . فلا ينزعج المسلم ولا يهتز ، فإن الإنسان الثابت غير المهتز يحترمه الناس حتى خصومه بل وحتى الذي أراد أن يزعجه ويرعبه يضطر لاحترامه ، ولا يكن المسلم كأولئك السذج المغفلين ، الذين يقعون فريسة سهلة ، في أيدي النصابين والمحتالين ، بمجرد أن يقولوا لهم : « مباحث » ، ثم يسلبوهم ما يملكون . . وليثق بنفسه وبربه وبدينه وتعاليمه كل الثقة ، ويقف مرفوع الرأس ، مباهيا بأنه إنسان يحترم دينه ، وتعاليمه ، وأن شخصيته مرتبطة بدينه ، ولا يفرط فيها ، ولا في دينه ، لان دينه دين التسامح والتقدم ، ومبادئه في ذلك معروفة ، وتاريخه معروف ، وليس من التعصب بل من الطبيعي جدا أن يحترم الانسان دينه ، ويحترم نفسه وشخصيته ، بل إن التحلل من الدين هو الضياع والانهيار ، ونحن لم نقل ولن نقول ولا يصح أن يقال عن إنسان يحترم دينه ، ويعمل بتعاليمه ، إنه إنسان متعصب ، بل نحترمه ، لأنه يحترم ما يؤمن به ، حتى ولو كان ضدنا .

فليس من المقبول عقلا ومنطقا ، أن يرمى بالتعصب أي انسان يحترم مبادئه الدينية ، ويعمل بمقتضاها .

فإتهام الغرب لنا بالتعصب ، كلما رأى فينا تمسكا بديننا ، اتهام يتبرأ منه الحق ، والعقل والخلق ، والطبائع السليمة ، ولا يستعمل أي انسان هذا السلاح ضدنا ، إلا إذا كان له غرض ملتو خبيث ، يريد الوصول إليه ، كأغراض النصابين المحتالين ، ذوي الأعمال العدوانية ، حين « يهوشون » السذج بسلاح فارغ يشهرونه عليهم ، أو كلمة «مباحث أو بوليس » ، يطلقونها في وجوههم ؛ ليرتعدوا ويستسلموا ، ويسلموا ما لديهم للنصابين المحتالين . .

ولسنا سذجا ولا مغفلين ، ولا ضائعي الشخصية منحلين ،

ولسنا اطفالا يخوفوننا بهذا « البعبع » ، ويضحكون علينا !!

[مبعث التقدير والاعجاب]

ولعلنا سمعنا من فضائل كارتر : أنه إنسان مسيحي ـ متدين ، واحترمته بلاده ، واحترمه العالم ، ولم يتنقص منه أحد لأنه متدين ، بل العكس ، ولعلنا أيضا قرأنا كثيرا ، ولمسنا أن إسرائيل ، دولة قامت على أساس ديني ، وأن زعماءها ورؤساءها ، يباهون بذلك أمام العالم ، ويتمسكون بتعاليم دينهم ، إلى درجة أنهم حتى في اعتداءهم الظالم على أرض العرب ، يقولون : إن هذه أرضنا بنصوص التوراة !! وقد حتموا على طائراتهم وبواخرهم ألا تقدم من الطعام إلا الطعام اليهودي الذي يقره دينهم « كاشير » ، وكان « بن جوريون » يفخر ويتباهى بأنه شديد الحرص على تعاليم نبيه ـ كما يقولون هناك ـ : النبي أشعيا ، ويتمثل دائما بها ، وكلما ضيق العالم عليهم الخناق في المحافل الدولية ، تخلصوا بأنهم يفعلون ذلك ، اتباعا للتوراة . . الخ !! وما رأينا احدا في العالم يتنقصهم ويعيبهم ، أو يرميهم بالتأخر والرجعية لتمسكهم بدينهم . . بل يظفرون من المحافل الدولية ، ومن العالم بما عرفنا ونعرف . . فكيف يخشى مسلم أن يرميه الغرب بالتعصب أو الرجعية ـ لحاجة في نفس يعقوب ـ فيتنازل عن اهم مقوماته ، وأعز ما لديه ، ويتهاون في ذخيرته في هذه الحياة وفيما بعدها ، وهو دينه ـ ؟

ألا إنها عقدة النقص التي زرعها الغرب في نفوسنا . . وقد آن الاوان ، بل فات الاوان ، الذي يجب علينا فيه أن نعثر على أنفسنا ، ونسترد كرامتنا ، ونعتز بشخصيتنا ، ونتخلص نهائيا من هذه العقدة .

ألا فلتقولوا للغرب الذي يرميكم بالتعصب ، ويخوفكم به ، إنك أنت المتعصب ، وهذه هي دلائل تعصبك على مر التاريخ ، ولتحذروا أن ينال منكم ، ومن شخصيتكم الاسلامية ، أي متعصب ، متربص بكم ، وبأمتكم ، عن هذا الطريق ، وبهذا السلاح . . وكونوا مسلمين في خلقكم ، وقيمكم ، وعزة نفوسكم ، واعتزازكم بدينكم ، فلا كرامة لمن فرط في دينه ـ أعز شيء لديه .

وبمناسبة ما ذكرته عن اسرائيل من قبل ، رأيت أن أضع أمامك مزيدا في هذه الناحية ، وهو مقال كتبته في افتتاحية العدد٣٨ ـ غرة صفر سنة١٣٨٨ هـ ـ ابريل سنة ١٩٦٨ ، من مجلة الوعي الاسلامي تعليقا على ما نشرته مجلة « الحوادث » اللبنانية في ذلك الوقت سقته وأسوقه الآن للاعتبار .

أخي القارىء

كتبت مجلة « الحوادث » اللبنانية تقول : ان الحاخام الاكبر في اسرائيل منع زواج بنت رئيس الوزراء السابق (بن جوريون) من ضابط يهودي . . وذلك لأن أمها كانت مسيحية وتهودت ، ولكنها لم تثبت يهوديتها . وقدم بن جوريون شهادات تثبت أنها تهودت عند زواجه بها منذ (٢٥) عاما في بريطانيا ، ولكن الحاخام لم يعترف بهذا ، وفشلت كل الجهود التي بذلها رئيس الوزراء السابق وأنصاره وكبار المسؤولين لتسهيل الاجراءات ، فلم تجد زوجة بن جوريون وابنته بدا من الانصياع ، وتقديم طلب اشهار يهوديتها وللحاخام أن يقبل الطلب أو يرفضه بعد ذلك . .

■ خبر له معان متعددة يهمنا منها :

١ ـ ان الحاخام وقف في وجه تيار رئيس الوزراء السابق وأنصاره وكبار المسؤولين ، وتمسك بوجهة نظره الدينية ، ورفض كل الشهادات التي قدمت له ، وكان من الممكن أن يعتمدها ويجامل ، ولكنه أبى . .

٢ ـ أن رئيس الوزراء السابق اضطر للخضوع لرأي الحاخام الاكبر ، وتنفيذ ما يراه من وجهة نظره الدينية ، دون أن يتطاول عليه ويرميه بالجمود والتأخر وغير ذلك من الالفاظ المشابهة !!! .

ومعنى هذا وذاك كما قالت المجلة « أن الحاخام يتمتع بنفوذ سياسي (وصحته ديني) قوى أكثر بكثير مما تتمتع به أية شخصية دينية في العالم » .

وهذا معنى واضح من الخبر . وقد عللت المجلة لهذا النفوذ فقالت : « لأن مثل هذا النفوذ هو جزء سياسي ضروري في الحركة الصهيونية لتعبئة اليهود ، سواء لتلبية نداء الهجرة أو لغير ذلك من القضايا » .

وأضيف الى هذا أن الدولة كلها تقوم على أساس ديني ، وكل حركة فيها تنبعث أصلا من العقيدة الدينية ، وهذا هو السر في هذا التجمع الغريب من نوعه على أرض اسرائيل : وطن يضم أشتاتا لا تلتقي في جنس ، ولا لغة ، ولا ثقافة ، ولا منبت ، يعني كل أسباب التفرقة والتشتت متوفرة بينها ، لكنها مع هذا متآلفة متعاونة بصورة غريبة .

وسبب ذلك شيء واحد . هو : العقيدة الدينية التي جمعتهم ،

وحملتهم على أن يتركوا رفاهية أوروبا وأمريكا ليعيشوا في صحراء النقب ، وفي أماكن لم يطرقها انسان من آلاف السنين .

ونحن لا ندهش لهذا كما يدهش بعض الناس ، فقد عرفنا ما فعلته العقيدة الدينية في نفوس العرب ، حين جاء الاسلام ، فقاموا بما يشبه المعجزات .

ولكننا نندهش لأننا ـ مع هذه الشواهد من الماضي والحاضر على ما تفعله العقيدة ـ نجد بعض الناس يحملون ـ لحاجة في نفوسهم ـ على مجتمع يقوم على العقيدة الدينية ، وبعض آخر يخشى أن يعلن تمسكه بدينه ، خوفا من أن يتهم بأنه غير عصري ، وغير متمدن !! في الوقت الذي نجد فيه دولا تقوم على عقيدة لا دينية ، وتجعل ذلك أساس وجودها وبرنامج عملها . . وتجد (دلاديل) لها في كل مكان حتى من بين المسلمين ـ مع الأسف الشديد !!

وهؤلاء المسلمون بشهادة الميلاد ، هم أشد الناس تحمسا لمهاجمة قيام دولة على أساس من العقيدة الاسلامية ، بحجة أن ذلك تعصب ديني لا يليق بالقرن العشرين !! في الوقت الذي يدينون فيه بعقيدة يتفانون في العمل لها ، وينسون دينهم وأصولهم وتاريخهم ويتنكرون لكل ذلك من أجلها !!

وسبب تحمسهم هذا مفهوم ، لأن قيام المجتمع على أساس التعاليم الدينية سيجعله ينفض كل خبث يأتي من الشرق أو الغرب . وليس ذلك من صالحهم !

أرأيت ـ أخي المسلم ـ في كل مكان هذه اللعبة التي يخوفونك بها : التعصب ؟! ويريدون أن يحملوك باسمها على التنصل من

ولائك لدينك وأمجادك ، والتجرد من العقيدة الكريمة التي تصلك بخالقك ، وتوفر لك القوة والعزة ، في الوقت الذي يدينون هم فيه بالولاء لغير ربهم وغير أرضهم وتاريخهم وأمجادهم !!

وهذه اسرائيل قامت على أساس ديني مستمد كله من التوراة . . اللغة العبرية التي كانت من الاثريات بعثوها ، لأنها لغة دينهم . والاسماء العبرية للأماكن كما جاءت في التوراة أطلقوها . . والخطوات التي رسمتها التوراة ، والتوجيهات التي جاءت بها ، كل ذلك يتمسكون به ، ويسيرون على هديه . . وقد ذكرت لك في عدد سابق ما صرح به بن جوريون نفسه : (من أن الأماكن التي ذكرتها التوراة لا بد أن يحصلوا عليها ويحتلوها) . لم نجد منهم واحدا يخجل من الاعلان عن نفسه بأنه يتبع التوراة ، ولم نجد الدولة نفسها تتحاشى ذلك ، بل ان زعماءها وقادتها يعلنونه ، ويفخرون أمام العالم كله به . .

لم يعملوا حسابا لأحد يتهمهم بأنهم : متعصبون دينيون ، أو غير عصريين .

ولم يحجموا عن اعلان تمسكهم بدينهم،خوفا من أن يقال عنهم: متأخرون !!

بل مضوا في سبيلهم ، وجمعوا اليهود من أنحاء العالم بسلاح الدين والعقيدة . . وساروا جميعا في الطريق باسم اعادة أمجادهم وتاريخهم القديم ، وأرضهم ـ أرض الميعاد ـ !! وأقبلوا على العلم والتبحر فيه ، والتخصص في كل فروعه ، وسبقونا وسبقوا الكثيرين في العلم والاختراعات و« التكنولوجيا » فلم تعقهم عقيدتهم التي

يتمسكون بها عن ميدان السبق في العلم والصناعة . .

فهل وجدنا في العالم كله من يخاصمهم ، لأنهم اقاموا دولتهم على أساس ديني ، وساروا على هدى من كتابهم المقدس ؟! لا . .

حتى الذين كان المفروض فيهم ألا يلتقوا معهم ، لما فعلوه بعيسى عليه السلام ـ تلاقوا معهم ، وكانوا ـ ولا يزالون ـ أكبر عون لهم علينا !!

ولو كان الاسلام حقيقة دين تأخر وجمود ـ كما يزعمون ـ لكان لهؤلاء الذين يخشون احياء تعاليمه أو الذين ينفرون أو ينفرون الناس منه عذرهم !!

ولكن الاسلام بعقيدته وتعاليمه أكبر دافع على التقدم والنبوغ ، في كل جانب تعرفه البشرية . .

فان كنا نريد حرية فالاسلام أبو الحرية بمعناها الحقيقي لا بمعناها المصطنع الذي نراه في عالمنا الآن . .

وان كنا نريد عدالة اجتماعية فالاسلام قد سبق بتحقيقها منذ اربعة عشر قرنا ، على صورة لا يزال العالم بأفكاره قاصرا حتى عن القرب من ظلالها .

وان كنا نريد كرامة ، فالاسلام هو الذي حقق ويحقق اسمى معاني الكرامة للانسان . .

وان كنا نريد قوة وعزة ، فالاسلام دين القوة والعزة .

وان كنا نريد علما ، فالاسلام هو الدين الحي الذي يقوم على العقل ، ويحرص على التبحر في كل علم .

ولا أريد هنا أن ألجأ الى شواهد لذلك كله فقد تكفلت الكتب به ، وأصبح امرا معروفا حتى لدى المنصفين من علماء الغرب .

ولكني أريد أن أذكر فقط شاهدا واحدا من القرآن ، ذلك هو الامر الذي وجهه الله لنا في قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ .

هذا الامر وحده كاف لأن يقيم أقوى دولة وأعزها ، على أحدث طريقة عصرية في أي مكان واي زمان . .

فهو يوجب على المسلمين أن تكون في أيديهم أكبر قوة في العالم ترهب ولا ترهب ، تخيف ولا تخاف ، بحيث يكون لهم النفوذ الاول والاعلى في هذا العالم ، دون استغلال هذه القوة طبعا في الاعتداء والصلف ، لأن الله لا يحب المعتدين .

فهل يمكن تحقيق أمر الله هذا الآن مثلا ، دون أن يكون المسلمون أسبق الناس وصولا للقمر ، وأقواهم علما واختراعا وصناعة واقتصادا وخلقا ؟ أو بمعنى جامع أقوى الناس في كل جانب من جوانب الحياة ؟

وهذا أمر واجب التنفيذ لا مجرد اشارة من بعيد . .

آية واحدة يمكن ان نجعلها شعارا لأقوى دولة في العالم ، ومنارا لها الى هذه القوة . .

فالاسلام ـ اذن ـ لا يقبل تلك الافتراءات التي يوجهها اليه بعض ابنائه ، من أنه دين تأخر أو جمود . . الخ . .

وليس لمسلم أي مسلم العذر في بعده عن الاسلام . .

ولقد ظل المسلمون عشرات أو مئات السنين يعيشون كالايتام على مآدب اللئام . مآدب الغرب والشرق . وهم وجلون من الاقبال على دينهم ، متجهون الى غيره ، فما الذي استفادوه طوال هذه السنين ؟ .

وهذه اسرائيل تعلن وتفخر بأنها دولة دينية ، تقوم على أساس التوراة وتعاليمها . . فما الذي ضرها ؟ .

وهذا هو الحاخام الاكبر فيها يتمتع بسلطة دينية لا تتمتع بها أية شخصية دينية في العالم . والدولة نفسها هي التي تساعده على هذا وتخضع له . . لأنها في حاجة فعلا الى سلطة دينية تساندها وتستنفر كل القوى لمؤازرتها . . فهل خسرت شيئا بتدعيم النفوذ الديني فيها ؟ .

ان الروح الدينية هي أكبر حافز على النهوض ومجابهة الاخطار ، ولقد عرفت اسرائيل كيف تستفيد منها ، وتستغلها في السطو على أرضنا ، وفي تثبيت أقدامها على بطوننا ، كما عرفت كيف تستفيد من بعدنا عن ديننا ، ومما نرتكبه من أخطاء وحماقات واختلافات !!

ومن قبل استطاع المسلمون أن يهزموا جحافل الغرب التي هاجمتهم باسم العقيدة ، ويطهروا بلادهم منها ، لأنهم قابلوا العقيدة بالعقيدة ، وكان هتافهم : الله أكبر . . وفي مقدمتهم قائدهم يصيح : وا اسلاماه . .

وقد ذكرت مجلة (الحوادث) أيضا أن هذا الحاخام هو الذي أصدر الفتوى التي تقول : ان كل يهودي يقبل اخلاء شبر واحد من الاراضي المحتلة ـ الأراضي العربية ـ يعتبر كافرا ، لأن هذه الاراضي المحتلة تقع جميعها في أرض الميعاد ، ولا يملك أي يهودي حق تسليم

ذرة واحدة من هذه الاراضي ، الا اذا كان كافرا » .

« وكانت هذه الفتوى هي السبب في أن 94 في المائة من الاسرائيليين عارضوا الانسحاب في آخر احصاء بين الرأي العام ، وكانت هذه النسبة أقل بكثير قبل أن يصدر الحاخام الاكبر فتواه هذه » .

أرأيت كيف يتغلغل النفوذ الديني في نفوسهم ، وكيف يتقبلونه ؟

كل شيء هناك يقوم على أساس الدين : الهجرة من بلاد الرفاهية الى الشظف في اسرائيل باسم الدين ، والعمل باسم الدين . والعطلة باسم الدين ، والحرب باسم الدين ، حتى الاعتداء الوحشي يرتكبونه باسم الدين ! !

ومع ذلك لم يتهيبوا أن يعلنوا ولاءهم لدينهم ، ولم يدمغهم أحد بتأخر ، ولم يخاصمهم لأنهم يعملون بدينهم . . ! !

ونحن نتهيب ، أو نتهرب ، أو نتنكر ، أو نتهجم ، وننتظر مع ذلك النصر من الله . .

ونسينا الوعد الصادق ، والقول الحاسم : « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز » . والله لا يخلف الميعاد .

ترى : إلى أين نسير ؟

ربي . ان الهدى هداك . .

وأريد ـ أخي القارىء ـ أن أزيدك إيمانا وتشبثا بدينك ، وإيمانك ، في كل مواقفك ، هنا أو هناك ، وفي كل خطواتك في الحياة وفي اعتزاز وشموخ . ودون أية حساسية ، تمليها عقدة النقص فينا ،

وخوفنا من أن نرمي بالتأخر والرجعية ، وأقدم إليك معلومات اخرى كتبها غيري عن اسرائيل ، وقيامها على أساس ديني ، وتمسكها بدينها وتوراتها في كل خطواتها ، وإعلانها ذلك على الملأ ، دون أية حساسية فيهم بل بمباهاة ، ولست اقل ـ من الاسرائيليين ـ إيمانا . ولا تطلعا للنصر ، أو لحياة أفضل وأكثر رجولة واشد اعتزازا بدينك ومقوماتك . .

أقدم إليك هنا ما كتبه الدكتور عبدالوهاب المسيري في الاهرام بتاريخ٢٧/ ١١ / ١٩٧٣ثم ما كتبه الاستاذ أنيس منصور في « أخبار اليوم » في ١٤ ذي القعدة سنة ١٣٩٣هـ ـ ٨ ديسمبر سنة١٩٧٣م . . « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » . .

فمما جاء في مقال الدكتور المسيري :

تقول احدى الاساطير اليهودية القديمة ان السيف والتوراة نزلا من السماء ملفوفين معا ، وتقول احدى الصلوات اليهودية :

فلتحل البركة على اله القوة الذي يدرب يداي على الحرب واصابعي على القتال » . وهكذا نكتشف ان الروح الدينية تمتزج بروح العنف الدموي في العقل الصهيوني / الاسرائيلي .

ولعل الجيش الاسرائيلي هو خير تجسيد لهذا المزيج الشاذ ، فكل جيوش العالم ـ كما نعلم ـ تقوم بمناورات عسكرية يتعلم فيها الجنود فنون القتل والقتال « اما الجانب الروحي لوجودنا الانساني فننميه في المنزل او المسجد او الكنيسة » ولكن الجيش الاسرائيلي خروجا على ممارسات الجنس البشري يقوم « بمناورات روحية » تدوم زهاء شهر ونصف يتدارس فيها الجنود التوراة والتراث اليهردي ، وتنتهي هذه

المناورات يوم عيد الكفارة ، وكان المفروض ان تنتهي مناورات هذا العام عند غروب شمس يوم ٦ اكتوبر ، ويبدو ان الجيش المصري قد ساهم في انهاء هذه المناورات الروحية قبل موعدها المحددة بعدة ساعات .

وتحمل كل وحدة من وحدات الجيش الاسرائيلي صندوقا توضع فيه التوراة نقشت عليه هذه العبارة : « انهض بالله ودع أعداءك يتشتتون واجعل الذين يكرهونك يهربون أمامك » وهذا التقليد بعث لتقليد ديني قديم حينما كان بنو اسرائيل يسيرون يحملون « تابوت العهد » او التابوت الذي كانوا يتصورون أن روح الله تحل فيه ، تسير معهم اينما ساروا تهدي خطاهم وتحارب معهم وتهديهم سواء السبيل « ويجب التنويه الى ان المصادر التي استقيت منها المعلومات السابقة هي مصادر اسرائيلية وليست معادية للسامية ! » .

والقادة الاسرائيليون مولعون باقتباس التوراة لتأييد غزواتهم وفتوحاتهم وعنفهم فالجولان قد فتحت لان « القضاة » اليهود قد حكموا هناك كما يرى ديان ، اما الضفة الغربية فلا بد وان تظل جزءا من الوطن اليهودي لان هذا جزء من التصور التوراتي كما يرى مناحم بيجين ، اما بن جوريون فقد اراحنا واراح نفسه حينما صرح بان الجيش الاسرائيلي هو خير مفسر للتوراة .

ومما جاء في مقال الاستاذ الكبير أنيس منصور ، وهو يعلق على كتاب بن جوريون « ذكريات » قوله :

« ففي كتابه « ذكريات » يتساءل بن جوريون : ما الذي أبقى على الشعب اليهودي حتى الآن ، رغم الطرد والتشريد والتعذيب

والاحتقار والهوان في كل بلد وفي كل زمن ؟

يجيب بن جوريون : لم يكن اليهود شعبا كبيرا في أي وقت . ولن يكونوا شعبا كبيرا في أي زمن . . ولكن رغم ما لقوا من عذاب في كل عصر فقد استطاعوا البقاء . وسبب هذا البقاء هو تمسكهم بالتوراة . ولولا هذا التمسك الشديد بهذا الكتاب ، لجاء اليهود في هوامش كتب التاريخ . .

ولا يتعب بن غوريون من التساؤل : كيف استطاع اليهود ان يظلوا على قيد الحياة حتى الآن ؟

ويجيب لانهم تمسكوا بالتلمود فالتلمود وطن ودين . واذا تفرقت بهم الارض فالتلمود يجمعهم . واذا تفرقت بهم الألوان واللغات فالصلوات وأحلام اجدادهم هي المأوى الوحيد لهم . . ولا يمكن أن يبقى شعب ـ أي شعب ـ اذا لم يكن له دين . واذا لم يكن هذا الدين هو المخبأ والملجأ في وجه عواصف الزمن .

ولما سئل بن جوريون ان كان يرى أن الدين وحده كاف لأن يقيم شعباً متماسكاً ليحقق أحلامه التاريخية : كان رده : اولا يجب أن يكون هناك ايمان تام . وبعد ذلك كل شيء يمكن أن يتحقق . وهو لا ينسى أنه ذهب الى أحد المعابد في نيويورك ووقف الى جواره عدد من اليهود يصلون الفجر . ونظر الى وجوههم ، وجدهم لا يعرفون بعضهم البعض . ولكن بدأت الصلوات وكل واحد يدعو بلسان . وجاءت المزامير . . وتوالت . . وراحت تردد السنة مختلفة . ولكن الدموع جاءت لغة واحدة تربط بين الجميع . . . هنا أدرك بن جوريون . أنه لا بد من التمسك بالدين لكي يتحقق كل شيء . . وبعد الدين تجيء

الارض التي يعيشون عليها وبعد الارض تجيء اللغة الواحدة . . أما بقية الظروف الاجتماعية والعسكرية والاحساس بالخطر والخوف والموت فهي جميعاً قادرة على أن تذيب ما بين الناس . .

أرأيت : ماذا يقول الرجل اعتزازا بدينه ؟

فهل بعد ذلك يتسرب ضعف إلى نفس أي مسلم ، أو يعتريه أي خوف أو خجل ، يجعله يحجم عن إعلانه وجهره بأنه مسلم ، متمسك بدينه ، حريص على إقامة حياته على أساس تعاليمه ومبادئه ؟ .

ما كنت بحاجة إلى أن اضع مثل هذا أمام القارىء المسلم ، والمفروض فيه : أنه معتز بدينه ، لكني اضطررت إلى وضعه أمام بعض الاشخاص ، لعلهم يفيقون ، ويعثرون على أنفسهم ووجودهم . وتعود إليهم روحهم .

الإسلام لمن نصير

■ مسائل بدهية :

إن الذين يضعون الدساتير الدائمة لزمن طويل ، يحرصون على أن يبذلوا كل ما في طاقتهم العلمية ، وما لديهم من خبرة مناسبة ، ليأتي الدستور ملائما للحياة ، ومغذياً لها ، ومصلحا لشئون الناس فيها ، إلى أطول زمان ممكن . . وبكل إحساسهم بمهمتهم وبشعبهم وبكل طهارة النية والقصد ، والحرص على مصالح شعبهم يبذلون الجهد ، ويدققون في كل كلمة وحرف في الدستور أو في القانون . . وعلى قدر علمهم ، وخبرتهم ونواياهم ، يأتي الدستور او القانون وافيا ومناسبا أو غير مناسب . .

والذين يصنعون الأجهزة : دقيقها وكبيرها ، أو يشرفون على صنع كل أجهزتها ، وعلى تركيبها ، هم اقدر الناس جميعا على معرفة خصائصها ، وخصائص كل جزء فيها ، وعلى ما يناسبه ، وما لا يناسبه ، وعلى طاقة احتماله ، وهم الذين يضعون كيفية إدارته ، وما يصلحه وما يفسده ، ويضعون « الكتالوج » الذي يبين للناس تركيب الجهاز وصيانته . وعلى قدر علم الصانع ودقته ومهارته ، يأتي الجهاز الذي صنعه .

ومتى كنا مؤمنين بأن الله هو الذي خلقنا ، وهو الرحمن الرحيم ، العليم الحكيم ، كان من الضروري لهذا الايمان ان ينبثق عنه إيمان آخر بأنه سبحانه ، الرحيم ، والعليم بما خلق ، حين يشرع للانسان ، ويصدر إليه تعليماته ، ليتبعها في حياته ، يريد به اليسر ، ولا يريد به العسر ، ولا بد أن تكون هذه التشريعات وهذه التعليمات والارشادات ، هي الأنسب ، والأصلح له ، من اي تشريع آخر يضعه له البشر ، الذين لا يجارون في علمهم ، ولا في رحمتهم ، ولا في إرادة الخير للانسان ، علم الله ورحمته ، وحبه الخير لعباده ، وقدرته ، وهو سبحانه ، حين يشرع لعباده ، لا يحابي واحدا على حساب الآخر ، لأنه غني عن عباده ، وعن محاباتهم ، ولا يظلم احدا ، لأنه ليس بظلام للعبيد .

وهو سبحانه حين أعلن عن حكمته وإرادته في قوله ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ ، كان يعني بذلك : الذكر والأنثى من بني آدم . ولا يمكن بعد هذا النطق الإلهي ، أن ينتقص مما قرره ، أو يغض من شأنه ، تجاه الأنثى أو تجاه الذكر ، أو يعلي كفة أحدهما على الآخر ، نظراً لخلقته التي خلقه الله عليها : ذكراً أم انثى . . فلا يد له فيما خلق عليه ، وكل منهما صنعة الله ، ولا بد ان يعطي الصنعة « حقها » . وانطلاقا من هذا الوضع ، وهذا المنطق ، يقرر الله سبحانه ، في آيات من القرآن الكريم ، أن أولي الألباب حينما دعوه أن يغفر لهم ، ويكرمهم ، بعد أن آمنوا به حق الايمان ، كان جوابه لهم : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض »[1] ، كما قرر في آية أخرى هذه الحقيقة : « من

---

(١) آل عمران / ١٩٥ .

عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[٢] .

وهو سبحانه حين كلف عباده بشريعة ، لم يكلفهم بشيء يتنافى مع طبيعتهم ، أو قدرتهم ، أو يفوت عليهم مصالحهم الحقيقية ، التي يقدرها ، ويقدرها العقلاء أيضا فالقاعدة التشريعية الإلهية يقررها القرآن في أكثر من موضع : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها »[٣] وبجوارها هذه القاعدة الأخرى ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره»[٤] ذكرا كان أم أنثى .

[كل مخلوق له نظامه المناسب له]

وكما خلق الله كونه كله : سماءه وأرضه ، ماءه ويابسته ، حيوانه ونباته ، ووضع له السنن المناسبة لكل شيء فيه ، حتى تحفظه ، وتهيىء له اداء وظيفته على أكمل وجه ، وضع للانسان كذلك ـ وهو جزء من كونه بل أشرف جزء فيه ـ سننه ونظمه الطبيعية في جسمه ، وسننه التشريعية لسلوكه ، وهو « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى »[٥] والذي « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى »[٦] .

وكان أكبر برهان على صحة هذه النظم ، وصلاحية هذه

(٢) النحل / ٩٧ .

(٣) آخر سورة البقرة .

(٤) سورة الزلزلة .

(٥) سورة الأعلى .

(٦) طه / ٥٠ .

السنن ، أن الكون حين التزمها وسار عليها انتظم أمره ، وأن الإنسان ، حين يخرج عليها أحيانا ، يتعكر صفو حياته ، وتختل ، وتنتكس ، ويصبح شرا على نفسه ومجتمعه . . لأنه خرج عن سنن الله وتخطيطه الذي وضعه له .

وجاءت الآية الكريمة لتبرز للانسان هذه الحقيقة ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ لأنها جاءت نتيجة التزامك بالسنة التي وضعها لك . ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ؛ لأنها جاءت نتيجة الطريق الذي اخترته لنفسك ، خارجا به على سنة الله ومخالفا لها ، فأنت الذي جنيت على نفسك .

والانسان هو مخلوق الله الوحيد ، الذي ينتابه التمرد ، والخروج على سنن الله ونظمه . . اما بقية مخلوقاته فهي ملتزمة بسنته ، خاضعة لنظمه ، لم يشذ شيء من الكون الكبير ، عن الخطة الإلهية الموضوعة له ولذلك انتظم أمره . وهذا الخضوع هو ما عبر عنه الله سبحانه ، في آيات من كلامه المنزل ، بأنه سجود لله : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ فهي كلها التزمت بسنته ، وخضعت لها دون شذوذ ، ولذلك انتظم حالها .

أما الإنسان فيقول عنه : « وكثير من الناس » أي يسجدون ويلتزمون « وكثير حق عليه العذاب »(٧) لأنهم لا يلتزمون ولا يخضعون .

وفي آية أخرى ، في آخر سورة الاحزاب يقرر الله أيضا موقف

---

(٧) سورة الحج / ١٨ .

المخلوقات من سننه وتعاليمه ، التي سماها : « الأمانة » ، بضرورة الحفاظ عليها فيقول ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها** ﴾ أي أبين أن تظل في أعناقهن لا يؤدينها ، يعني أدين الأمانة كما أمر الله ، وسرن على سننه « وحملها الانسان » أي ظل حاملا لها لم يؤدها وهو تعبير عن مخالفته لسنن ربه . . ولذلك عقب عليه بقوله « إنه كان ظلوماً جهولا » .

فالله في سننه الطبيعية في كونه ، وفي سننه التكليفية للانسان ، لا يمكن أن تكون سننه هذه ، وسننه تلك ، إلا بالحق ، ومناسبة للكون ، والطبيعة ومصلحة الانسان ، الذي سخر له ربه هذا الكون كله لمصلحته .

فلا يمكن ـ إذن ـ حين يشرع للمرأة ، أن يشرع لها إلا لمصلحتها ، ومصلحة المحيطين بها ، إذ لا يعقل أن يخلق الله هذا الكون كله ، ويديره على أتقن النظم ، وأحكم السنن ، ثم حين ينظم حياة المرأة ، يجحف بها ، ويخل بسنته « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ومن هنا كان التزام الأنسان بسنن الله وتكاليفه ، ضروريا لمصلحته ، وجاء الأمر بذلك له في كثير من آيات القرآن حتى يسعد في ظلال رحمة الله وسننه ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** ﴾[٨] ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾[٩] .

---

(٨) آل عمران / ١٣٢ .

(٩) آل عمران / ٣٢ .

فإذا جاء إنسان مدع ، وتطاول ، وتعدى حدوده ، وحاول أن ينتقد أمر الله ، وسنة من سننه ، ونظاما من أنظمته مدعيا أن عنده ما هو أحسن مما جاء من عند الله ، فقد ظلم نفسه ، وبرهن ادعاؤه على نقص ومرض فيه لا في التشريع :

فمن يك ذا فم مر مريض
يجد مراً به الماء الزلالا . .
وطاولت الأرض السماء سفاهة
وعير « قسا » بالسفاهة « باقل »
وقال السهى للشمس أنت ضئيلة
وقال الدجى للصبح لونك حائل

فأين الأرض من السماء حتى تتعالى عليها ؟ وأين « باقل » العيي اللسان التافه العقل من « قس » حكيم العرب وفصيحها ؟ وأين نجم « السهى » الصغير الذي لا يرى إلا بصعوبة ؛ أو لا يرى للناس ، من الشمس ؟ وكيف يتطاول الظلام الدامس ، فيتهم الصبح المشرق بأنه مظلم ؟ .

لكنها البجاحة التي يصور بها الشاعر بعض المتبجحين الذين لا يعرفون قدر أنفسهم وحقيقتهم . أمام ربهم ، وخالقهم ، ورازقهم ، وواهبهم الحياة !! .

إن تشريع الله للبشر ـ ومنهم المرأة ـ جاء حاملا لخصائص الرب الاله القادر ، الرحمن الرحيم ، الحكيم العليم « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى » والذي يريد بعباده اليسر ، ولا يريد بهم العسر ، على عكس تشريع البشر للبشر ، ومنهم المرأة ، هذا التشريع البشري ، الذي لا بد أن يحمل معه ، خصائص النفس البشرية :

جهلها ونقصانها ، ويحمل معه رواسبها ، وانفعالاتها ، وأغراضها وأمراضها . .

ولذلك وجدنا التشريع الإلهي للمرأة ، حينما تنزلت به آيات القرآن ، وبينه رسول الله ﷺ ، يرتفع بالمرأة عاليا ، فوق كل النظرات والتشريعات ، التي عرفها البشر قديما ، وحين نزول القرآن والى الآن ، ولما بعد الآن . . وكان انتقالا فجائيا بالمرأة من الضعة التي انزلتها فيها الآراء والفلسفات ، واستقر العمل بها في مختلف الشعوب والأوساط .

ويفعل القرآن ذلك ، دون ارهاصات ، ومقدمات ، وبلا مطالبات وجمعيات لإنصاف المرأة . ولا يكتفي بأن يدخل على النظرة القديمة ، السائدة تجاه المرأة حينذاك ، مجرد تعديلات طفيفة ، بل يقلب كل النظريات ، التي حطت من شأنها ، رأسا على عقب ، مما يمكن أن نعده ـ بلغتنا الآن ـ ثورة في التشريع للمرأة قلبت كل الموازين ، التي كان يزن بها الرجال والمجتمعات المرأة في وسطهم .

ولأن التشريع لم يكن مؤقتا بزمن محدود ، بل كان خالدا خلود الرسالة المحمدية الخاتمة ، ولأن مشرعه هو الله الحكيم العليم كان ـ ولن يزال ـ هو التشريع المناسب للمرأة ، ومكانتها من المجتمع ، كإنسان كرمه الله ، وصانه .

[فى مجتمعات غير اسلامية]

ولأجل أن نبين أن التشريع الاسلامي الخاص بالمرأة ، كان ثورة على النظرة السائدة إليها ، في ذلك الوقت ، وفيما قبله وبعده ، مما

يضعه البشر لها يحسن أن نضع أمامك هذه المعلومات :

ففي جزيرة العرب ، المهد الأول للاسلام - كانت المرأة مهضومة كسيرة الجناح ، ليس لها حق في الميراث ، ولا في اختيار الزوج او الرضا به إلا في بعض الأحوال الفردية النادرة ، وليس للطلاق ، ولا للزوجات ، عدد محدود ، والرجل يفرض عليها سلطانه كما يشاء دون حد يقف عنده إلا مجرد رغبته ، إلى غير ذلك من صور التصرفات الجائرة ، التي تؤكد عنجهية الرجل وسلطانه ، وضعة المرأة ، وضعفها .

كانت النظرة إليها منذ ولادتها ، نظرة سيئة متشائمة ، يحكيها القرآن عنهم حين يقول : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاًوهو كظيم ،يتوارى من القوم من سوء ما بشر به** ﴾ ولذلك كان تصرّفه معها كما جاء ، بعد ذلك في الآية نفسها : ﴿ **أيمسكه على هون ،أم يدسه في التراب** ﴾ ، ويأتي حكم الله على ذلك ﴿ **ألا ساء ما يحكمون** ﴾(١٠) وفي عبارة القرآن﴿ **أيمسكه على هون ،أم يدسه في التراب** ﴾ ، تلخيص وتصوير مركز ، لنظرتهم السيئة للأنثى صغيرة وكبيرة !! وحين قال المشركون وادعوا ان الملائكة بنات الله ، كان من رده عليهم : ﴿ **ويجعلون لله ما يكرهون** ﴾ ﴿ **أم له البنات ولكم البنون** ﴾ ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى** ﴾ أي جائرة تقسمون وتختارون لانفسكم ، وتجعلون لله ما تكرهون من البنات ؟ وإذا قيل : إن هؤلاء كانوا بدوا متأخرين ، متأثرين بطبيعة الجزيرة العربية القاسية الجافة ، والحياة فيها ، ولا حضارة لهم ، فهذه هي نظرة الأمم الأخرى المتحضرة حينذاك :

---

(١٠) النحل / ٥٨ ، ٥٩

■ عند اليونان : كانت محتقرة ، يعتبرونها رجسا من عمل الشيطان ، ويتصرفون فيها كما يتصرفون في أي متاع من امتعتهم ، يبيعونها ، ويشترونها ولا حق لها في التصرف في ملكها . ولما تقدمت اليونان في حضارتها ، امتهنوا المرأة بشكل آخر ـ كحضارة اليوم ـ حين شاع تبذلها وفسقها ، واستغلال الرجل لجسمها وجمالها ، مما عجل بانهيار حضارتهم . .

■ عند الرومان : كذلك كانوا يمتهنونها بالبيع والشراء ، ويعتبر الأب مالكا لها ، يتصرف فيها كما يتصرف في أي متاع يملكه ، ولم يكن لها حق التملك ، فإذا ملكت مالا كان لرب الأسرة ، وإن كان الأمر قد انفرج قليلا في قانون « جوستنيان » المتوفي سنة٥٦٥ م .

■ عند الهنود : لم يكن الأمر احسن من ذلك ، بل أسوأ ، فقد كتب عليها أن تظل قاصرة طول حياتها ، كما أنها لم يكن لها حق في الحياة بعد موت زوجها ويجب أن تبادر بإحراق نفسها ، حين تحرق جثة زوجها ، وظل هذا معمولا به إلى وقت قريب . .

■ عند اليهود : . تحرم من الميراث إذا كان لها أخ أو إخوة ، وإذا لم يكن لها ورثت ، لكن يحجر عليها أن تتزوج من غير عائلتها . وكانت النظرة لها عموما كنظرتهم للخدم ، وهم يعتبرونها لعنة : لأنها أغوت آدم ، وأخرجته من الجنة !

وقد جاء في التوراة ، « المرأة أمر من الموت ، وإن الصالح امام الله ينجو منها » !! .

■ وفى المجتمع المسيحى : كان ينظر إليها على أنها مدخل الشيطان ، وناقضة لنواميس الله ، ومشوهة لصورة الله أي الرجل ،

وشر لا بد منه ، وخطر على الأسرة والبيت !!

وفي القرن الخامس الميلادي اجتمع مجمع « ماكون » للبحث في المسألة التالية : هل المرأة مجرد جسم لا روح فيها أم لها روح ؟

وأخيرا قرروا : أنها خلو من الروح الناجية (أي في شباب

الرسول عليه الصلاة والسلام) مؤتمرا للبحث : هل تعد المرأة إنسانا أم غير إنسان ؟ واخيرا قرروا انها انسان خلقت لخدمة الرجل فحسب !!

وفي انجلترا كان القانون الانجليزي يبيح للرجل أن يبيع زوجته حتى سنة١٨٠٥ وحدد ثمنها بستة بنسات، وقد حدث أن باع انجليزي زوجته سنة١٩٣١ بخمسمائة جنيه ، ولكنه قدم للمحاكمة ، وقال محاميه دفاعاً عنه إن القانون كان يبيح ذلك قبل مائة عام !!

وكان القانون الفرنسي المدني يعتبرها غير أهل لإبرام العقود دون رضا وليها وينص على أن القاصرين ثلاثة : الصبي والمجنون والمرأة ، ويضعها مع المجنون ، حتى عام١٩٣٨ فعدل بتحسين قليل .

وكذلك الحال في انجلترا حيث كانت المرأة المتزوجة محرومة من الملكية المستقلة !!

وقد نشرت جريدة الاتحاد في « أبو ظبي » برقية جاءتها من بروكسل في٣١ / ٧ / ٧٤عن دراسة أعدتها السوق الاوروبية المشتركة ، تقول :

« لا تزال المرأة البريطانية تتلقى أجراً أقل من زميلها الرجل في العمل نفسه ، في حين أن المرأة الدانمركية تكاد تكون قد تساوت في

أجرها مع الرجل ، ومن المتوقع ان تتساوى المرأة البريطانية مع زميلها الرجل خلال عام١٩٧٥» !! .

وليس تنازل المرأة الغربية عن لقب أسرتها ، وانتسابها لأسرة الزوج ، بمجرد زواجها ، إلا أثرا من آثار سيطرة الرجل من قديم على المرأة ، وفقدانها لشخصيتها ومع الأسف نجد بعض الناس عندنا يقلدون هذا ظانين أنه مدنية !!(١١) .

[قفزة التشريع الاسلامى]

عنيت بذكر هذه المعلومات المركزة ، عن وضع المرأة قبل الاسلام ، وبعد الاسلام ، وحتى الآن ، في المجتمعات غير الاسلامية ، لتتصور معي ما قلته من قبل : من أن التشريع الاسلامي للمرأة ، كان ثورة على الأوضاع السائدة في العالم . وكان قفزة فوق ركام الأفكار السيئة عنها ، في كل مكان ، وفي مجتمع الجزيرة العربية التي ولد الرسول وتربى فيها . . وجاء مكتملا في سموه بالمرأة ، ووضعها الوضع اللائق بها ، كإنسان كرمه الله ، كالرجل تماما ، مما لا تزال المجتمعات الغربية تعمل للوصول بها إليه . .

وجاء هذا التشريع يحمل خصائص مشرعه سبحانه وخصائص الرسالة من الخاتمة الخالدة ، في دقتها ، وحكمتها ، وملاءمتها للفطرة ، وفي إعطاء الحقوق مستحقيها ، دون تزيد أو تحيف أو محاباة ، وحدث هذا كله ـ كما قلنا من قبل وكما هو مقرر معروف ـ

---

(١١) معلومات مستقاة من كتب عن المرأة للعقاد ، ومصطفى السباعي ، وأحمد طه ، وغيرهم .

دون مطالبات ، ومظاهرات ، ومؤتمـرات . . لأن مشرعـه هو الله ، العادل الحكيم ، الرحيم بعباده جميعهـم ، لا هؤلاء الـذين تسيطـر عليهم عقد الذنب ، والسيطرة المجحفـة ، والعقليات الناقصـة ، المتأثرة بما حولها وبما ورثته من أوضاع وتقاليد .

وكان مجيؤه على هذه الصـورة السـامية ، المتكاملـة ، والشـورية الفجائية ، غير متأثر بالأوضاع السائدة في الجزيرة ، أو في العالم ، دليلا قويا على أن مشرعه فوق البشر جميعاً وهو الله . .

ولكي نتصور سريعا الفرق الهائل ، بين تشريع الاسلام للمرأة ، وبين التشريعات التي كانت ، وظلت في غير البلاد الاسلامية سائدة ، نذكر أنه فى الوقت الذي كانت فيه المجتمعـات المسيحية ، في البـلاد الأوروبية ، والمتأثرة بها ، تبحث هل للمرأة روح ؟ أو هي جسد لا روح فيها ، أو انها تعد إنسانا أو غير إنسان . . الخ . . نزل القـرآن الكريم يقول : ﴿ **أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثـى بعضكم من بعض** ﴾ ويقول ﴿ **ولهن مثل الذي عليهن بالمعـروف وللرجال عليهن درجة** ﴾(١٢) بحكم طبيعة الخلقة . ويقول ﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبـوا وللنسـاء نصيب ممـا اكتسبـن** ﴾(١٣) ، ويقـول في الميراث ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه او كثر نصيبا مفروضـا** ﴾(١٤) ويقول : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض** ﴾(١٥) ونزلـت سورة بأكملها وسميت سورة النساء ، وسورة أخرى وسميت باسـم

---

(١٢) البقرة / ٢٢٨ .
(١٣) النساء / ٣٢ .
(١٤) النساء / ٧ .
(١٥) التوبة / ٧١ .

« سورة المجادلة » التي كانت تجادل الرسول في سؤال لها ، فنزلت ترد على سؤالها ، كما نزلت سورة سميت « سورة الطلاق » ويطلقون عليها سورة النساء الصغرى . .

ويقول الرسول ﷺ « النساء شقائق الرجال » ويقول « استوصوا بالنساء خيراً » إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث ، التي ارتفعت بالمرأة إلى مكانتها الطبيعية ، كإنسان كرمه الله ورفعه إلى درجة لا يزال العالم الغربي الآن ، يحاول الوصول إليها ، مما يعطيك انطباعا سريعا وصحيحا ، بأن الاسلام سبق كل المجتمعات في هذا المضمار ، بمدة زمنية ، تصل إلى اربعة عشر قرنا ، وهي المدة التي تبدأ بنزول القرآن إلى عصرنا الحاضر ولا تزال مفتوحة مما يبعث الفخر والزهو في نفس كل إنسان يُدين بالاسلام ، ويحمل المرأة المسلمة على الاعتزاز بدينها ، الذي سبق ولا يزال يسبق كل التشريعات في العالم ، في تكريمها ، وإنصافها .

[كيف كرمها الاسلام]

ولكي نتصور في شيء من التفصيل ، الاصلاحات أو الخطوة الواسعة التي خطاها الاسلام ، للارتفاع بشأن المرأة كشقيقة للرجل ، واعطائها الوضع الكريم اللائق بها ، كالرجل ، في وقت امتهنت فيه كرامتها كل الأفكار والتشريعات والتقاليد في العالم فإنه يحسن أن نضع هنا بعض النقاط المهمة في هذا الاصلاح الذي حظيت به المرأة المسلمة دون غيرها من نساء العالم : دون أن ندخل في التفاصيل الكثيرة .

■ ١ - فمن حيث وضعها الأدبي :

حمل على النظرة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية والتي صورها القرآن في قوله ﴿ إيمسكه على هون ام يدسه في التراب ﴾ وسفه عقليتهم وتصرفهم وقال : « ألا ساء ما يحكمون » ، وقال « ولا تقتلوا اولادكم من إملاق »[١] أو ﴿ خشية إملاق ﴾[٢] أي فقر ، ورفع من وضعها الاجتماعي حين قرر الرسول ﷺ « النساء شقائق الجمال » وهو يعني بذلك الاوجه للتفرقة بينهما في المعاملة ، والمنظرة الأدبية ، وقال

« ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » فحقوقهن على الرجال مثل حقوق الرجال عليهن دون تمييز ولكن « للرجال عليهن درجة » هي درجة القوامة والرعاية ، وتحمل مسؤ ولية الزوجة والأسرة ، فهي درجة تكليف ومسئولية ، ومشقة لا درجة تشريف يتحملها الرجل ولا تتحملها هي ، ويعتبر إعفاؤها من هذا العبء تكريما لها ، وتمشيا مع طبيعة خلقها ، حتى لا يعنتها ، ولا يكلفها ما يشق عليها . . فنظرة الاسلام - إذن - إليها متساوية مع نظرته للرجل وليست روحهانجسة، محرومة من الجنة ، كما قررت بعض المجامع المسيحية ، والله يقول : ﴿ لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ ويقول ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾[٣] . . ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾[٤] .

---

(١) الانعام / ١٥١ .
(٢) الإسراء / ٣١ .
(٣) النساء / ١٣٤ .
(٤) التوبة / ٧١ .

وفي حجة الوداع خطب الرسول ﷺ خطبته الجامعة وخص النساء بالتوصية بهن « فاستوصوا بالنساء خيرا » ، وفي حديث له ﷺ « خياركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » وأحاديث كثيرة لرفع منزلتها الادبية في المجتمع .

وهكذا تتضافر هذه النصوص وغيرها من القرآن والسنة ، على الارتفاع بشأن المرأة ، وتوفير الوضع الكريم لها بجانب الرجل . . وللقضاء على النظرة السيئة المهينة لها .

وبدلا من امتهان الأنثى منذ ولادتها ، قرر الرسول ﷺ بجوار ما جاء في القرآن ، ان من كانت عنده بنت أو بنات فأدبهن ورباهن واحسن تربيتهن وجبت له الجنة ، ليقضي تماما على النظرة السيئة إليها ، ويبدل بها نظرة العطف والحنان والرعاية والتماس الجنة بسببها .

■ ٢ ـ ومن حيث تعليمها :

فرض الاسلام تعليمها وتثقيفها أيضا كالرجل انطلاقا من وجوب رعايتها ، وحسن تربيتها ، حيث قال الرسول ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وأجمع شرّاح الحديث والفقهاء والأئمة على ان المراد : جنس المسلم ، ذكراً أم أنثى ، ولذلك تكثر إضافة « ومسلمة » زيادة في الحديث ، عملا بالمفهوم ، حتى لا يفهم أحد أن المراد المسلم الذكر وحده . . فالبنت لا بد أن يعنى بتعليمها ، وتثقيفها الثقافة المستطاعة ، والمناسبة لها ، حتى تستطيع أن تقوم بمهمتها الكبرى والحساسة في البيت والمجتمع . .

وكان الرسول ﷺ يبايع الرجال ، كما يبايع النساء على الاسلام ، ويعني بتثقيفهن كما يثقف الرجال . . وقد جاءت النساء للرسول

ﷺ - كما يروي البخاري - فقلن له : « غلبنا عليك الرجال » وكن يحضرن مجلس رسول الله مع الرجال فيستحيين من سؤاله عما يخصهن ، « فاجعل لنا يوما من نفسك » ليعلمهن فيه « فوعدهن يوماً فوعظهن » الخ . . فكانت استجابة الرسول لهن ، دليل عنايته بتعليم المرأة وتثقيفها ، ولذلك قامت المرأة المسلمة على مختلف العصور ، وفي مقدمتها زوجات الرسول ﷺ ، بدور كبير في الحياة العامة من رواية للحديث ، والفتوى والاشتراك في الحروب ، ممرضة ومحاربة حين يقتضي الأمر واستاذة حتى للرجال حيث كان الرجال يسعون إليهن ، ويأخذون ويتعلمون عليهن ، مع الإكرام والإعتزاز لهن ، وبلغ الامر أن قامت امرأة في المسجد تعارض الخليفة عمر في رأيه ، فقبل رأيها وصحح رأيه ، كما هو معروف .

■ وفى إختيار الزوج :

وحين تكبر البنت ، وتقف على عتبة الزواج ، جعل الاسلام لها رأيتها ، وشخصيتها ، في اختيار شريك حياتها ، وقد أمر الرسول ﷺ بذلك ، وبين كيف يؤخذ رأيها ، فقال : « البكر تستأذن وإذنها سكوتها » لحيائها ، ولأن السكوت من البنت - عادة - علامة الرضا ، ويكتفي بهذا منها مراعاة لحيائها ، « والثيب تستأمر » يعنى لا بد من تصريحها ، لأنه سبق لها الزواج ، فهي في هذه الناحية أجرأ من البنت ، وأقدر على الصراحة . . فلا بد - إذن - من رضا المرأة بمن يريد التزوج بها ، ولا يستطيع - شرعا - وليها أن يجبرها . فإن أجبرها بطل نكاحها ، فعن ابن عباس رضي الله عنه « ان جارية بكرا أتت رسول الله ﷺ ، فذكرت له أن أباها زوجها وهي كارهة ، « فخيرها النبي » رواه احمد وغيره .

وفي حديث آخر : جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته ، فجعل الرسول الأمر اليها ، فقالت : قد أجزت ما فعل أبي ، ولكني أردت أن أعلم النساء ان ليس إلى الآباء من الأمر شيء » أي من إجبارهن - رواه ابن ماجه -

وهذا هو الشيء الطبيعي ، في بناء حياة تقوم على الترابط ، والمودة والرحمة ، وتفاني كل طرف في الآخر . .

ولكن هذا الشيء الطبيعي ، لم يكن معروفا في ذلك الوقت ، لا في جزيرة العرب ، ولا في غيرها ، اللهم إلاّ عند الكبار من العرب في بعض الظروف ، فجاء الاسلام وجعله قاعدة أساسية لا أمرا اختياريا . .

فاللبنة الأولى التي يضعها الاسلام في بناء الأسرة هو رضا المرأة بمن ستتزوجه ، ارتفاعا بها عن أن تكون كالسلعة التي تباع ، ويتصرف فيها الرجل كما يشاء ، دون إذنها ورضاها . .

■ وبعد الزواج :

وهي حين تتزوج لا بد أن يدفع الزوج لها مهرا مناسبا ، تملكه هي ، مما يشعرها بكرامتها وشخصيتها وبأنها مطلوبة لا طالبة ، وانها يضحى في سبيلها بالمال ، لا كما يحصل كثيرا في بيئات أخرى من أن المرأة هي التي تدفع للرجل المهر ، الذي يطلق عليه « الدوطة » .

وهي عند الزوج ومعه أمانة - لديه - لا بد أن يحافظ عليها ، ويرعاها ، ويعاشرها بالمعروف ، ويكون مسئولا عن نفقتها ، وكل ما يلزمها ولو كان لها مال ، ويوصي الاسلام بالحرص على المعروف في

معاشرتها حتى عندما يكرهها ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾(٥) .

ويقول رسول الله ﷺ ينصح الأزواج : « لا يفترك مؤمن مؤمنة ، لا يبغضها وينفر منها نفورا كليا ، إن كره منها خلقا رضي منها آخر » رواه مسلم .

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يريد طلاق زوجته ، بحجة أنه لا يحبها ، فأنبه على هذا السلوك ، وأفهمه انه ليس كل البيوت تبنى على الحب ، وقال له : « اين الرعاية والتذمم ؟ » يريد : أين المودة والرحمة ، مما يجب أن يكون بين الأزواج . . وهي العلاقة التي يمكن ان تدوم ، أما الحب فعاطفة ملتهبة ، تتناقص شيئا فشيئا حتى تخمد ، ولذلك لم يكن الحب هو العلاقة الدائمة او اللازمة بين الزوجين ، ولكن المودة والتراحم وحسن المعاشرة ، ان كره منها خلقا رضي منها غيره . . ولهذا ذكر الله في الآية « المودة والرحمة » ولم يذكر الحب ، لأنه ـ عادة ـ لا يدوم ﴿ ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾(٦) .

■ وحين الخلاف :

فإن حدث خلاف بينهما ، واستحكم ، واستحال الصلح ، بعد بذل كل الجهود في سبيله كما أوصى القرآن ، فإن الاسلام لا يجبرها على البقاء في وضع لا تطيقه ، بل فتح أمامها باب التخلص من هذا الزواج إن لم يطلقها الرجل ـ وذلك بتعويض ، وهو ما يسمى فقها وقانونا بالخلع وهو ان تدفع له شيئا نظير فراقها له وإن ضارها زوجها ،

---

(٥) النساء / ١٩ .

(٦) الروم / ٢١ .

واستحال رده عن الاضرار بها ، فلا نلزمها بالبقاء تحت ضغط هذا الارهاب بل يخلصها الاسلام منه حين يثبت ،ويطلقها القاضي ويلزم الزوج بتعويض يسمى « متعة » لها . . على حسب ما يراه القاضي لأن بقاء علاقة الزواج في مثل هذه الحالات ، ليس في مصلحة الزوجة ، ولا الزوج ، ولا أسرتيهما ومن حولهما ، بل إنه يجلب كثيرا من المصائب والمشكلات ، ولذلك أجاز الشرع إنهاء هذه العلاقة ، « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته »[٧] .

والمهم من هذا كله أن الاسلام جعل لها شخصيتها المستقلة ، فالزواج يبدأ بالرضا ، ويستمر بالرضا ، فإن لم يتيسر ، لا يرغمها على البقاء ، بل فتح امامها المجال لتحقق ذاتيتها . .

■ ٤ ـ وفي أهلية التصرف :

كما حرص الاسلام على إعطاء المرأة ، أهليتها الكاملة في التصرفات المالية ، متى بلغت سن الرشد ، كالرجل تماما ، بل لها أن تملك حتى قبل ان تبلغ سن الرشد ، وإن كانت لا تتصرف قبل رشدها وهي ترث وتتاجر وتتملك ما ترثه وتبرم العقود مما لم يكن معروفا لها من قبل،حتى نزلت الآية بإنصافها ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ،وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا** ﴾ وان كان ميراثها على النصف من ميراث الذكر في بعض الحالات ، فذلك لمسئوليات يتحملها الرجل ولا تتحملها هي ، فهو الذي ينفق عليها وعلى اسرته ويدفع المهر . .

فالإسلام أعطى المرأة كافة الحقوق التي اعطاها الرجل في

---

(٧) النساء / ١٣ .

التملك ، والتجارة ، والزراعة ، وإبـرام العقـود ، دون أن يتـوقف ذلك على إذن زوجها ، كما كان الحال في الغرب الى ما قبل سنوات . حيث كانت المرأة لا تستطيع التصرف في ملكها ، إلا بإذن زوجها ، وكان هذا من بقـايا تسلـط الرجـل على المرأة في الغـرب ، وإهــدار شخصيتها ، وظل العمل به أربعة عشر قرنا في الغرب ، بعد أن أبطله الاسلام ورفع من شأن المرأة به .

■ ٥ ـ وحين تكون أما :

فإذا ما وصلت المرأة إلى أن تكون أما ، فإن هذه الأمومة ترفـع شأنها أكثر ، وتعطيهـا من التـكريم والاعزاز ما لا يأخـذه الرجـل الأب ، تقديراً لما عانته من مشقات الحمل والولادة ، وما بذلتـه من مشقة وعطف وحنان في رعاية المولـود ، وتلك هي وصية الله للأولاد مهتما بذكر الأم ـ وكلنا أولاد أم وأب ـ ﴿ ووصينا الانسان بوالـديه حملته أمه وهنا على وهن ﴾[٨] .

ويبين الرسولﷺ السر في تحدث القـرآن خاصـة عن الأم ومـا قاسته ، وجزاء ذلك ، حين جاءه صحابى وقال له « من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله ؟ قال له : أمك . وكرر السـؤال ثانية وثالثة ثم من ؟ والرسول يكرر له الجواب ، وفي المرة الرابعة قال له :

ثم أبوك » ليعنى المسلم بأمه ، ويكرمها إكرامـا خاصـا ، ويبالـغ في تكريمها ، حتى لو أصابه منها ما يكره أكثر مما يبالغ في تكريم الاب ، وإن كان التكريم لهما معا مطلوبـا ، لكن يكون التـركيز على رعـاية الأم ، تقديراً لفضـل الأمومـة . ويظـل الولـد مطالبـا بذلك ، مهما يكبر ، ويعظم شأنه ، ولاسيما عند كبر الوالدين واحتياجهما للعنـاية

(٨) لقمان / ١٤ .

﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ﴾[٩] .

سلسلة متناسقة ، متصلة الحلقات ، لتكريم المرأة : بنتا صغيرة ، وفتاة ، وزوجة ، وأما . . يعنى في جميع أطوارها ، مما لم تظفر به المرأة في أي زمن ، وفي أية نحلة أو شريعة أو قانون ، وحتى الآن في غير الاسلام .

وللمرأة المسلمة ان تعرف ذلك ، وتقارنه بما كان ، وما هو كائن لدى الأمم الأخرى ، غير الاسلامية ، ومن حقها بل من الضروري عليها أن تعتز ، وتفخر بشريعة الاسلام ، التي وفرت لها هذه الحقوق والمزايا ، منذ اربعة عشر قرنا مما لم تظفر به المرأة في العالم حتى الآن .

■ وفي مظهرها وملبسها :

وانطلاقا من تكريم الاسلام للمرأة ، وصيانتها من الابتذال ، ومن أن يكون جسمها وأنوثتها سلعة معروضة لكل العيون ، معرضة للايذاء والإغراء ، أمرها أن تحترم نفسها ، وتصون أنوثتها ، ولا تكون عامل إثارة وإغراء ، وتشجيع للرجال على النيل منها واللعب بها ، فتستر من جسمها ما يغري الرجل الاجنبي بها ، وما لا يدعو حاجة العمل المعتادة لكشفه ، وترك لها أن تكشف وجهها وكفيها لتستطيع مباشرة أعمالها . . وأمرها حين تلبس ملابسها ، ألا تكون هذه الملابس شفافة ولا ضيقة تبرز تفاصيل جسمها ، منعاً للإثارة ، وحجبا لفضول الفضوليين ، ووقاية لها من طمع وتعليقات المبتذلين المتحللين حتى في اسلوب الكلام ؛ نهى المرأة أن تكون نغمة كلامها

---

(٩) الاسراء / ٢٣

مثيرة للرجل ، وبدأ بالنساء القدوة ـ نساء النبي : ﴿ **فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا** ﴾ سورة الأحزاب .

« فالموديل » الذي رسمه الاسلام لملابس المرأة ، منطلق من نظريته في تكريمها ، والترفع بها عن ان تكون « لعبة الرجال وشاغلهم في الشوارع ، والمحافل ، والعمل . . أو أن تكون غذاء مشاعا لشهواتهم ، وهدفا لشرر عيونهم . . حتى تكون النظرة إليها نظرة موضوعية لا شهوية ، وتقوم على أساس خلقها وعملها ، لا على أساس شكلها ، وإغراءات جسمها ، كما يلاحظ أحيانا » .

فلقد رأينا كثيرات من الطالبات والسيدات ، يثرن ويسخطن ؛ لأن الرجل : الزميل أو الاستاذ أو الرئيس ، يحيط زميلة لهن بعناية خاصة ، لمجرد جمالها ، وتفننها في عرض مفاتن جسمها ، واعتمادها في نجاحها في عملها ، على مجرد الإغراء ، لا على جودة عملها الذي تؤديه . . فليس « الموديل » الإسلامي ـ إذن ـ إعناتا للمرأة ، ولكنه صيانة وتكريم لها ، ولأنوثتها من الابتذال .

وعملا بمبدأ الصيانة والتكريم ، أمر المؤمنين ايضا أن يغضوا أبصارهم عن المرأة ، ولا يركزوها عليها ، ولاسيما على ما ظهر من وجهها . . ليمضوا هم في طريقهم ، وتمضي هي في طريقها ، في أمن وسلامة ، دون إثارة ، ودون جرح وإيذاء كما أمرها الا تسلط سلاح عيونها على الرجال .

وليس سلوك الغرب ، وعنايته بإبراز مفاتن المرأة ، ومواضع الإغراء في جسمها إلا بقية من نظرته السيئة إليها ، واعتبارها سلعة لارضاء وإشباع غرائزه ، ولعبة يتلهى بها ، ويتفنن في تزيينها لحساب

نفسه ، وكان من ضعف المرأة أن سايرت هذا الاتجاه ، وحرصت على أن تكون لعبة عامة لكل الرجال ، وزينة مغرية مشاعة لا لزوجها فحسب ، بل لكل من أراد أن يمتع العين ، كالسلع المغرية المعروضة في « الفترينات » وفرق كبير بين النظرتين ، لو عقلته المرأة ، لكان خيرا لها ، واهدى سبيلا .

ولو أدركت المرأة المسلمة ، كيف كرمها الاسلام عن زميلاتها في العالم منذ جاء ، ورفع منزلتها وأعطاها حقها دون إجحاف بها ، وكيف تمتعت خلال هذه القرون بما لم تحظ به امرأة سواها ، في أية امة ، وفي أي زمن ، وحتى الآن وكيف حد بذلك من تسلط الرجال عليها ، وتعنتهم بها ، وإذلالهم لها ، والغى كثيرا مما كان الرجال يظنونه حقوقهم وسلطتهم عليها ، ووجه إليهم التنبيهات الصارمة ، أن يقفوا عند حدودهم التي رسمها لهم « فأمسكوهن بمعروف او سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا ليقتدوا »(١٠) ﴿ **لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها** ﴾(١١) ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾(١٢) ﴿ **فإن طعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا** ﴾ إلى غير ذلك من التنبيهات التي حدت من سلطانه ، وكسرت من غروره . لو أدركت المرأة المسلمة ذلك كله ، وعقلته ، لعرفت فضل دينها عليها ، ونذرت حياتها لخدمة هذا الدين ، وتدعيمه في النفوس ، والدفاع عنه ضد الحمقى والمغرضين ، ويكفيها أن تقارن بين ما تحتله المرأة المسلمة من مكانة وسط أسرتها الصغرى ، وأسرتها الكبرى ، طوال حياتها ، ولاسيما عندما تكبر سنها ، ويتوقف نشاطها ، وبين تصرف الغرب وتمتعه

---

(١٠) البقرة / ٢٢١ .
(١١) النساء / ١٩ .
(١٢) النساء / ٣٤ .

بالمرأة وهي عضة طرية ، ثم يهملها ويعزلها ، أو يضعها في الملاجىء حين يجف عودها مما جعلها تحسد المرأة الشرقية المسلمة ، وتتمنى لو نشأت في بيئة إسلامية .

فلتهنأ المرأة المسلمة بدينها الحفي بها ، ولتحرص عليه حرصها على شخصيتها وكرامتها ، إن كانت من ذوات الشخصية والكرامة .

[شهادات من الغرب]

ولذلك كله كان مما يثير العجب والاستنكار أن نجد بعض ابناء وبنات الاسلام ، يدفعهم الطيش والجهل أحيانا ، الى المساس بما شرعه الله للمرأة ، في الوقت الذي نرى فيه بعض كبار الكتاب والفلاسفة والمفكرين المسيحيين العقلاء ، ينصفون الاسلام ، ويشيدون بتشريعه ، ويردون على المغرضين من إخوانهم المسيحيين ، ومن تبعهم ، ويصفونهم بالحمق والتجني على الإسلام . .

قال الفيلسوف الكاتب الفرنسي الكبير « فولتير » في « مقالة القرآن » في معجم الفلسفة(١٣) .

« لقد نسبنا إلى القرآن كثيرا من السخافات ، وهو في الحقيقة خال منها ، إن مؤلفينا الذين كثروا كثرة الانكشارية « جيوش الدولة العثمانية » يجدون من السهل أن يجعلوا نساءنا من حزبهم بواسطة اقناعهن ، ان محمدا اعتبرهن حيوانات ، ذات ذكاء ، وانهن في نظر الشريعة بمثابة الأرقاء ، لا يملكن شيئا من دنياهن ، ولا نصيب لهن في

---

(١٣) نقلا عن كتاب « المرأة بين الشريعة والقانون » الذي نقل عن مصادر أخرى .

أخراهن ، وبديهي أن هذا الكلام باطل ، ومع ذلك فقد كان الناس يصدقونه » !!

وعجيب ان يأخذ هؤلاء « الانكشارية » من وحل آرائهم هم وعيوبهم هم ، فيرمون الاسلام بها !!

ثم يقول « فولتير » : « نحن لا نجهل أن القرآن يميز الرجل ، **تلك الميزة المعطاة له من الطبيعة** ، ولكن القرآن يختلف عن التوراة في أنه لا يجعل ضعف المرأة عقابا إلهيا لها ، كما ورد في سفر التكوين الاصحاح الثالث العدد ١٦ » « ومن الخلط أن ينسب إلى شارع عظيم كمحمد[١٤]، مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء ، بينما الحقيقة أن القرآن يقول ﴿ **فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** ﴾ ويقول ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[١٥] .

وقالت « أني بيزنت » زعيمة الثيوصوفية العالمية في كتابها « الأديان المنتشرة في الهند »

« ما أكبر خطأ العالم في تقدير نظريات النبي « محمد » فيما يتعلق بالنساء ، فقد قيل إنه قرر بأن المرأة لا روح لها » !! مع أن المجمع المسيحي « ماكون » هو الذي قال هذا في القرن الخامس الميلادي ، كما انعقد المؤتمر الفرنسي في سنة ٥٨٦ م للبحث في أنها انسان ام غير انسان ، ثم قرروا انها إنسان خلقت لخدمة الرجل !! تناسوا تاريخهم

(١٤) هؤلاء الكتاب لا يعتقدون أن القرآن من عند الله ، بل من أقوال محمد الإنسان العظيم .

(١٥)نقلا عن كتاب المرأة للسباعي ص ٢١٤ عن الاسلام روح المدنية ص ٢٧٦

هذا ، ثم ألصقوه بالنبي وبالاسلام ، على رأي المثل العربي « رمتني بدائها وانسلت » .

وتعلق « آني بيزنت » على هذا فتقول : « فلماذا هذا التجني على رسول الله » أعيروني أسماعكم احدثكم عن حقيقة تعاليمه في هذا الشأن :

« جاء في القرآن ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾ .

« وبعد أن سردت كثيراً من الآيات القرآنية التي تحث على رعاية المرأة وإكرامها قالت : ولا تقف تعاليم النبي عند حدود العموميات ، فقد وضع قانوناً لوراثة النساء ، وهو قانون أكثر عدلاً وأوسع حرية من ناحية الاستقلال ، الذي يمنحها إياه ، من القانون المسيحي الانجليزي ، الذي كان معمولاً به إلى ما قبل نحو عشرين سنة ، فما وضعه الإسلام للمرأة يعتبر قانوناً نموذجياً ، فقد تكفل بحمايتهن في ما يملكنه، وضمن لهن عدم العدوان على أية حصة مما يرثنه عن أقاربهن وإخوانهن وأزواجهن »[١٦] (مجلة الأزهر المجلد الثامن ص٢٩٤)

- ويقول « بول تيتو » : كما نقلته عنه مجلة الأزهر المجلد العاشر ص ٧١٢ : « ولا ننسى أن القرآن أصلح حال المرأة في الحياة الاجتماعية إصلاحاً عظيماً » .

- وقالت جريدة « المونيتور » الفرنسية كما نقلته مجلة الأزهر في المجلد الحادي عشر ص٣١٥ : « وقد أوجد الإسلام إصلاحاً عظيماً في حالة المرأة في الهيئة الإجتماعية ، ومما يجب التنويه به أن الحقوق الشرعية

---

(١٦) عن مجلة الأزهر المجلد الثامن ص ٢٩٠ .

التي منحها الإسلام للمرأة تفوق كثيراً الحقوق الممنوحة للمرأة الفرنسية » .

- وتقول : « لورافيشيا فاغليري » في كتابها « دفاع عن الإسلام » ص ١٠٦ : « ولكن إذا كانت المرأة قد بلغت من وجهة النظر الإجتماعية في أوروبا مكانة رفيعة ، فإن مركزها ، شرعياً على الأقل ، كان حتى سنوات قليلة جداً ، ولا يزال في بعض البلدان ، أقل إستقلالاً من المرأة المسلمة في العالم الإسلامي » .

وفيما يلي فقرات متفرقة من كتاب « حضارة العرب » لغوستاف لوبون :(١٧).

● « ومبادىء المواريث التي نص عليها القرآن على جانب عظيم من العدل والإنصاف ، ويمكن القارىء أن يدرك ذلك من الآيات التي أنقلها منه ، وأن أشير فيه بدرجة الكفاية الى أحكامها العامة ، ويظهر من مقابلتي بينها ، وبين الحقوق الفرنسية والانجليزية ، أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات اللاتي يُزعم أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف ، حقوقا في المواريث لا نجد مثلها في قوانيننا » .

● « كان الاسلام ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق ، فهو قد رفع حال المرأة الاجتماعي وشأنها رفعاً عظيماً بدلاً من خفضها ، خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى ، فالقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية بأحسن مما في قوانيننا الأوروبية » .

● « ثم قارن المؤلف بين حال المرأة العربية قبل الإسلام ، وبين حالها بعده ، وتابع حديثه قائلاً : « وإذا أردنا أن نعرف درجة تأثير

(١٧) ص ٢٧٤ وما بعدها الطبعة الثانية ترجمة عادل زعيتر .

القرآن في أمر النساء وجب علينا أن ننظر اليهن أيام إزدهار جضارة العرب ، فقد ظهر بما قصه المؤرخون أنه كان لهن من الشأن ما اتفق لاخواتهن حديثاً في أوروبا ، وذلك حين إنتشار فروسية عرب الأندلس وظرفهم » .

● وقد ذكرنا في فصل سابق أن الأوروبيين أخذوا عن العرب مبادىء الفروسية ، وما اقتضته من احترام المرأة ، فالإسلام إذن ـ لا النصرانية ـ هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه ، وذلك خلافاً للإعتقاد الشائع ، فإذا نظرت إلى أمرأة النصارى الاقطاعيين في القرون الوسطى ، رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء » .

● « وإذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن ، وجدت ما يزيل كل شك في هذا الأمر ، فعلمت أن رجال عصر الاقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء ، قبل أن يتعلم النصارى أمر معاملتهن بالحسن من العرب » .

● « ومن الأدلة على أهمية النساء أيام حضارة العرب ، كثرة ما أشتهر منهن بمعارفهن العلمية والأدبية ، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن ، في العصر العباسي ، في المشرق ، والعصر الأموي في أسبانيا » .

● « ثم نقل عن مؤرخي عبد الرحمن الثالث قولهم « إن ذلك الزمن الذي كان فيه للعلم والأدب شأن عظيم ، ببلاد الاندلس ، كن محبات للدرس في خدورهن ، وكانت الكثيرات منهن يتميزن بدماثتهن ومعارفهن » ثم أخذ يذكر الأمثلة على ذلك وقال :

● « جنت حضارة قدماء الخلفاء الساطعة في عهد وارثي العرب ، ولاسيما في عهد الترك ، فنقص شأن النساء كثيراً ، وكما قلت في مكان آخر فإن حالتهن الحاضرة أفضل من حالة أخواتهن في أوروبا حتى عند الترك ، وما تقدم يثبت أن نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن ، لا بسبب القرآن على كل حال » .

● « وهنا نستطيع أن نكرر قولنا : إن الاسلام الذي رفع المرأة كثيراً ، بعيد من خفضها ، ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأي ، فقد سبقنا إلى مثله (كوسان دوبرسفال) ثم مسيو (بارتلمي سنت هيلر) .

● « لم يقتصر فضل الاسلام على رفع شأن المرأة ، بل نضيف إلى هذا ، أنه أول دين فعل ذلك ، ويسهل إثبات هذا ببياننا : أن جميع الأديان والأمم التي جاءت قبل العرب ،أساءت إلى المرأة » .

● « وحقوق الزوجية التي نص عليها القرآن ، ومفسروه ، أفضل كثيراً من حقوق الزوجية الأوروبية .

● « وتعامل المرأة المسلمة بإحترام عظيم ، فضلاً عن تلك الامتيازات ، فتنال بذلك حالاً اجمع الباحثون المنصفون ـ ومنهم من ناصب بعاطفته مبدأ تعداد الزوجات ـ على الاعتراف بحسنها ـ ومن هؤلاء مسيو (دو أميسبس) الذي قال في معرض الحديث عن المرأة في الشرق ، وذلك بعد أن انحى باللائمة على تعدد الزوجات وفق وجهة نظره الأوروبية : « إن المرأة في الشرق تحترم بنبل وكرم ،وعلى العموم ،فلا أحد يستطيع ان يرفع يده عليها في الطريق ،ولا يجرؤ جندي أن يسيء إلى أوقح نساء الشعب ،حتى أثناء الشغب ،وفي الشرق يشمل البعل زوجته بعين رعايته ،وفي الشرق يبلغ الاعتناء

بالأم درجة العبادة .وفي الشرق لا تجد رجلا يقدم على الإستفادة من كسب زوجته (هذا قبل أن تسريَ الينا مبادىء الحضارة الغربية) والزوج هو الذي يدفع المهر الى زوجته في الشرق » .

● وختم (لوبون) كلامه قائلاً :

وإنني أطمع أن يعتقد القارىء بعد وقوفه على ما تقدم ، أن مبدأ تعدد الزوجات أمر طيب ، وأن حب الأسرة ، وحسن الأدب ، وجميل الطبائع ، أكثر نمواً في الأمم القائلة به ، مما في غيرها على العموم ، وأن الاسلام حسَّن حال المرأة كثيراً ، وأنه أول دين رفع شأنها ، وأن المرأة في الشرق أكثر إحتراما وثقافة وسعادة منها في أوروبا على العموم » .

● ـ وقال هملتن من علماء الانجليز :

إن أحكام الاسلام في شأن المرأة صريحة في وفرة العناية بوقايتها من كل ما يؤذيها ويشين سمعتها .

نسوق هذه الشهادات للاسلام ، وهي قليل من كثير لأنه لا يمكن لأحد ان يطعن على أصحابها بالتعصب للاسلام ؛ لأنهم مسيحيون ، وليعلم شبابنا أن الحق لا بد ان يجد من المنصفين ما يعرفه ويقف بجانبه ، وأن الطاعنين على الاسلام كاذبون ، ومفترون مغرضون ، ولو كانت اسماؤهم اسماء مسلمين . .

يطالبون هناك بالحل السلمي

[إن البشر يعملــون غالبــا على كتمان عيوبهـــم ، والظهور بنقيضها]

هذه القضية النفسية الطبيعية ، وجدتها تنطبق تماما على الغرب الآن ، وموقفه على مر التاريخ وللآن من المرأة ، ومحاولة تغطية هذا الموقف ، باتهامات كيدية ، يوجهها إلى الاسلام ، وموقفه من المرأة ، كما يقول المثل العربي « رمتني بدائها وانسلت » .

ومن طبيعة الانسان حين يعادي ويحقد على إنسان آخر ، لفضائل فيه لا يستطيع مجاراته فيها ، ان يحاول قلب هذه الفضائل إلى رذائل ونقائص حتى يجرد خصمه من الفضائل التي يتميز بها ، وتجعله لدى الناس مقبولا أو محبوبا ، وتجعل غيره لا يتميز عليه بشيء إن لم يقل عنه . ومن منطلق هذه الطبيعة ، تجد الغرب يهاجم الاسلام ، في نظرته للمرأة ، ولاسيا في موضعين ، وجد نفسه محروما منهما ، بحكم نظمه الدينية الموروثة وهو يتوق إليهما ، ويجدهما من مقتضى الطبيعة والفطرة ، ومصلحة المجتمع ، وهما : تعدد الزوجات والطلاق . . ويعاني من هذا الحرمان ما يعانيه ، حتى اندفع يخالف هذه النظم التي

قيدته ، ويسلك مسالك معوجة ، تبعده عن دينه ، وكل دين ، وترتفع أصوات المصلحين هناك ، بالتماس سبيل للعلاج ، ولا يجدون إلا سلوك الطريق الذي سلكه الاسلام ، الحليلات بدلا من الخليلات . . والانفصال حين يعز ويصعب دوام الاتصال . .

لقد حاول الغرب ، والقائمون فيه على حراسة دينه ، أن يغطوا عيبهم ويكملوا نقصهم في هاتين الناحيتين بالطعن على الاسلام فيهما « وما وجدوش في الورد عيب ، قالوا أحمر الخدين » .

وفي الوقت الذي يحاول فيه التقليديون في الغرب ، إبعاد النقص عنهم ـ وهم غارقون في الاحساس به ـ بالتهجم على نظرة الإسلام ، يندفع مجتمعاته بمقتضى الطبيعة والمصلحة ، إلى التخلص من هذا النقص ، وتقترب من الاسلام ، أو تطلب نظمه وتشريعاته في هذه الناحية ؛ لينتفعوا بها في تشريعاتهم ، ويهتز « برلمان » إيطاليا ، وتهز ايطاليا كلها ، وتقف وراء تشريع يقترب من الاسلام ، ويبيح الطلاق برغم معارضة الفاتيكان وينتظر مئات الآلاف من الزيجات الفاشلة في ظل القيود المعمول بها عندهم ، هذا التشريع ، ليصححوا به مجرى حياتهم . ويتخلصوا من الشقاء الذي عانوه ، في ظل المنع من الطلاق أو التعدد وتخرج بلاد بأكملها عن نظمهم المتعنتة المجافية للفطرة ، وتبيح الطلاق مدنيا ، لتتخلص من المشاكل التي أوجدها هذا التقييد ، وهذا التعنت . . وتقترب بذلك من نظم الفطرة والطبيعة ، ولكنها تنطلق كالمحبوس فكت قيوده ، وتقرر الطلاق لأتفه الأسباب ، حتى اصبح الطلاق عندهم مشكلة اجتماعية لسوء استغلاله .

وبينما الأديان كلها تحرم الاتصال الجنسي غير الشرعي ، نجد المجتمع الغربي يندفع الى هذه العلاقات المحرمة ، ويتخذ من نظام

الخليلات والعشيقات ، بديلا عن نظام الحليلات ، وتعدد الزوجات ، فرارا من زيجات فاشلة ، لا يكن استمرارها ، ويصبح هذا السلوك المحرم في كل الأديان ، أمرا عاديا طبيعيا ، لدى الزوج ، والزوجة ، والعشيقة ، وأهليهم ومجتمعهم وينتج عنه من الأولاد غير الشرعيين ، مئات الآلاف ، وتضطر الحكومات إلى وضع تشريع لتربيتهم ، وحمايتهم . لكنهم مع ذلك قضى عليهم بالشعور بالمهانة ، لإحساسهم بأنهم ليسوا كالأطفال أو الأولاد العاديين ، الذين يعرفون آباءهم ، وجاءوا إلى الحياة من طريق مشروع . .

وكل ذلك الذي يتخبط فيه الغرب ، ويشقى به ، إنما تولد في ظل التقييد غير الطبيعي ، الذي عاشوا في ظله .

ويحس العقلاء أن هذا الذي يعيشون فيه من موجات الفساد والانحلال ودويها ، يمكن التخلص منه والقضاء عليه نهائيا ، لو أنهم اقتبسوا من الإسلام نظمه وإصلاحاته في هذه الناحية ، ولكن التقاليد تمنعهم ، والتعصب يحرمهم . وبينما يعلن بعض هؤلاء العقلاء المصلحين عن رأيهم هذا ويطلبون نظم الاسلام ، للاستنارة بها في إصلاحاتهم كما حدث في المانيا ويحاول آخرون مثلهم التخلص من هذه القيود الثقيلة ـ ولو جزئيا ـ بإباحة الطلاق والاقتراب من نظم الاسلام ، يظل سدنة هذه القيود ، والذين استمرءوا العيش في ظلها الثقيل ، متمسكين بها ، مدافعين عنها ، مهاجمين للإسلام في تشريعه الطبيعي لمصلحة المرأة والأسرة . . يهاجمونه لمجرد المكابرة والعناد ، والحفاظ على التقاليد الموروثة ، والعداء للإسلام ، وتغطية ما يشعرون به من نقص وفساد ، ظهرت آثاره السيئة في مجتمعاتهم .

ونحن لا نطالبهم بأن يأخذوا من تشريعنا ، فهـذا أمـر متـروك لهم ، ولتقديرهم لمصالحهم ، ولكنا نطالبهم بأن يعدلوا ويكفـوا عن المكابرة ، واتهـام الاسـلام بمـا يتمنـون في قرارة نفوسهـم أن يكون عندهم . . وننتظر ماذا يفعلونه إزاء المفاسد الكثيرة والمتتالية ، والتي يتولد بعضها عن بعض ، من جراء تمسكهم بهذه القيود ، والعيش في ظلها . . وهم كلما قاموا من حفرة ، ترددوا في بئر ، وكلما سدوا ثغرة انفتحت أمامهم ثغرات . .

فقد ارتضوا اجتماعيا نظام الخليلات والعشيقات ، ولـم يرتضـوا نظام الحليلات !! فجاءت لهم الخليلات بأطفال لا ينتسبون لأب . . ولا تربيهـم أو تحتضنهـم أم غالبـا . . وتولـدت بذلك مشكلـة حضانتهم ، فصدر بحضانتهم تشريع . . ولما كبروا قليلا واجهوا من ينتسبون إليه ، ومن يأويهم ، ويرعاهم ، ويعلمهم ، فكان لا بد من تشريع ، ولا بد أن تتكفل الدولة بهذا النتاج . .

وحينما شعر هؤلاء بالحياة من حولهم ، وعرفـوا الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين ، أحسوا موقفهم المهين ، مع مرارة حرمانهم من عطف وحنان الأبوين ، ونزلوا معترك الحياة بهذه الروح وهذه المرارة ، التي ورثوها من مجتمعهم ، ولا ذنب لهم فيها . .

وهـكذا تتولـد المشـاكل ، وتتعـدد الانفجـارات : واحـدا تلـو الآخر . والمجتمع يتفـرج بعضـه على بعض . ويغـرق في مآسيه ثم يعيبون الذي يعوم ويسبح في الماء الطهور ! .

ان الضغط يولد الانفجار دائما ، ولقد كان الضغط الموروث على الحياة الزوجية ، مع ما أتيح في الغرب من حريات ، سببا في انفجار مدمر في ناحية الحياة الجنسية والعائلية ، جعل بعض كتـاب الغـرب

يدعون علنا إلى فكرة استهجان الزواج بهذه القيود ، اكتفاء بما يتاح للانسان من إرضاء غريزته الجنسية بسهولة ، مما كان سببا في وجود ظاهرة اللقطاء والأولاد غير الشرعيين بشكل مخيف . .

واذا كان أي مجتمع لا يخلو من نقص وعوارض من هذه الناحية ، فإن ما حدث ويحدث في الغرب من تضخم ظاهرة الانحلال الجنسي وظاهرة اللقطاء والاولاد غير الشرعيين ، أمرٌ يثير الانزعاج ، ويدعو للعلاج السريع .

فقد ذكرت مجلة « ويسبر » الامريكية أنه يوجد في أمريكا عشرة ملايين من الأطفال اللقطاء !! .

وذكرت مجلة « أسباي جوان الايرانية في العدد٩٥٤ انه في احدى مدن بريطانيا رفع تقرير الى « جمعية الشئون الاخلاقية » في البلد عن وضع اللقطاء ، فكان مما فيه : أن عدد اللقطاء في هذا البلد يبلغ نحو ٥٠٪ من المواليد » !!

وذكرت جريدة « الأخبار » في ١٧ / ٦ / ١٩٧١انه « في بريطانيا عثروا على١٣ ألف لقيط وان عدد الأطفال الغير شرعيين الذين يولدون في بريطانيا كل عام يبلغ ٤٠ أربعين ألف طفل . .

وقس على هذا جميع الدول الغربية التي تعيش تحت وطأة القيود الثقيلة على الطبيعة البشرية ، في جو الحرية المفتوحة عندهم . فليقل لنا هؤلاء الذين يتغنون ـ باستمرار ـ بالقيود في أيديهم والسلاسل في أعناقهم ، ويهاجمون الاسلام الذي راعى في تشريعه دواعي الطبيعة ، مع تهذيبها ، وأقر مبدأ التعدد ، ومبدأ الطلاق ، وأحاط المبدآن بضمانات وشروط ، تحد من سوء استغلالهما ، فليقل لنا هؤلاء إذا كان ما في الاسلام عيبا ، فماذا يقولون فيما عندهم ؟ أم أنهم يرون القشة في

عين غيرهم ولا يرون الخشبة في أعينهم ؟ وما هي اقتراحاتهم التي يرونها لعلاج هذه الظواهر المدمرة للحياة عندهم ؟ .

[طوق النجاة]

ان الذين نظروا للمشكلة عندهم ، بعيدا عن التعصب ، لم يجدوا طوق النجاة إلا في التحول إلى ما شرعه الاسلام ، فجهروا بآرائهم ، وان كانت قد تاهت على مر الزمن كما تتوه الآن آراء مثلها في زحمة التعصب وضجته ، ومع ذلك فإنني اعتقد أن هذه الاراء التي ابداها أناس ومفكرون شجعان عقلاء ، دون تهيب من تيار التعصب الأهوج تعتبر صدى قويا لما في نفوس الكثيرين جدا في الغرب للخروج من مآسيهم التي أغرقوا أنفسهم فيها بأيديهم ، حين اختار أسلافهم مؤخرا ، نظام الزوجة الواحدة تشريعا دينيا لهم ، مع أنه لا يوجد ـ حسب المعلومات والمراجع التي رجعت إليها ـ نص صريح يمنع التعدد ، ويعتبر زواج الرجل بزوجة ثانية ، مع بقاء الاولى في عصمته زنى ، ويكون القصد باطلا ، بل ان النص الذي امامي يفيد بمفهومه ان التعدد جائز : فقد جاء في بعض رسائل بولس « يلزم ان يكون الاسقف زوجا لزوجة واحدة » رسالة بولس الأولى إلى تيموشاوس . وهذا للأسقف وحده لا لغيره ولو كان المراد التعميم يقال : « يلزم أن يكون للرجل الخ » .

« وقد ثبت تاريخا أن بين المسيحيين الأقدمين من كانوا يتزوجون اكثر من واحدة ، وفي آباء الكنيسة الأقدمين من كان لهم كثير من الزوجات » .

قـال « وستـر مارك » Westermark العالـم الثقـة في تاريخ الزواج : إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر ، وكان يتكرر كثيرا في الحالات التي لا تحصيهـا الكنيسـة والدولة » .

وعـرض « جـروتيوس » Gratius العالـم القانونـي الشهـير- الموضوع ، في بحث من بحوثه الفقهية ، واستصوب شريعـة الآبـاء العبرانيين والانبياء في العهد القديم[1] وكانت شريعة الآباء والأنبياء في العهد القديم تبيح التعدد دون ما حد . . فكان لنبي الله ورسوله داود تسعة وتسعون زوجة ، ولسليمان سبعمائة عليهما السـلام . . وهـكذا منذ عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، والتوراة التي يعتمد عليهـا المسيحيون في تشريعهم ، تبيح التعدد ، ولم يأتِ في الأنجيل ما ينسخ ذلك ، وقد قال عيسى عليه الصلاة والسلام « لا تظنـوا أنني جئت لأهدم بل لأتمم » ومعنى ذلك تأييد ما جاء في التوراة من إباحة التعدد .

ولا اعتقد ، ولا اقول ، ولا يقول أحد : إن الكنيسة التي ظلت حتى القرن السـابع عشر تعترف بالتعدد ، كانت تخالف دينهـا أو لا تعترف به . . وأن المسيحيين في القرون السبعة عشر كانوا غارقين في الإثـم والزنى ـ من كان يعدد منهم ، ومن رضى ، ومن أباح وبارك !!

يقول جورجي زيدان « النصرانية ليس فيها نص صريح ، يمنع أتباعها من التزوج بامرأتين فأكثر ، ولو شاءوا لكان تعدد الزوجات جائزا عندهم ، ولكن رؤساءها القدماء ، وجـدوا الاكتفـاء بزوجـة واحدة أقرب لحفظ نظام العائلة واتحادها ، وكان ذلك شائعا في الدولة

---

(١) حقائق الاسلام للمرحوم العقاد ص ١٧٧

الرومانية ، فلم يعجزهم تأويل آيات الزواج ، حتى صار التزوج بغير امرأة واحدة حراما كما هو مشهور[٢] .

ولو كان تحريم التعدد قائما على نص صريح من الانجيل ، ما جرؤت الكنيسة الآن على الاعتراف بالتعدد في افريقيا السوداء ، حتى لا يحولوا بين الأفريقيين وبين الدخول في النصرانية - كما قال السيد « نورجيه » في كتابه « الاسلام والنصرانية في اواسط افريقية » ص- ٩٢ ٩٨ وإلا كانت الكنيسة غير أمينة على الانجيل بمخالفتها الصريحة له . .

ثم قال السيد « نورجيه » ذاكرا وجهة نظر المبشرين : « فقد كان هؤلاء المرسلون المبشرون يقولون : إنه ليس من السياسة أن نتدخل في شئون الوثنيين الاجتماعية التي وجدناهم عليها ، وليس من الكياسة أن نحرم عليهم التمتع بزوجاتهم ، ما داموا نصارى يدينون بدين المسيح !! بل لا ضرر في ذلك - وهنا بيت القصيد - ما دامت التوراة وهي الكتاب الذي يجب على المسيحيين أن يجعلوه اساس دينهم ، يبيح هذا التعدد . فضلا عن ان المسيح قد اقر ذلك في قوله : « لا تظنوا أنني جئت لأهدم بل لأتمم » . وقد أعلنت الكنيسة رسميا السماح للافريقيين النصارى بتعدد الزوجات » .

فمنع التعدد - إذن - ليس قائما على نص ، وإنما على رأي اجتهادي ، تقوم النصوص ضده من التوراة ، كما ذكر هؤلاء المبشرون ، ولم يأت في الأنجيل ما ينسخ هذه الإباحة - كما يقولون - وعلى هذا الاساس اعتمدوا واجتهدوا ، وإلا لو كان التحريم بنص ثابت ، ما كان لآباء الكنيسة أن يتلاعبوا به وإلا خرجوا عن

---

(٢) المرأة للمرحوم الدكتور السباعي .

رسالتهم . وإذ كان الرأي الاجتهادي بالمنع قد أتى بالنتائج الوخيمة التي ذكرنا بعضها من قبل في الغرب ، وحمى الله سيحيي الشرق منها ، لوجودهم في بيئات اسلامية ، تقدس العفاف ، وتحترم الأسرة ، فإن من الضروري أن يعيد المسئولون هناك عن الدين نظرهم في هذا الاجتهاد المانع ، وذلك على ضوء الواقع السيء جدا الذي خلفه المنع هناك . . ناظرين الى مصلحة مجتمعهم ، دون تعصب يحملهم على إهدار هذه المصلحة ، كما فعلت الكنيسة بالنسبة لأفريقيا .

إننا نقول إن الاقتصار على واحدة هو الأفضل للزوجين وللأسرة ، ولكنه ليس واجبا ، وليس التعدد من حيث المبدأ حراما ، بل قد يكون مطلوبا . . وإذا راعى الاسلام ظروف الانسان وفتح له باب التعدد لهذه الظروف ، فإن ذلك نعمة وفضل من الله عليه ، وما كان يصح في عرف المنطق ، وتقدير الأمور ، أن يندفع المندفعون بالتعصب أو غيره إلى استهجان هذه النعمة وهذا الفضل ، ويعيبوا الاسلام . ويفضلوا الغرق ، بالتعصب والهوى ، على التماس طوق النجاة من الاسلام وتشريعه ، وإذا كان تعصبهم يدفعهم إلى عدم الاعتراف بفضل للاسلام ، فليرجعوا إلى تشريع التوراة ، الذي يستمدون منه كذلك تشريعهم . . المهم أن ينقذوا مجتمعهم ويداووا أمراضهم وعللهم ، ولا يوقعوا الناس في الضيق والحرج ، ويضطروهم إلى سلوك طرق معوجة ، للخلاص مما هم فيه متنكرين لدينهم . والمهم أكثر ألا يعيبوا الإسلام بما يتمنونه لأنفسهم .

فقد ارتفعت الاقلام ومنذ عشرات السنين بالشكوى المرة من هذا التضييق والمنع ، وبالمناداة بإباحة تعدد الزوجات تخلصا من هذه المآسي . .

[يطالبون بمبدأ التعدد]

● فقد نشرت جريدة « لاغوص ويكلي ريكورد » في عددها الصادر في ٢٠ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠١ نقلا عن جريدة « لندن تروث » بقلم إحدى الكاتبات الانجليزيات ما يلي : وكان هذا من نحو ٨٠ سنة ، فما بالك بالآن :

« لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعم البلاء ، وقل الباحثون عن اسباب ذلك ، واذ كنت امرأة تراني انظر إلى هاتيك البنات ، وقلبي يتقطع ، شفقة عليهن وحزنا . وماذا عسى يفيدهن بثي وحزني ، وإن شاركني فيه الناس جميعا ؟! لا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة .

ولله در العالم الفاضل « تومس » فإنه رأى الداء ووصف له الدواء الكامل الشفاء وهو « الإباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة ، وتصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الاوروبي على الاكتفاء بامرأة واحدة » ، إن هذا التحديد بواحدة هو الذي جعل بناتنا شوارد . . . ولا بد من تفاقم الشر ، إذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة » ، « أي ظن يحيط بعدد الرجال المتزوجين الذين لهم اولاد غير شرعيين ، أصبحوا كلا وعارا وعالة على المجتمع ، فلو كان تعدد الزوجات مباحا ، لما حاق بأولئك الاولاد وأمهاتهم ، ما هم فيه من العذاب الهون ، ولسلم عرضهن وعرض اولادهن . إن إباحة تعدد الزوجات تجعل كل امرأة ربة بيت وام اولاد شرعيين »[3] .

---

(3) مجلة المنار ـ المجلد الرابع ـ المرأة للدكتور السباعي ص٨٢ .

وفي عام١٩٤٨انعقد مؤتمر الشباب العالمي في « ميونيخ » بالمانيا . . وكان مما درسه مشكلة ازدياد عدد النساء في المانيا اضعافا مضاعفة عن عدد الرجال . . وكان في اللجنة التي بحثت هذه المشكلة اعضاء مسلمون فقدموا اقتراحا بالعلاج وهو : إباحة تعدد الزوجات ، فقوبل بشيء من الدهشة والاشمئزاز في بادىء الأمر ، ولكن بعد بحث المشكلة ، اقرت اللجنة توصية المؤتمر بالمطالبة بتعدد الزوجات .

● وفي عام١٩٤٩ تقدم اهالي « بون » عاصمة المانيا الاتحادية ، بطلب للسلطات المختصة ، بأن ينص في الدستور الالماني على إباحة تعدد الزوجات(٤) .

● ونشرت جريدة الأهرام في١١ / ٦ / ١٩٦١أن الحكومة الألمانية ارسلت إلى الأزهر تطلب منه موافاتها بنظام تعدد الزوجات في الاسلام ، لأنها تفكر في الاستفادة منه ، كحل لمشكلة زيادة النساء ، ثم جاء وفد من علماء الالمان واتصلوا بشيخ الازهر لهذه الغاية » .

● « وقد حدثت محاولة قبل هذه المحاولات في المانيا أيام الحكم النازي لتشريع تعدد الزوجات ، فقد حدثنا زعيم عربي اسلامي كبير ان هتلر(٥) حدثه برغبته في وضع قانون يبيح تعدد الزوجات ، وطلب منه أن يضع له نظاما مستمدا من الاسلام ، ولكن قيام الحرب حال دون ذلك » ويقول الفيلسوف والعالم الفرنسي « جوستاف لوبون » في كتابه « حضارة العرب » وقد عاش في الشرق مدة :

---

(٤) الاحوال الشخصية للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ص ١٢١ طبعة ثانية ، المرأة للسباعي ص ٧٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٧٦ .

« لا نذكر نظاما اجتماعياً انحى الاوروبيون عليه باللائمة كمبدأ تعدد الزوجات ، كما اننا لا نذكر نظاما اخطأ الأوروبيون في إدراكه كذلك المبدأ » ثم يقول « إن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الاخلاقي في الأمم التي تقول به ، ويزيد الاسرة ارتباطا ، ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تراهما في أوروبا » .

ثم يقول « لا أرى سببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الغربيين ! مع اني ابصر بالعكس ما يجعله أسمى وأسنى منه ، وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورونا ، من احتجاجنا عليهم ، ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شزرا » . .

وبرغم هذه الأصوات المنصفة المعترفة للاسلام وتشريعه ، وبرغم المساعي الرسمية المبدئية للاستفادة من هذا المبأ الاسلامي في حل مشاكلهم التي نتجت عن المنع ، لا يزال المتعصبون من رجال الدين وأتباعهم في الغرب يهاجمون هذا المبدأ في الاسلام ، ويلاحقون المسلمين بالتهجم على دينهم . والانتقاص منهم ومنه ، ولو كان عندهم إنصاف أو إحساس لأحسوا بما هم غارقون فيه من المآسي والمخازي ، التي برىء الشرق الاسلامي منها ـ والحمد لله ـ بفضل تشريعه الإلهي ، ولكنهم ـ كما قلنا ـ « ينظرون القشة في عيون غيرهم ولا يحسون الخشبة التي تقلع عيونهم » .

إن الله حين قرر هذا المبدأ قرره ، وهو العليم بخلقه ، وبما يصلحهم ، الحكيم في كل ما يدبره ويشرعه لهم ، الرحيم الذي يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر . . وهو حين قرره احاطة بضمانات

وشروط ثقيلة حتى لا يساء استغلاله ، ويجني الناس خيره ، ويتقوا هم ومجتمعهم شره . .

وبينما الغرب يقاسي ما يقاسيه من أنواع المفاسد والشرور في مجتمعه ، نتيجة بعده وعدائه لهذا المبدأ ، يسلم الشرق من هذه المفاسد بفضل هذا المبدأ . وينادي المصلحون في الغرب ويستنجدون به للتخلص من معاناتهم . . ولولا إن بعض المسلمين اساءوا استغلال هذا المبدأ ، فشوهوا شيئا من جماله وجلاله ، يظهر في مخبره ومظهره لامعا يخطف أبصار وقلوب المخالفين . . ولكنه ـ وبرغم ما أصابه من رذاذ ـ خيرلنا وللبشرية كلها الف مرة وملايين المرات ، من هذا الحجر الذي خلف كل هذه المفاسد والمنكرات . . .

عظمة المبدأ مع قيوده

قد يتسرب إلى ذهن بعض القراء ، من طريق خلفي ، أنني حين قارنت بين تعدد الحليلات في الاسلام ، والخليلات في الغرب ، وذكرت اتجاه المصلحين في الغرب ، إلى الاستعانة بنظام الاسلام ، لحل مشكلاتهم المستعصية ، قد يتسرب إلى ذهن البعض أنني ممن ينتصرون للتعدد ، دون قيد ودون حاجة . وحاشاي ان اكون كذلك ، أو ان أرى رأيا غير ما رآه الله وحكم به ، أو أن ابتعد عن خط رسمه الله لعباده ، وقصارى جهد البشر ان يفهموا حكم الله ، ويتبينوا أسراره ، مهما تتسع مداركهم ويمتد علمهم « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، وفضيلة الانسان الأولى أن يعرف نفسه ، ويلزم حده . وينصاع لربه . .

لقد كان تعدد الزوجات قبل الاسلام ، وفي مختلف البلاد والشرائع كما عرفنا مطلقا وبدون حد . . كان مطلقا في شرائع وأديان الأنبياء العبرانيين ، يتزوج الرجل بأي عدد يشاء ، حتى الأنبياء منهم ، فتزوج داود عليه السلام بعشرات منهن ، وتزوج سليمان عليه السلام بمئات الزوجات ـ كما أشرنا من قبل ـ . وظل ذلك هو القاعدة في شريعة موسى ، ومن أتى بعده من الأنبياء ، ولم يأت الانجيل بناسخ له . .

وكان العرب في شبه الجزيرة العربية يسيرون على هذا أيضا . . فكانوا يتزوجون بأي عدد من النساء ويجمعون بينهن ، وظل ذلك ساريا بحكم العادة ، حتى نزل مؤخرا في المدينة : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾(١) فقال الرسول ﷺ لمن كان متزوجا بأكثر من أربع « أمسك اربعا وفارق سائرهن » . وتتابعت الآية في بيان هذا الحكم ، فقالت : بعد ذلك مباشرة : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم ﴾ .

[قيود على المبدأ]

وكان معنى هذا : أن إباحة الوصول إلى أربع زوجات ، والجمع بينهن ، ليس مطلقا ، ولكنه مقيد بشروط وضمانات ، ذكر الله هنا أهمها ، أو أعسرها تطبيقا ، وهو العدل بين الزوجات واولادهن لاسيما في الأمور المادية ، من حيث المسكن ، والنفقة ، والمبيت ، والنظرة ، والكلمة ، وما إلى ذلك ، مما يدخل في نطاق الممكن للرجل ، لا فيما لا يستطيع التصرف والتحكم فيه ، وهو الميل القلبي الذي يقول الله عنه ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾(٢) ولذلك أتبع هذا بوصية حاسمة فنهى ألا يتمادى الانسان وراء قلبه ، بل يتحكم فيه وفي آثاره ما أمكن « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

فكل الميل ممنوع ، لا بعض الميل الذي يحكم به القلب ، ولذلك

---

(١) النساء / ٣ .
(٢) النساء / ١٢٩ .

لما نزلت توجه الرسول إلى ربه وقال : « اللهم إني عدلت فيما أملك ، ولا حيلة لي فيما تملك ولا أملك » وكان يميل بقلبه بحكم الطبيعة ـ للسيدة عائشة ، الزوجة الشابة الصغيرة التي تزوجها بكرا وكانت في العقد الثاني من عمرها .

لكن هذا الميل القلبي لم يحل بينه وبين العدل بين نسائه جميعا ، فيما كان يملك التصرف فيه ، من أمور مادية ظاهرية . .

وحتى لو فسرنا العدل هنا بمعناه العام في الأمور المادية والقلبية على اعتبار أن العدل المطلق غير ممكن لأي انسان فالآية لا تحرم التعدد ؛ لأنه جاء بعد ذلك ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ فيما يفيد وجود اثنتين على الأقل نهى الله عن الميل كل الميل لاحداهما .

فالله حرّم التعدد في حالة الخوف من عدم القدرة على العدل بين الزوجات . لاحظ . . حالة الخوف من عدم العدل ، وهي حالة تنتاب أكثر الرجال وثوقاً من نفسه ، والله إنما يخاطب المؤمنين الذين يخشون ربهم ، ويزنون تصرفاتهم بميزان دقيق ، ويخافون أن يقعوا في معصية الله ، فيقول لهم ، إذا وثقتم تماما وكل الثقة من أنفسكم ، وأنكم ـ لا بد ـ عادلون ، وقادرون على العدل بينهن ، فلا مانع حينئذ من التزوج بأكثر من واحدة . . اما اذا خفتم ألا تعدلوا ، فحرام عليكم ان تتزوجوا بثانية ، بل اقتصروا على واحدة فهذا هو الأسلم لكم ولصلتكم بربكم .

فالقرآن الكريم ـ إذن ـ لم يطلق إباحة التعدد ، بل قيدها بأهم وأعسر شرط ، وهو عدم الخوف من التفرقة بينهن . . ومن ذا الذي لا يخاف ، اللهم إلا القليل النادر ؟ فلا يمكن لأي إنسان ـ إذن ـ أن يطلق

هذه الإباحة ، أو يجري وراء هواه مستهترا ويقول : أنا قادر على العدل ، والأمارات كلها ، تدل على انه لا يقدر ، بل إن بعض الفقهاء أضافوا لذلك ـ اجتهادا منهم ـ القدرة المالية على الإنفاق على زوجتين أو أكثر وأولادهن ، الانفاق والسكن المناسب والتعليم . . الخ . وذلك سدا للفساد الذي وقع من تسرع بعض الرجال ، وجريهم وراء شهواتهم ، والتزوج بثانية وثالثة ، وهو غير قادر على الإنفاق على واحدة ، فيتولد عن ذلك من الشرور والخلافات ، وتشرد الأولاد ، ما يضج منه هو ويضج المجتمع معه !! وانا مع هذا الرأي ، إن لم تكن هناك ضرورة قائمة للزواج . . وكل هذا لضبط هذه الإباحة ، وحصرها في حيزها الشرعي . حتى لا تتولد عنها شرور ومشاكل ، تقع على رأس الزوج أولا ، وتصيب المجتمع .

فهو لا بد أن يوازن بين مكسبه من هذا الزواج ، وبين خسارته الدنيوية والأخروية معا ، ولا بد أن يعمل حسابا لطبيعة المرأة ، وغيرتها الطبيعية من زوجة ثانية عليها ، وما تحسه من تضرر بها حتى سميت « بالضرة » من الضرر حتى لا تحيل الحياة إلى جحيم . . إن غيرة الزوجة من زوجة ثانية تشاركها في زوجها ، أمر طبيعي في النفوس ولا يمكن قمع هذه الغيرة والقضاء عليها نهائيا . ولكن يمكن علاجها وتهدئتها : بالعدل ، والسماحة ، وكرم الخلق ، كما كان يفعل الرسول ﷺ مع زوجاته ، حين كانت تلعب بإحداهن أو ببعضهن عوامل الغيرة . . حتى تركت بصماتها على حياة الرسول ، وفيما نزل من القرآن بشأنها . .

ولا بد للانسان العاقل أن يضع في حسابه هذا الأمر الطبيعي ، وأن يقدر أنه مقبل على خوض محيط قد تلعب به الأمواج العاتية ،

وتسبح فيه الأسماك المفترسة . . فالنســاء يختلفـن حدة وهـدوءا ، في مقابلة هذا العارض ، من زمن إلى زمن ، ومن بيئة إلى بيئة .

ولا بد إن يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، ويزن كل ما يترتب على استعمال هذا المبدأ ، من مكاسب وأضرار ، ويلاحـظ قبـل كل شيء ، رضا الله عن تصرفاته حتى لا يبدأ حياته الجديدة ، محروما من رضا الله وبركته .

فليس الزواج بثانية ـ إذن ـ امرا سهلا مباحا في كل الأحوال ، إذ لا بد من تيقن العدل ، والقدرة على الإنفاق ، حسب المستوى الذي يعيش فيه ، ولا بد من تقدير النتائج ، وتغليب المصلحة على الضرر لاسيما في الأحوال العادية . .

لكن هناك أحوالا يكون استعمال هذا المبدأ ـ مبدأ التعدد ـ أمرا مستحبا ، أوضروريا . ويكون عدم استعماله ملحقا للضرر ، بالفرد والجماعة .

- فالزوجة المريضة التي يصعـب عليهـا قيامهـا بواجبـات الحالـة الزوجية ، وزوجها إنسان محتاج إلى زوجة ، ماذا يفعل ؟

- وزوجة عقيم وزوجها يريد النسـل .

وزوجة انفصلت عن زوجها وانفصل عنهـا انفصــالا نفسيا ، وتغلغلت الكراهية بينهما برغم محاولات ـ الصلح ـ .

- وزوجة أهملت زوجها ، ولم يعد يجد راحة في بيته بسبب سوء تصرفها وخلقها .

ماذا يفعل حين نمنعه عن التزوج بزوجة توفر له حاجته ؟ ألسنا

بذلك ندفعه إلى اقتحام لجة الحرام ؟

● إنه سيتجه فورا إلى استكمال النقص الذي يشعر به ، عن طريق غير مشروع ـ كما يحصل في الغرب ـ وله نتائجه الخطيرة ، في كل اتجاه ، على كل من الرجل والمرأة والأولاد والمجتمع .

وأمة كثر فيها عدد النساء عن الرجال ، بسبب الحروب ، التي أفنت كثيرا من الرجال ، هل من المصلحة أن نقصر الرجل على زوجة واحدة ، ونترك الباقي عوانس شوارد ، لا يجدن حاجتهن في الزواج ، ولا يؤدين مهمتهن في الإنجاب ، وتعويض ما نقص من الأمة ؟ أم أن الحالة لا يعالجها إلا أن يضم كل رجل إلى زوجته زوجة ثانية شرعية ، يأويها ويكرمها ، وتنجب له وللأمة الأولاد ؟

يقول العلامة « سبنسر » في كتابه « أصول علم الاجتماع » معترضا على الزوجة الواحدة :

« إذا طرأت على الأمة حرب اجتاحت رجالها ولم يكن لكل رجل من الباقين ، إلا زوجة واحدة ، وبقيت عديدات بلا أزواج ، فإنه ينتج عن ذلك نقص في عدد المواليد لا محالة ، ولا يكون عددهم مساويا لعدد الوفيات ، فإذا تقاتلت أمتان ، مع فرض انهامتساويتان في جميع الوسائل المعيشية ، وكانت إحداهما لا تستفيد من جميع نسائها بالاستيلاد (أي الشرعي) فإنها لا تستطيع ان تقاوم خصيمتها ، التي يستولدرجالها جميع نسائها . وتكون النتيجة أن الأمة الموحدة الزوجات ، تفنى أمام الأمة المعددة الزوجات » . .

ولم ينظر « سبنسر » في هذا إلا إلى الناحية الحربية ، ودفاع الأمة عن نفسها ليضرب بها المثل ، ولم يهتم بما يتولد عن النساء العوانس

الشوارد ، من تعاسة لهن ، ومن فساد خلقي ، يغشى الأمة كلها ، لكنها على كل حال ، ظرف يستدعي إقرار مبدأ التعدد ، مثل جميع الحالات السابقة التي ذكرناها . .

فإنه خير للمرأة وأهلها ، وللرجل وأهله ، وللمجتمع كله ، أن يتزوج زواجا شرعيا بثانية ، يصون به كرامته وكرامتها ، ويعترف بحقوقها وأولاده منها . .

وهذه الحالات حتى وان قيل بأنها قليلة ، لكن المشرع الاسلامي لم يغفلها ، ووضع لها دواءها وعلاجها . . والتشريع المكتمل هو الذي يراعي الظروف والمصالح ، ويضع لكل ظرف ما يناسبه ، ولا يترك ثغرة ينفذ منها الفساد . . وكذلك كان تشريع الاسلام .

ولأن نطرح دواء ناجعا ، للقضاء على بعض الامراض ، ومجابهة الحالات الطارئة ولو قليلة ، ونضع الاحتياطات المشددة لاستعماله ، خير ألف مرة من حجبه عن المرضى نهائيا خوفا من استعماله ، ونترك الداء يفتك بالنفوس !!

يقول المستشرق الفرنسي الذي أسلم « ناصر الدين دينيه » في كتابه « محمد رسول الله » كما جاء في كتاب المرأة للدكتور السباعي ، وكتاب « أوربا الإسلام » للدكتور عبد الحليم محمود .

« إن الاسلام لا يتمرد على الطبيعة التي لا تغلب ، وانما هو يساير قوانينها ، ويزامل أزماتها ، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ، ومصادقتها في كثير من شئون الحياة » ولذلك تنهزم أمام الطبيعة ، حتى اضطرت لاباحة التعدد في افريقيا .

« والاسلام لا يكفيه ان يساير الطبيعة ، وإنما هو يدخل على

قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا ، واسهل تطبيقا ، في اصلاح ونظام ، ورضا ميسور مشكور » .

« والواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر ارجاء العالم ، وسوف يظل ما وجد العالم ، مهما تشددت القوانين في تحريمه ، ولكن المسألة الوحيدة ، هي معرفة ما إذا كان الأفضل : أن يشرع هذا المبدأ ويحدد ، أم أن يظل نوعا من النفاق المتستر ، لا شيء يقف أمامه ، ويحد من جماحه » ؟

وقد فعل الاسلام الشيء الطبيعي ، فأباح مبداه ، ونظمه ، ووضع له الضمانات .

« وهل حقيقي أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة ، وتشديدها في ذلك ، قد منعت تعدد الزوجات ؟ ، وهل يستطيع إنسان أن يقول هذا ، دون أن يأخذ منه ومنا الضحك مأخذه ؟ » .

« إن ما فعلته المسيحية ، لم يأت بالغرض الذي أرادته ، بل انعكست الآية معها ، وصرنا نشهد الاغراء بجميع أنواعه ، وظهرت سيئات ذلك في ثلاث نتائج واقعية ، شديدة الخطر ، جسيمة البلاء ، وهي « الدعارة ، والعوانس من النساء ، والأولاد غير الشرعيين » .

« وإن هذه الأمراض لم تعرفها البلاد التي طبقت الشريعة الاسلامية ، وإنما دخلتها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية » !

إن الوقوف في وجه الطبيعة للقضاء عليها نهائيا غير ممكن ، كالوقوف في وجه الفيضان الجارف لمحاولة منعه ، وإنما الممكن - كما يقول علماء النفس ، وعلماء الري والسدود ، وكل العقلاء - أن نعمل

على الحد من هذا الفيضان ، بوجود مسارب للفيضان ، وإقامة بعض الموانع للحد من أخطاره ، وهو ما يسمى في علم النفس : بتعديل الغرائز والسمو بها . .

وقد فعل الاسلام ما يقضي به العقل ، وما يتمشى مع الطبيعة ، مع السمو بها ، وتعديلها ، ووضع الحواجز والضوابط لها ، والتعدد إلى أربعة أمر مباح في الاسلام ، يمكن أن يدخل عليه من الضوابط والأحكام ، ما يدخل على الأمر المباح شرعا ، ويمكننا بتقلب الزمن ، وتغير الاوضاع من بيئة إلى بيئة ، أن نضع له من الضوابط الجديدة ما يبقى على المبدأ ، وما يجعل تطبيقه امرا سليما ، لا يأتي بالضرر ، الذي تقف الشريعة دائما للحيلولة منه ، فلا ضرر ولا ضرار ، ودفع المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وتحدث للناس أقضية ، بقدر ما يحدثون من فجور . . وهذه كلها قواعد شرعية نافذة المفعول . .

فإذا وجدنا بعض الناس يسيئون استعمال هذا المبدأ ، وينتج عن ذلك مفاسد ، ضارة بالاسرة ، وبالمجتمع ، فإن لنا أن نضع من الضوابط على استعمال هذا المبدأ المباح ما يحول دون هذه المفاسد ، ولا يقضي على المبدأ ، بل يظل قائما ، ليستعمله الصالحون شرعا لاستعماله . .

فإذا وجدنا ـ مثلاً ـ طبقة من الناس تجري وراء شهواتها ، وتعدد الزوجات ، لمجرد زيادة طارئة في دخلها ، دون أن تعمل حسابا للغد ، حين تزول هذه الظروف ، التي اتت لهم بمكاسب كثيرة ، أغرتهم بالزواج ، كما حصل من بعض العمال أثناء الحرب الثانية ووجود فرص العمل أمامهم ، فأقبلوا على الزواج والتعدد ، دون أن يعملوا حسابا لأن الحرب ستنتهي ، والظروف التي تمر بهم لا تدوم ،

وحينئـذ لا يجـدون ما ينفقونـه حتـى على أنفسـهـم . . فماذا تفعـل الزوجات وأولادهن ؟

من الممكن ان نضع علاجا وضابطاً، يضبـط هذه التصرفـات الحمقاء ، دون أن نمس استعمال المبدأ للصالحين لاستعمالـه ؛ لأننـا نحاول ـ فحسب ـ منع الضـرر ، واساءة استعمال المبدأ . .

وإذا كان العـدل بـين الزوجـات استعـدادا نفسيا ، وإحسـاسـا داخليا ، لا يمكن ضبطه حين الاقدام على العقد ، ولكن يمكن ضبطه بعد الزواج ، ويتـرك امـره للزوجـات وللقـاضي ، لكن القدرة على الانفاق على زوجتين وأولادهما ، أمر يمكن بحثه ، والبت فيه ، حين الاقدام على العقد . . ولذلك يمكن وضعه من الشروط التـي تشتـرط حين الإقدام على التعدد ، حتى لا نترك الأمر لشهوة الرجل وتفكيره الخـاص ، فإن للمجتمـع أن يتدخـل لحفـظ البيوت والأعـراض والأولاد ، بسن قانون لهذا . .

وهذا هو ما اخذت به سوريا في قانون الأحوال الشخصية الصادر في١٧ / ٩ /١٩٥٣حيث أجاز للقاضي ألا يأذن بإجراء العقد ، إذا تبين له عدم قدرة الزوج ، على الانفاق على زوجتين ، الانفاق المناسب له ولها ولأولادهما . . علما بأن عدم الإذن لا يفيد عدم صحة العقـد لو تم . . ولكن صاحبه يتعرض للجزاءات التي يضعها القانون في هذه الحالة لمخالفته للإجراءات . .

وهذا من قبيل التنظيم لاستعمال المبدأ ، للحد ما أمكن من إساءة استعماله ، لا لإبطاله .

ولا يمكن أن يحتج عاقل ضد هذا التنظيم ، أو غيره ، مما تدعو

إليه الضرورة ، بأن ذلك لم يكن موجودا في القرن الأول أو القرون بعده . . لأن عدم وجوده قديما لا يمنع من إيجاده الآن ، للضرورة التي تدعو إليه ، ولمنع كثير من أوجه الفساد التي نلمسها ، من إساءة استعمال الحق .

والقواعد الشرعية كلها تساعدنا على ذلك ، كما تساعدنا السوابق

التي جدّت بعد الرسول ﷺ ، من تقييد الصحابة والتابعين بعض الأمور المباحة ، واستحداث أحكام جديدة ، تستدعيها مصالح الناس ، حيث لا يصلح أمورهم إلا هذه القيود ، أو الأحكام الجديدة ، كما حصل في تضمين الصناع وكانوا لا يضمنون ، وقيل « لا يصلح الناس إلا هذا » ، وقال سيدنا عمر بن عبد العزيز « تحدث للناس أقضيته بقدر ما يحدثون من فجور » ، ومرونة القواعد الشرعية وعمومها ، وإمكان استحداث بعض القيود والاحكام ، لتنظيم استعمال الأمور المباحة ، ولمجابهة الفساد المستجد ، هو من العوامل التي تعطي الشريعة صلاحية لكل زمان ومكان .

والمهم الأول والأخير ، ألا يعطل استعمال هذا المبدأ ، وألا يوضع له من الضوابط التعسفية ما يحول دائما من استعماله . . لا لمجرد انه أمر أباحته الشريعة ـ فحسب ـ فلا يجوز لنا منعه ، لأننا ـ شرعا ـ يمكن كما أمكن إيقاف العمل ببعض الأمور المباحة ، لظرف من الظروف الداعية لذلك ، بل لأن هذا المبدأ في ذاته ، إنما هو لصالح المسلمين ، وصالح البشرية كلها ، وحظره بصفة عامة ، يأتي بأضرار كثيرة ، لا قبل للمجتمع المسلم بها ، بل لا قبل للبشرية كلها بها ، كما رأينا ذلك واقعا في البلاد التي حظرته .

[الشيء بالشيء يذكر]

ومن قبيل هذه الأمور المستحدثة ، أو القيود المستجدة للحد من اساءة استعمال هذا المبدأ ، واندفاع الناس في استعماله ، دون مبالاة بالأضرار الاسرية ، والاجتماعية التي تترتب عليه ، ما استحدثه التعديل الأخير لبعض مواد قانون الأحوال الشخصية الذي صدر به القرار رقم ٤٤ سنة ١٩٤٩ والذي جاء في إحدى مواده (المادة ٦ مكررا) :

« ويعتبر اضرارا بالزوجة اقتران زوجها بأخرى بغير رضاها ولو لم تكن اشترطت عليه في عقد زواجها عدم الزواج عليها ، وكذلك إخفاء الزوج على زوجته الجديدة ، انه متزوج بسواها » .

فقد راعى المشرع ، الحقيقة الواقعة في المجتمع المصري ، والتي لا يمكن إنكارها ، والتي تؤدي دائما الى صراع وعداوات ، تمتد الى الأولاد ، وعائلتي الزوجين . . . وهي الحساسية المفرطة في الزوجة المصرية خاصة تجاه زوجة ثانية ، على عكس ما هو معروف تاريخيا ، من عدم الافراط في هذه الحساسية ، ومعروف حاليا في بعض المجتمعات في الجزيرة العربية .

إذ اصبح من المألوف شبه المقرر عندهم ، أن الزوج لا يكتفي بواحدة . . ونجد العريس قد نشأ في بيت تعددت فيه الزوجة ، وكذلك العروس ، حتى صار المحبوب عندهم هو التعدد ، وقد سمعت الكثيرين من الطلاب والاساتذة وغيرهم ، حين إقامتي هناك ، استنكارا لتمسك المصريين أو اكتفائهم بواحدة . . ولذلك تسير الأمور في التعدد هناك عادية ، فلا يظهر نزاع ، ولا محاكم . ولا

عداوات حادة بين الضرائر ، ولا بين الأولاد . . على عكس ما عندنا تماما . .

ولهذا راعى المشرع المصري الظروف المصرية الواقعية ، وما تفرزه من نزاع ، وعداوات واضرار ، ورأى ان الزواج بثانية في ظل هذه الظروف يعتبر إضرارا بالزوجة . . وهو لا شك إضرار بها ، لا يستطيع أحد أن يكابر وينكر ذلك . . ولا عبرة ـ عقلا وشرعا ـ بأحوال وأحكام في التاريخ الماضي ، أو في الحاضر ، في بعض البيئات ، مما يخالف واقعنا ، فنحن هنانقنن لهذا الواقع المصري بما يحل مشاكله ، ويجابه حالاته . . ولا ندعي أن ذلك لغيرنا . .

وكل مجتمع له مشاكل خاصة ، وله أن يقنن لها من الشريعة ، بما لا يتصادم مع نص ، أو قاعدة عامة ، ولا يرد عليه أن هذا مخالف للماضي ، أو بعض المجتمعات في الحاضر ؛ لأن هذه المخالفة لا ضرر منها ، ولا حجة علينا بها . . إذ للمشرع بل عليه ، أن يراعي ظروفه الخاصة ، ويعالجها . .

والاحكام الفرعية يمكن أن تتغير شرعا من بلد ، إلى بلد ، ويؤخذ في اعتبارها العرف الجاري ، « فالعرف في الشرع وأحكامه له اعتبار » والمعروف عرفا كالمشروط شرطا كما يقول الفقهاء .

وقد غير الشافعي بعض آرائه التي أبداها في بغداد ، حين استقر في مصر ، مما سمي في فقهه : بالمذهب الجديد ـ آخذاً بالاعتبارات الجديدة التي وجدها في مصر . . ومنذ جاء الاسلام ، والفتوى تتغير بتغير العرف ، ويقرر ذلك كل علماء الفقه والأصول ، والذين تحدثوا من العلماء في السياسة الشرعية .

يقول المرحوم الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر سابقاً »(٣) .

مراعاة العرف ، وتحكيم ما يقضي به ، أمر واجب في سياسة الأمة ، وتدبير شئونها ، على وفق مبادىء الشريعة .. وقد راعاه الفقهاء المسلمون من قديم ، وحكموا بمقتضاه .. الخ » وقد صدرت عندنا في قوانين الأحوال الشخصية ، أحكام خاصة بمصر ، لم نلزم بها غيرنا ، مراعاة لظروفنا .

ومن ذلك قانون وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، طلقة واحدة .. وكذلك في الطلاق المعلق ، وصدر قانون الوصية الواجبة ؛ لعلاج بعض المشكلات ، بينما لم تأخذ بعض الدول الاسلامية بهذا . فنحن نشرع لمجتمعنا ، ولحل مشكلاتنا ، في نطاق الجائز من الشريعة ، ولكل مجتمع ظروفه ومشكلاته ، والشريعة متسعة ومتقبلة لحل هذه المشكلات حيثما توجد .. والقانون الجديد لم يغير حكما ، فلم يمنع التعدد ، ولكنه قرر شرطا فيه وهو « رضاء الزوجة الموجودة » منعا لما يترتب على عدم رضائها من مشكلات ، واعتبر التزوج بثانية ، إضرارا بالأولى ، وهو إقرار من القانون بالحالة الموجودة فعلا في مجتمعنا ، وأجاز لها أن تطلب الطلاق بسببه ، كما اجاز لها ان تشترط في العقد عدم التزوج بثانية منعا للإضرار بها ، وإجازة هذا الشرط في العقد إقرار ضمني بالإضرار بالزواج عليها .

وما دام فقه الامام مالك يجيز الطلاق للضرر ، وأخذت بذلك قوانيننا ، وهناك ضرر فعلا يقره الجميع في مجتمعنا ، يلحق بالزوجة من التزوج عليها ، فالذي تقرر في المادة الجديدة ليس الا تطبيقا على هذا ،وأخذاً بقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » فهذه النقطة ليس عليها اي

(٣) ص ٨٣ من كتابه « السياسة الشرعية » .

غبار من جهـة الشريعـة بأي حال من الأحـوال . . والـذي يريد ان ينافش ، يناقش في : هل هناك ضرر على الزوجة من الزواج عليهـا أولا ، هل تتضرر أولا ؟ فإذا أقرّ بالواقع فعلا عندنا وهو انها تتضرر ، انتهى الأمر ، وإذا انكر انها تتضرر ، يكون مخالفا للواقع فعلاً وللذي يمسه هو لو حصل ذلك لبنته .

والقرآن يقول ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ فيكف يريد الزوج الخروج على هذا الأمر ، ويمسكها رغم أنفها حين يتزوج عليها ؟ حتى ولـو لم تكن هنـاك مادة في القانـون تخـول لهـا الفـراق ، فأمـر الله الصريح أولى بالمراعـاة والخـوف ، من مادة في قانون . . فلا وجه ـ إذن ـ للتصايح والمزايدات ، وإن كان مثل ذلك لم يخل منه أي قانون اصلاحي جديد . .

فالمادة المستحدثة قيد سيحد فعلا من التلاعـب بمبـدأ التعـدد ، وسوء استعماله ، وإن كانت لم تمنع المبدأ وما كان لها أن تمنع أو تشترط شروطا تعسفية . . وكثير من الزوجات يؤثرن البقاء في كنف الـزوج بدلا من الفراق : « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته » ، ويستريح الطرفان من المشاغبات والمشاحنات . .

قد يقـال : إن القانـون خلا من الاحتياط لبعض الضرورات ، التي تدعو الزوج للزواج ، كمرضها ، أو عقمهـا مثـلا ، فالزوجـة بطبيعتها حين يترك الأمر لها ، لا ترضى بشريكة لها ، ولكننا نقول إن هذه المريضة او العقيم ستجد نفسها أمام خيار واحد ، إما أن ترضى وتعيش ، وتقدر ظروف زوجها ، وإما أن تفارق ، والأمر لها والقاضي الذي ينظر في الأمر سيكون له تقدير الظروف .

وهذا هو الذي قدره الذين نظروا في القانون ، حين إقراره فاذا كان الذين يتقدونه يودون النص عليه صراحة ، فمن الممكن أن يتقدم أحد أعضاء مجلس الشعب بهذا التعديل الآتي :

● يعتبر إضرار بالزوجة اقتران زوجها بأخرى بغير رضاهـا ما لم يكن هناك ضرورة أو حاجة للتزوج بثانية لعقـم أو مرض يؤثـر على الحياة الزوجية .

وعلى اي حال فمبدأ التعدد الذي اقره الاسلام في حدود الأربعة ، وبالضمانـات التـي وضعهـا أو يمـكن وضعهـا هو اصلـح وأنسـب التشريعات وعلى المسلمين أن يحرصوا عليه وعلى الضمانات التي تجعله مصدر خـير لهـم ، ولا يتـركوه ، يعبـث به العابثـون من أصحـاب الشهوات والنزوات ، الـذين لا يخافـون الله ، ولا يعملـون حسابـا لحياتهم ، وحياة أولادهم ، ويشوهـون بذلك وجـه المبـدأ الجميل ، ويحولونه إلى وجه قبيح .

وإذا كان يقال : إن هذا سيجعل مع الزوج زوجة واحدة ، فإننا نقول : لسنا مغرمين « بوجع الرأس » وما دام الباب مفتوحا للزوج ، أن يتزوج بأخرى ، في ظل الضمانات المفروضة ، أو بالتطليق فإننـا بعيدون جدا عن وضع المجتمعات الأخرى ، التي تلزم الزوج بأن يبقى مع زوجته مدى حياته أو حياتها ، لا يستطيع التزوج عليهـا . ولـو برضائها ، ولا يستطيع تطليقها .

وإذا قيل : إن في بعض كتب الفقه « أن التزوج بأخرى ليس من باب الضرر » فإننا نقول : إن هذا الرأي الفرعي من اجتهـاد فقيه ، وليس من نص آية أو حديث ، وهـذا الاجتهـاد مبنـي على بيئـه

ومجتمعه ، الذي كان يعيش فيه ، والذي تقبل فيه النساء عادة زوجة ثانية عليها ، ولا تحدث مشكلات بسبب هذا الزواج الثاني ، كما هو حاصل في مجتمع الجزيرة العربية الآن . . فقوله هذا ليس حجة علينا ، ولا يقطع أو يلغي ما يحدث عندنا . . كما أن قول فقيه من الجزيرة الآن ، ليس حجة على ما عندنا ، فلكل أوضاعه ، ولا بد للتشريعات من أن تعالج هذه الأوضاع هنا أو هناك ، دون أن نربط هذا بذاك .

ونحن لا نقول هذا متبعين فيه الهوى ، بل نحن نسير على ما سار عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم في صدور أحكامهم الشرعية ، مراعين فيها العرف والعادة وتغير الزمن ، وضرورة تغير الحكم ، لتغير النفوس والظروف ، ليعالجوا ما جد من مشكلات ، ويمنعوا الضرر ، فكان وضع احتياطات لضمان حسن تنفيذ المبدأ ، وعدم استغلاله استغلالا سيئا . . كعلم الزوجة القديمة ورضائها ، وعلم من يريد التزوج بها بأن له زوجة ثانية . . فهذه كلها احتياطات مستحدثة لصيانة المبدأ من سوء الاستغلال ، كما استحدث ضرورة توثيق عقد الزواج ، لمصلحة الزوجين والأولاد . . مع ان الزواج يتم وينعقد بمجرد التلفظ بالصيغة الشرعية من المختصين بها ، فلكي تكون الحياة الزوجية « على نور » وبعيدة عن القلاقل « والمطبات » أضافت المادة الجديدة بعض القيود . دون أن تمس المبدأ ذاته . .

ولا بأس من أن أضع أمامك بعض أمثلة من ذلك تدل على ان الحكم يتغير بتغير الظروف :

● كانت السيدة عائشة رضي الله عنها كما روى مالك والشيخان

ترى عدم خروج النساء للصلاة في المساجد ، في اواخر أيامها ، مع ان امامها حديث رسول الله ﷺ « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » وقالت السيدة عائشة تبريرا لرأيها في أن الظروف اختلفت تعني ان الرسول أباح ، حين كان الصلاح موجودا ، أما وقد تغير الحال . وظهر من الخروج فساد ، فلا بد من تشريع آخر للقضاء على هذا الفساد ، وهو منعهن من الخروج . .

فهل يمكن أن يحتج محتج بأن الفتوى الجديدة باطلة ، لأنها مخالفة لما قاله الرسول ؟

● منع الرسول ﷺ صحابته من التقاط الابل الضالة في الصحراء بينما أباح لهم التقاط ضالة البقر والغنم ، وقال لهم دعوا الابل ولا تلتقطوها ، ترد الماء وترعى الشجر ، وفيها وعاؤها ولها خفافها ، ولا يخاف عليها من الناس أو الحيوان المفترس كالذئب مثلا . .

فلما فسد الزمان ، وتغيرت الأخلاق ، وكثر الواردون الغرباء على المدينة ـ الرائحون والغادون ، خيف على الابل ، فكانت المصلحة في التقاطها . وتم ذلك فعلا في عهد عثمان رضي الله عنه وأقره الصحابة . مع أن أمامهم حديث رسول الله ، المانع من الالتقاط . . هل يستطيع أحد أن يخطىء عثمان وبقية الصحابة فيما أفتوا وفعلوا ؟ وهل يمكن أن نعدهم خارجين على سنة رسول الله ؟ لا شيء من ذلك ، وإنما هو الحكم الذي يتبع المصلحة ، ويدور معها ، وفهم الصحابة ان رسول الله لو كان موجودا حين تغيرت الظروف ، لأشار بما أشاروا به من التقاط الابل ، تحقيقا للمصلحة . .

● موضوع آخر : وهو أخذ الأجر على تحفيظ القرآن ، وعلى الانقطاع لامامة الناس في المساجد . .

رأى الامام ابو حنيفة تحريم الاجر على تحفيظ القرآن ومثله الامامة . . مستدلا بما رواه الإمام أحمد « احفظوا القرآن ولا تغلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به » .

ولكن أصحابه خالفوه ، وأفتوا بغير رأيه ؛ نظرا لأن الظروف تغيرت عما كانت عليه أيام أبي حنيفة ، حيث كان لهؤلاء عطايا من بيت المال ، والأهالي يجزلون لهم العطايا والهبات ، فلم يكونوا بحاجة الى راتب خاص لهم . .

لكن الحالة تغيرت ، ولم يعد للحفاظ وامثالهم عطايا وهبات يعيشون منها ، وهم إن انقطعوا عن التحفيظ وانصرفوا الى طريقة يعيشون منها ، ضاع تحفيظ القرآن ، ما دمنا لا نرتب لهم اجرا ثابتا لانقطاعهم للتحفيظ .

وما دام قد ترتب على رأي ابي حنيفة مفسدة لتغير الزمن فيجب ترك رأيه إلى رأي آخر يحقق المصلحة وهو إعطاؤهم الأجر . . ورأيه والحديث ايضا محمولان على حالة وجود هبات وعطايا للحفاظ يستغنون بها في معيشتهم وهكذا تتغير الفتوى وراء المصلحة ودفع المفسده ، ما دامت في أمور فرعية .

ويقول الفقهاء والاصوليون في مثل هذا إنه اختلاف عصروزمان وعرف وتقاليد . .

ومن ذلك ايضا وهو اختلاف الفتوى حسب العادة والعرف والمصلحة . . ما كان من عدم تضمين الضياع والحمالين على هلاك ما أخذوا لتصنيعه ، وما حملوه لايصاله إلى الدار . . بإعتبار أن يدهم يد أمين على ما أخذوا وما حملوا ، ولا ضمان على مؤتمن بنص

الحديث ، ولكن لما تغيرت ذمم هؤلاء وضاعت امانتهم ، واصبحوا يعبثون بحاجات الناس ، بناء على انهم لا يضمنون ثمنها ، رأى الصحابة والعلماء والمفتون تضمينهم . وقالوا « لا يصلحهم إلا ذاك » أي تضمينهم حتى يحافظوا على أموال الناس . .

فعلى هذا النسق : كان الزواج بثانية في الماضي لا يحدث إضرارا بالأولى ، فكانت الأمور تجري في مجاريها ، دون داع لأخذ احتياط ، فلما تغيرت النفسيات ، ولو في بعض المجتمعات ، وأضبحت الأولى تتضرر ، ويترتب على ذلك من المشاكل ما يترتب ، مما هو معروف عندنا ، احتاج الأمر الى وضع ضوابط لمنع هذه المشاكل الأسرية ، فجاءت المادة تشترط إعلامها ورضاها ، فإن رضيت انتهى الأمر وانقطعت المشاكل ، وإن لم ترض فإننا لا نكرهها على البقاء ، تمثل « خميرة عكننة ومشاكل » في البيت ، وذلك تطبيقا لقوله تعالى ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ وقطعا لدابر المشاكل . . وهذا تطبيق حسن لشريعة الله . . يحقق المصلحة ، وان اختلف عما كان من قبل ، لأن الفقه الاسلامي جرى على تغيير الفتوى بتغير الزمان ، وحسب المصلحة .

فالذين عارضوا هذه النقطة ، وقالوا انها مخالفة لما جرى عليه العمل في السابق ، كانوا في حاجة إلى نظرة أوسع وأعمق في فقه السابقين ، وما جروا عليه ، مما ذكرنا أمثلة له ، وما كان لهم أن يجمدوا على قول قاله أحد الشراح في زمن غير زماننا ، وبيئة غير بيئتنا . . وأمامهم الحشد الكبير من الوقائع والأحكام التي تغيرت لتغير الزمان . . وأقوال الأئمة والفقهاء الكبار في هذا . . يقول العلامة الفقيه الحنفي الكبير ـ ابن عابدين ـ وهو من فقهاء العصر الماضي :

لحدوث ضرر ، أو لفساد أهل الزمان ، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه اولا ، للزم منه المشقة ، والضرر بالناس ، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف واليسر ، ودفع الضرر والفساد ، ولهذا نرى مشايخ المذهب خالفوا المجتهد في مواضع كثيرة ، بناها على ما كان في زمنه ، لعلمهم أنه لو كان في زمنهم لقال بما قالوا ؛ أخذا بقواعد مذهبه »(٤) .

وأخيرا

نتتهي من هذا كله لنقول : إن مبدأ التعدد في الاسلام ، هو المبدأ الأصيل الذي جعله الله بابا لحل مشاكل كثيرة ، واذا ترتبت عليه أية مشكلة ، أو أي ضرر ، فإن لنا أن نسارع شرعا ، لحمايته من جلب أضرار على الناس ، وبقائه مصدر خير لهم ، حين يرون استعماله ، ولو كان فيما نضعه من قيود لحمايته مخالفة لما جرت عليه الفتوى ، في السابق ، وجرى عليه العمل ، فالفتوى تتغير بتغير العرف والزمن ، وحسب المصلحة ، ما دامت لا تصادم نصاً قرآنيا ، أو مبدأ إسلامياً ثابتا . .

(٤) راجع ما كتبته في هذا في كتابي « إسلام لا شوعية » في باب « مشاكلنا في ضوء الاسلام » ص ١٩١ وما بعدها .

حقوقها المالية بين الشرق والغرب

إن بعض الأفكار المريضة ، التي تحاول خدش تشريع الاسلام للمرأة ، تلتمس بعض الموضوعات ، التي قد تلتبس على بعض ذوي الأفكار السطحية ، أو المريضة ، لتشوش على الاسلام .

ومن هذه الموضوعات كون ميراث الأنثى على النصف من ميراث الذكر .

ومع أن ذلك ليس عاما في كل حالات الميراث ، كما في حالة وجود الأب والأم وأولاد للميت مثلا ، فإن الأم تتساوى مع الأب ، في أن لكل واحد منهما السدس . ويكون للبنت النصف أحيانـا . . « وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد » وبينما يأخذ الأب الرجل السدس تأخذ البنت النصف ، وإن كان لها عدة أعمام ذكور فإن كل واحد يأخذ أقل منها .

وهذا يعني أن إعطاء الذكر مثل حظ الأنثيين ، ليس مطردا وليس راجعا ـ كما يقول المغرضون ـ إلى نظرة امتهان للمرأة ، والا لو كانت هذه النظرة هي الأساس والقاعدة في الميراث لما ساواها مع الرجل أو جعلها تأخذ أكثر منه في بعض الحالات .

إذن لا بد أن يكون هناك أساس غير هذا الذي يقوله المغرضون

بني عليه زيادة نصيب الرجل على الأنثى في بعض الحالات . وهـذا الأساس بعيد كل البعد عن نظرة الامتهان أو الاحترام ، وإنما هو قائم على أساس الأعباء المفروضة على كل منهما ، أخذا بنظـرية « الغنـم بالغرم » تحقيقا لمبدأ العدالة . .

فليس من العدل أن يتساوى الأولاد مثلا في الغنم وهو النصيب مين التركة ، ثم حين نقسم الأعباء والمسئوليات نحمل الرجل أكثر مما نحمل الأنثى . .

فإن المفروض المقرر في الاسلام ، وعند ذوي الطبائع السليمة ، وفي التشريعات القويمة ، أن يقوم الرجل بالدور الأول في الاسرة ، من حيث الحفاظ عليها ، ومراعاة الواجبات لها داخلا وخارجا ـ وذلك لأن الاسلام يحرص الحرص كله على إيجاد الروابط الأسرية وتدعيمهـا ، وعلى صلة الرحم وتقويتها ، مما يقوي البنيان في الأمة الاسلامية .

فالرجل مسئول عن رعاية والديه ، والإنفـاق عليهما ، حـين لا يكون لهما مال ، وهو المسئول الأول ـ لا المرأة ـ عن أولاده منها ومن غيرها وتربيتهم ، مسئول عن ذلك أدبيا وقضائيا ، ومسئول كذلك عن استمرار « بيت العائلـة مفتوحـا » لمن كانـوا يرتادونـه في حياة أبيه ، ومفتوحا كذلك لأخواته البنـات ، ومسئـول عن رعايتهـن وحمايتهـن وبرهن ، وبر أولادهن ، باعتباره خالا لهم ، وباعتباره رجـل البيت بعد وفاة رب العائلة .

والرجل كذلك هو الذي يقوم بدفع المهر ، حين يتـزوج وتجهيز البيت ، على عكس المرأة ، فهذه المغارم وغيرها من المسئوليات تلقى على عاتق الرجل لا المرأة . . ومن حقه ـ عدلا ـ أن يزود ويعوض بما يمكنه من القيام بهذه المسئوليات القانونية الشرعية ، والمسئوليات الأدبية

تجاه أسرته . . ومن هنا جاءت زيادته في الميراث عن أخواته البنات . مراعاة للقاعدة العادلة « الغنم بالغرم »

وإلا لو تساوى الرجل مع المرأة في الميراث مع مسئولياته هذه تجاه نفسه وتجاه أسرته ، لكان معنى ذلك تناقص ما يأخذه الرجل من الميراث ، حتى يتلاشى ، إزاء هذه الواجبات الملقاة عليه ، بينا تحتفظ المرأة بما تأخذه وتنميه ، وتكون النتيجة ظلما بينا يلحق بالرجل . .

ولذلك نرى من واقع هذا الجو الاسلامي الذي تحاط به الأسرة ، نرى البنات مدركات لهذا كله ، راضيات كل الرضا بهذا التقسيم ، وهذا الحظ . . عارفات أنهن على كل حال ، هن الفائزات ، ولأن يظل بيت العائلة « مفتوحا » ، ويظل الولد استمرارا لأبيه ، في فتحه ، ورعايته ، ورعاية أخواته ولو بالود والتراحم ، ورعاية كل من كان يرعاهم الوالد ، خير لهن « وزي العسل » على قلوبهن ، من ان ينتكس كل شيء كان في حياة الوالد ، وتضيع هيبة الأسرة بين الأسر حولها ، ويفقدن رعاية اخيهن ووده لهن .

إن لكل نظام أو تشريع قاعدته ونظريته ، والقاعدة أو النظرية التي انبثق عنها تشريع الاسلام بتفضيل الأخ في الميراث على الأنثى غالبا ، غير القاعدة التي ينبثق منها اي تشريع أخر في المساواة بينهما في الميراث . فمثلا في بيئات غير بيئاتنا الاسلامية : المرأة هي التي تدفع المهر « الدوطة » ، والمرأة مسئولة كالرجل في كل ما القيناه عليه وحده من مسئوليات في الجو الاسلامي ، فيكون من المقبول حينئذ أن يتساويا كذلك في الغنم .

قد يقال : إن المرأة الآن قد تنفق كذلك . ونقول : إن هذا أمر

شاذ عارض وطارىء ، ولا ينقض القاعدة الطبيعية ، ولئن قبل الرجل الآن منها هذه المشاركة ، ليقبلها مضطرا تحت ضغط ظروف تمر بهما ، ومع غضاضة ، حتى تنتهي هذه الظروف ، ويعود كل شيء الى أصله . . الرجل هو الرجل الذي يتحمل كل الأعباء .

ولئن وضعنا نقصان حظ المرأة في الميراث تحت هذه الظروف التي راعاها الاسلام مع إطلاق حريتها وأهليتها في التصرف فيما أخذته ، بجانب ما ظلت المرأة الغربية ترسف فيه ، من حرمانها أهليتها في التصرف ، او إعطائها حريتها مع قيود تقيد هذه الأهلية ، واستمرار هذا الوضع بين الاسلام والغرب أربعة عشر قرنا ، وبقائه حتى الآن مشوبا في الغرب بما يعكر عليها اهليتها وشخصيتها ، لنجد ان الذين تحدثوا عن عدم المساواة في الميراث ، كان خيرا لهم ان يتخلصوا من عيوبهم الفادحة ، وظلمهم الصارخ للمرأة وأن يحسوا الخشبة التي تقلع عيونهم ، قبل أن يتوهموا ان هناك قشة في عيون الآخرين . .

ولأن تعيش المرأة في كنف ورحمة التشريع الاسلامي ودفئه ، خير لها الف مرة ، من أن تلقى في مهب الريح في التشريعات الأخرى . ولا تستطيع أن تتصرف في ملكها إلا بإذن زوجها .

وإن عمل المرأة وكدحها لكسب معيشتها ، ومجابهة متطلبات حياتها ، كما هو الحال في الغرب وملحقاته ، إنما هو خروج على الوضع الطبيعي ، الذي هيئت له المرأة ، وخلقت لأدائه ، والذي يتتبع أحوال المجتمعات التي أخرجت المرأة عن هذه الطبيعة ، يحس كثيرا من الشقاء الذي تعانيه ، وتعانيه المرأة معه ، بعد مرور كثير من الظروف على هذه التجربة ، حتى لنجد كثيرا من النساء في هذه المجتمعات ، تتغلب عليهن الطبيعة ـ والطبيعة غلابة وتغلب التطبع ـ

فيتور فيهن الحنين للعودة إلى وضعهن الطبيعي ، ويفضلن ترك العمل ، على استمرار الشقاء والمعاناة فيه ، ليأخذن مكانهن الطبيعي في البيت ، ورعاية الأولاد . .

وما نقرؤه عن حالات المرأة والمجتمع في الغرب ، هو الذي يدلل ـ بعد التجربة ـ على ان الطبيعة غلابة فعلا ، فقد نشر أن السلطات التعليمية في « اسكتلاندا » قد انزعجت لما وجدته في سنة ١٩٦٠ من انها عينت ١٩٦٣ مدرسة في أوّل العام ، فإذا بها تجد في نهاية العام أن ١٠٠٠ ألف مدرسة تركن العمل للزواج ، مما جعل هذه السلطات تصيح : إن الزواج يهدد النظام الدراسي »[١] .

وهذه هي العودة للطبيعة . .

وقد قرأنا أيضا عن استفتاء اجراه « معهد غالوب » بأمريكا ، بين النساء العاملات ، فكانت النتيجة : أن المرأة متعبة من العمل ، ويفضل ٦٥٪ من نساء امريكا العودة الى بيوتهن ، بعد ان كانت تفهم انها بلغت أمنيتها بالعمل . أما اليوم وقد أدمت عثرات الطريق قدمها واستنزفت الجهود قواها ، فإنها تود الرجوع الى مملكتها وعشها لاحتضان فراخها »[٢] .

وهذا في الوقت الذي احس فيه المفكرون ، والمصلحون الاجتماعيون ، خطر موجة عمل المرأة في الغرب ، على البيت والمجتمع ، فيقول العالم الانجليزي « صامويل سمايلس » . « إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل ، مهما ينشأ عنه من الثروة للبلاد ، فإن نتيجته هادمة لبناء الحياة المنزلية ، لأنه هاجم هيكل

(١) نظرية العلاقة الجنسية في القرآن ص ٩٦ للاستاذ محمد مهدي الآصفي .

(٢) المصدر السابق ص ٩٧ .

المنزل ، ويقوض أركان الأسرة » وما قال احد مثل هذا عن عدم اشتغال المرأة في خارج بيتها . .

وفي مناقشة للكونجرس الامريكي حول منع الأم التي لديها أطفال من الاشتغال ، قال عضو فيه : « ان اشتغال الامهات بسبب مشاكل اجتماعية واقتصادية لا حصر لها ، وقال آخر : ان الله عندما مسخ المرأة ميزة إنجاب الأولاد ، لم يطلب منها ان تتركهم ؛ لتعمل خارج البيت » وقال آخر : « إن المرأة تستطيع أن تخدم الدولة حقا ، إذا بقيت في البيت الذي هو كيان الأسرة » وهذا الكلام اصبحنا نحسه عندنا الآن .

وفي تاريخ ٩ / ٣ /١٩٥٣ نشرت جريدة الأخبار القاهرية ، مقالاً للمرحوم الاستاذ علي أمين قال فيه :

« كنت دائما من أنصار اشتراك المرأة في الحياة العامة ، وكنت أنادي أن على الزوجة أن تبحث عن عمل تكتسب منه ، حتى تضاعف دخل الأسرة . . وترفع من مستوى المعيشة في البلاد ، ولكنني قرأت اليوم في جريدة « الايفننج ستاندارد » بحثا للدكتورة « إبدا ايلين » بينت فيه أن سبب الأزمات العائلية في امريكا ، وسر كثرة الجرائم في المجتمع ، هو ان الزوجة تركت بيتها ، لتضاعف دخل الأسرة ، فزاد الدخل ، وانخفض مستوى الاخلاق ، وتنادي الخبيرة الامريكية بضرورة عودة الأمهات فورا الى البيت ، حتى تعود للأخلاق حرمتها ، وللأبناء الرعاية التي حرمتهم منها رغبة الأم في أن ترفع مستواهم الاقتصادي » .

ثم قالت في بحثها « إن التجارب اثبتت أن عودة المرأة إلى البيت ، هو الطريقة الوحيدة لانقاذ الجيل الجديد من التدهور الذي يسير

فيه » .

وهذه عودة للنظرية الاسلامية . والبقاء دائما للأصلح ، مهما علا صوت الباطل . . ثم علق الكاتب على هذا فقال : « بعد الاعتراف بخطورة مغادرة المرأة بيتها للعمل ، فأي مغنى يبقى لاستنكار عودتها للبيت ؟ ، إن الاعتراف السابق هو حكم العقل . واستنكار عودتها هو حكم العاطفة ، والمجتمعات لا تبنى على العواطف الهوجاء »[٣] .

[بدأنا نعرف مرارة التجربة]

وهذا الذي نقلته عما تردد في الغرب ، لا شك أننا هنا أحسسنا الآن مثله ، وتحس المرأة التي تخرج للعمل ، وتترك اولادها شدة مرارته ، بعد ما سرنا وراء الغرب في تجربته فرحين بهذا . . وإنما حرصت على الاستطراد بذكر هذا ، وأنا اتحدث اصلا في موضوع ميراث الرجل والمرأة ، لأدلل بشيء من التجارب ، على صدق ما هو مقرر ، من أن مملكة المرأة في بيتها ، وأن مصلحتها ، ومصلحة بيتها ، ومصلحة المجتمع ، هي في نظرة الاسلام إليها ، وإلى عملها حيث لم يجعل العمل الخارجي هو الاساس ، وان كان لا يمنع منه ، حين تكون هناك ضرورة للخروج إليه . . ويبقى الرجل هو الرجل ، فيما خلقه الله له : للعمل والكسب ، وحماية البيت والأسرة ، ورعايتهما . . ومن أجل هذا الغرم الذي يتحمله ، وانيط به ، اعطاه الله شيئا مما يخفف عنه حمله ويواجه به مسئوليته فجعل نصيبه في الميراث ، حين يكون هناك ميراث ، مثل حظ الانثيين من اخواته دون أي غض أو

(٣) ص ٢٥٣ المرأة للدكتور السباعي . .

مساس ، بما للمرأة من كرامة عند الله . . ولا وجه للاعتراض على هذا بظاهرة خروج المجتمعات عن طبيعتها ، أو رضائها وتشجيعها لخروج المرأة عن هذه الطبيعة ، فقد جنت المجتمعات وجنت المرأة المر نتيجة الخروج عن هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وكان لا بد أن تظهر ملامح فشل هذه التجربة الخارجة والبقية تأتي ، فلا وجه للاحتجاج بها - إذن - على أصل القاعدة ، التي بنى الاسلام عليها نظريته في تقسيم الميراث ولا في قوامة الرجل ومسئوليته ، إذ لا يحتج بالشاذ على القاعدة . . لاسيما إذا ظهر فشل هذا الشذوذ ، وظهرت أضراره - مما يؤكد صحة وسلامة القاعدة ، بالتجربة والمشاهدة ، وبأقلام أصحابها الذين يعيشون فيها . .

تقول « آني بيزنت » زعيمة التيوصوفية العالمية : إن القرآن وضع قانونا لوراثة النساء ، وهو قانون أكثر عدلا ، وأوسع حرية من ناحية الاستقلال ، الذي يمنحها إياه ، من القانون المسيحي الانجليزي الذي كان معمولا به إلى ما قبل عشرين سنة ، فما وضعه الاسلام للمرأة يعتبر قانونا نموذجيا » .

ويقول الفيلسوف الاجتماعي « جوستاف لوبون » :

ومبادىء المواريث ، التي نص عليها القرآن ، على جانب عظيم من العدل والانصاف ، ويمكن القارىء أن يدرك ذلك من آيات القرآن الكريم ، ويظهر من مقابلتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والانجليزية ، أن الشريعة الاسلامية منحت الزوجات اللاتي يقال إن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف ، حقوقا في المواريث لا نجد مثلها في قوانيننا » .

ويذكر الدكتور مصطفى السباعي في كتابه « المرأة »(٤) واقعة حدثت من نصارى لبنان إبان الحكم التركي فيقول :

« كان من أسباب نقمتهم على الحكم العثماني ، أنه أراد ان يطبق عليهم أحكام الشريعة الاسلامية ، فيما يتعلق بالميراث ، فقد غضبوا لأن الشريعة تعطي البنت نصيبا يعادل نصف نصيب اخيها وليس من عادتهم توريثها أصلاً، لأن ما تأخذه من المال يذهب الى زوجها ، وقد ذكر ذلك الأب « بولس سعد » في مقدمة كتابه « مختصر الشريعة » للمطران عبدالله قراعلي ، وإليكم نص عبارته :

« جاء في الرسالة التي أنفذها البطريرك « يوسف حبيش » إلى رئيس مجمع نشر الايمان المقدس في٢٩ أيلول (يوليو) سنة١٨٤٠ ما يلي : واما الآن فمن حيث ان القضاة اخذوا يمشون كلشي (كل شيء) في الجبل ، على موجب الشريعة الاسلامية ، فصار « عمال » - أي باستمرار- يقع السجن والاضطهاد من هذا التغيير ، وبالأخص من جهة توريث البنات ، لأن الشريعة الاسلامية تحدد أن كل بنتين ترثان بقدر ما يرث صبي واحد ، ومن هنا واقع خصومات ومنازعات ، وشرور متفاقمة واضطرابات ، من حيث ان العادة السابقة ، كانت سالكة في هذا الجبل عند الجمهور - أغنياء وفقراء - بأن الأبنية ليس لها إلا جهاز معلوم ، بقيمة المثل من والديها ، إلا اذا هم أوصوا لها بشيء خصوصي » .

ثم يقول البطريرك ، بعد ان شرح ما لحق الآباء من الضرر في هبة أموالهم للذكور « ومن حيث ان الشرور الناتجة من هذا النوع هي

---

(٤) ص ٣٦ طبعة ثالثة .

اثقل من باقي الأنواع ، كما لخصناه اعلاه ، فمستبين لنا ضروريا ، أن نسعى بترجيع توريث البنات والنساء كالعادة السابقة ، يعني انهن لا يرثن على الذكور ، بل لهن الجهاز بقيمة المثل ليحصل الهدوء » الخ !

وواضح من هذا ان نصارى لبنان ، اعتبروا توريث البنت مع الذكر - كما تقضي الشريعة - ضررا كبيرا يلحق بهم وبأسرهم ، وأن من الضروري العودة الى عدم توريثها بالمرة ، حتى يحصل الهدوء . . ولذلك نقموا على الحكم العثماني حين اراد ان ينصف البنت حسب الشريعة الاسلامية ، وقد حصل هذا في القرن التاسع عشر سنة ١٨٤٠ م . . .

كما ذكر الدكتور السباعي نقلا عن كتاب الزواج لزهدي يكن : ان البلاد السكندنافية « السويد والنرويج . . » لا يزال بعضها حتى الآن ، تميز الذكور على الانثى في الميراث فتعطيه اكثر منها ، برغم تساويهما في الواجبات والأعباء المالية » وهذا ظلم للبنات وتميز للذكور ، ما دامت البنات يتحملن من الأعباء ما يتحمله الأبناء .

ولقد رأينا هنا أقباط مصر يأخذون بالتشريع الاسلامي في الميراث راضين دون أن يجبرهم أحد على ذلك ، على عكس ما حصل في لبنان !

وكان من العجب العجاب أن يدس كاتب مسيحي عرف بنزعاته ، يدس أنفه في التشريع الاسلامي ويكتب الى زعيمة النهضة الاسلامية المرحومة « هدى شعراوي » بعد أن خطب في جمعية الشبان المسيحية ، متعرضا للمرأة المسلمة : حجابها وسفورها ، ونصيبها في الميراث ، ويحرض الزعيمة على ان تتولى المطالبة بتسوية المرأة في الميراث مع الرجل . .

وكان الأولى به ، وفي دائرة اختصاصه أن يوجه كلامه للمسيحيين من أمثاله حتى لا يأخذوا بالشريعة الاسلامية في هذا ، ولا يكون لنا معه حينئذ أي تعليق ، ولكنه كان ـ كعادته دائما ـ ذا نزعة حادة ضد الاسلام وكل ما يتصل به من تاريخ وتشريع ولغة عربية !

وقد نشرت مجلة الفتح القاهرية لصاحبها المجاهد الاسلامي المرحوم محب الدين الخطيب هذا الخبر في ٢٢ رجب سنة ١٣٤٧ـ٣ / ١ / ١٩٢٩ ومعه رسالة هدى شعراوي الى سلامة موسى . . وقالت المجلة في تقديم هذه الرسالة « لقد اردات هدى هانم أن تفهمهم انها مهما بلغ بها الأمر في المساعي النسوية ، فإنها لم تصل إلى حد أنها ترضى لنفسها أن تكون آلة لخداع هؤلاء الزعانف ، ولذلك ألقمت سلامه موسى حجرا بما نشرته في الصفحة الأولى من جريدة الاهرام صباح الجمعة الماضي » .

وكان مما جاء في هذه الرسالة :

« إن كان لا بد من ابداء رأيي في هذا الموضوع ، فأقول بصفتي الشخصية : إني لست من الموافقين على رأي الاستاذ الخطيب (سلامه موسى) بما يتعلق بتعديل نصيب المرأة من الميراث . ولا أظن ـ مثله ـ أن النهضة النسوية في هذه البلاد ، لتأثرها بالحركة النسوية في اوروبا ، يجب ان تتبعها في كل مظهر ، وذلك لأن لكل بلد تشريعه وتقاليده ، وليس كل ما يصلح في بعضها ، يصلح في البعض الاخر .

« على اننا لم نلاحظ تذمرا أو شكوى من المرأة لعدم مساواتها بالرجل في الميراث ، والظاهر أن اقتناعها بما قسم لها من نصيب ناشىء من ان الشريعة عوضتها مقابل ذلك ، بتكليف الزوج

بالانفاق عليها وعلى أولادها كما منحتها حق التصرف في أموالها . .

« واذا كنا نرى الغربية اكثر حظاً منها ، لأنها تظهر حائزة لقسط كبير من الحرية المدنية المساوية للرجل ، فبانها أقل حظاً من اختها الشرقية في الحرية الاقتصادية ، فبينما الشرقية ، غير المتساوية بالرجل في حق الميراث ، تتمتع بكافة انواع الاستقلال ، في ادارة اعمالها واموالها ، نجد الغربية المساوية لأخيها في الميراث محرومة من هذه النعم ، إذ لا يمكنها أن تنفق اي مبلغ من مالها ، ولا ان تتعاقد مع الغير ، ولا ان تحترف حرفة ، دون تصديق زوجها وموافقته ، ولذلك نراها ثائرة في جميع بلدان اوروبا على تلك القيود . . الخ » .

ونعم ما قالت السيدة هدى شعراوي ، عليها رحمة الله . .

في شهادة المرأة

بعض الذين يحرصون على إيجاد العيوب في الورد ، يتهمون الاسلام بأنه لم ينصف المرأة ، حين اعتبر في بعض الأحوال شهادة اثنتين من النساء ، تعادل شهادة رجل واحد ، وهم يشيرون بذلك الى قوله تعالى بخصوص الشهادة على الديون المالية « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر احداهما الأخرى »[1] .

ومن الغريب أن الغربيين ومن على شاكلتهم ، يتحدثون في هذا ، منذ عشرات أو مئات السنين ، وكأنهم غيارى جدا على المرأة ، وحقوقها وأهليتها ، وكان الأولى بهم أن يوفروا جهودهم ويتجهوا لإنصاف المرأة عندهم ، وإعطائها اهليتها الكاملة ، في التصرف فيما تملكه من مال وعقار ، دون أن يتوقف ذلك على اذن الزوج ، وموافقته موافقة كتابية ، كما تنص على ذلك المادة ٢١٧ من القانون الفرنسي ، وبالرغم من أن ذلك لم يعدل إلا قريبا جدا ومنذ سنين ، فإنه لا تزال في القانون المعدل بعض القيود على تصرف المرأة . . وفي انجلترا لم يعطوا المرأة المتزوجة الحق في التملك إلا سنة ١٩٧٣م . .

---

(١) البقرة / ٢٨٢ .

كان من الأولى لهؤلاء أن يعملوا على إنصاف المرأة عندهم ، وإعطائها أهليتها في التملك والتصرف ، دون وصاية الزوج عليها ، مما قرره الاسلام للمرأة المسلمة ، منذ اربعة عشر قرنا . . بدلا من ان يشغلوا انفسهم بالطعن على ديننا واتهامه بعدم إنصاف المرأة .

ولكن الحقود من شأنه دائما ألا ينظر الى عيوب نفسه ، ويجتهد في خلق العيوب للآخرين . .

ومع ذلك ، فإذا نظرنا لهذا الموضوع نظرة موضوعية نرى :

أولا ـ أن الاسلام لم يجعل في كل شهادة ، أن شهادة امرأتين تساوي شهادة رجل ، لأن هناك أحوالا تقبل فيها شهادتها وحدها . . دون الحاجة إلى رجل . . وذلك في الأمور اللائقة بشهادة النساء وحدهن . ومعنى ذلك أن اشتراط امرأتين يشهدان ، نظير شهادة رجل في الأمور المالية ، إنما هو لاعتبار آخر خارج وبعيد ، عن امتهانها ، وإلا لما أعطاها أهليتها الكاملة في التصرف ، وقبل شهادتها وحدها في بعض الأمور . والشهادة ليست حقا ، ولكنها أمر واجب وتكليف ، كثيراً ما يفر منه الرجال والرجل في الأمور المالية وما يتصل بها من احداث الحياة ، أكثر مباشرة ووعياً وضبطاً لها من المرأة غالباً ، والتشريع يبنى دائماً على الغالب . . .

ثانياً ـ أن الأمر يتعلق بحق مالي من حقوق الغير ، ولا بد من اخذ كل الاحتياطات تجاهه ، ومن الاحتياط ان يكون الشاهد قادرا أو أقدر على الضبط وغشيان المجالس ، وأقرب إلى وعي هذه الأمور ومعرفة ظروفها . . والرجل بلا شك هو المحتك بهذه

الأمور أكثر من المرأة ، ولـذلك ، اكتفـي بشهـادة منـه نظـير شاهدتين . .

ثالثاً ـ ولأن الأمر خاص بالتحقق والضبط في هذه الأمور ، موضـع النزاع ، لم يكتف بشهادة رجل واحد ، وليس تقرير شاهـد ثان ، طعنا في عدم أهلية الأول ، إنما هو للتمكن والاطمئنان عند الحكم . . ولو كان ذلك طعنا في الشاهد الأول ، أو طعنا في المرأة لما قبلت شهادتها بالمرة .

فالمسألة كلها تدور حول التأكد والتحقق في إثبات الحـق ، وفي مجال ليس هو مجال المرأة عادة ، فاحتيج فيه إلى شاهدة أخرى ، تؤكد شهـاد الأولى ، فإذا كان المجـال مجالهـا هي ، أخـذ بشهـادة امـرأة واحدة . .

وهذا هو الذي يمكن أن نفهمه من تشريع العليم الحكيم ، تمشيا مع نظرته سبحانه للمرأة وانصافه وتكريمه لهـا ، ولا يمـكن أن تكون القاعدة هي التكريم والانصاف ، ثم يخل المشرع ـ وهـو الله ـ بشيء من القاعدة التي وضعها وشرعها . .

ولقد علل سبحانه هذا الحكم ، تعليلا يتصل اتصالا وثيقا بحفظ الحقوق ، وبالطبيعة التي خلق الله المرأة عليها ـ وهو يعلم من خلق ـ فقال « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » ، وليسـت مثـل هذه المسائل مما يدخل في اختصاصات المرأة واهتماماتها ، ولذلك كانت الثانية ، تعضيدا ، وتذكيرا للأولى . وليس قوله ﴿ أن تضـل ﴾ من الضلال ، وهو الوقوع في الإثم ، ولكنه من قبيل « ضـل الطـريق » بمعنى تاه عنه ، ولم يتذكر معالمه ، فأخذ طريقاً آخر ، لا بسـوء نية

طبعا ، ولكن على قدر ما هدته إليه ذاكرته . . لأنه يريد ان يصل إلى غايته . . فالضلال هنا بمعنى النسيان ، وعدم التذكر ، الناشيء عن عدم الاهتمام بهذا الأمر ، وعدم الانشغال به عادة . .

قد يقال إن بعض النساء تهتم بهذه الأمور المالية ، وتتاجر ، وتباشر أعمالها في الزراعة أو التجارة ، إلى غير ذلك ، مما قد تتجه إليه المرأة ، لداع من الدواعي ، جعلها كذلك ، ولكن من المعروف أن هذه أحوال نادرة ، وليست هي القاعدة . . والتشريع إنما يراعى فيه جمهور الناس ، ويوضع لهم . . ولا يضر المرأة التي ألمت إلماما كافيا بالشئون المالية ، أن يكون معها ـ حين تشهد ـ شاهدة أخرى ، كما لا يضر الرجل حين يشهد أن يكون بجواره شاهد ثان « فزيادة الخير خيرين » على كل حال .

ولا يضير الرجل أو ينقص من شأنه ، أننا لا نحمله شهادة في أمور تختص بها النساء ، ويطلعن عليها وحدهن أو غالبا ، لأننا في ذلك نحترم الاختصاص ، ونسأل اهل الذكر ، وأصحاب الأمر العارفين به . .

يقول ابن القيم[٢] :

« وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه سأله عقبة بن الحارث فقال : إني تزوجت امرأة ، فجاءت أمة سوداء ، فقالت إنها أرضعتنا . فأمره بفراق امرأته ، فقال : إنها كاذبة ، فقال دعها عنك » ففي هذا قبول شهادة المرأة الواحدة ـ وإن كانت أمة ـ وشهادتها على فعل نفسها ، وهو اصل في شهادة القاسم والخارص والوزان والكيال

(٢) حـ ص ٨١ من أعلام الموقعين ـ طبعة منير .

على فعل نفسه » اهـ .

وشاهدنا في هذا مفهوم وواضح ، فقد قبل شهادة المرأة الأمة ولم يطالبها بإحضار شاهدة اخرى تؤكد كلامها ولما عارض الزوج لم يقبل الرسول معارضته واتهامه لها بالكذب ، واخذ بشهادتها وحدها ، وفرق بين الزوجين ـ وهذا أمر ليس بالسهل . .

ولو كان تقرير الاسلام « فرجل وامرأتان » بدلا من رجلين ، راجعا إلى عدم الثقة الكلية في المرأة ، كما يريد بعض المغرضين الصيد في الماء العكر ، لما قبل شهادتها وحدها في هذا وأمثاله ، مما تكون المرأة الصق به عادة . . واشترط المرأتين بدلا من رجل ، لأن المرأة عادة غير لصيقة بالمعاملات المالية والصفقات التجارية كالرجال . فالموضوع موضوع توثيق واختصاص ففي الأمور المالية ، الرجال الصق بها ، وفي الأمور النسائية هن ألصق بها ، فاكتفى بشاهدة واحدة ، ولم يشترط شاهدتين كما اشترطه في الأموال رجلين فالتفريق في موضوع الشهادة والتنويع فيها إنما هو تنويع اختصاص ، وإسناد الشيء لمن هو ادرى به . . ولا يعيب المرأة أبدا ألا تكون لها دراية ، بالشئون المالية والصفقات التجارية كالرجل . . بل إن كثيرا من الرجال يعلن إنه ليس مختصا بكذا، وأن غيره يعرفه أكثر منه وأدق. ولا يرى في ذلك عيبا أو غضاضة وهكذا ترى أن قذيفة هؤلاء المغرضين، قد طارت في الهواء . .

وفي حق الطلاق

ويقول هؤلاء وغيرهم : ولماذا أعطى الرجل حق الطلاق مطلقا ، ولم تعطه المرأة كالرجل تماما ؟

والطلاق هو حل عقد الزواج ونقضه ، وهو أكثر العقود احتراما وحساسية ، ولذلك سماه الله في القرآن الكريم « بالميثاق الغليظ » في قوله تعالى ﴿ وكيف تأخذون (أي المهر) وقد افضى بعضكم إلى بعض (يعني وثقتموه بالناحية العملية المترتبة عليه بالمعاشرة الزوجية) ،وأخذن منكم ميثاقا غليظاً ﴾[٣] وقد ترتب عليه استحلال امرأة أجنبية عنه ، كما يقول الرسول ﷺ « واستحللتم فروجهن بكلمة الله » وترتب عليه إنشاء اسرة جديدة ، وروابط جديدة ، وآمال جديدة وليدة . . الخ . .

كما أن هذا الزواج لم يتم بسهولة ، بل أنفق فيه الرجل كثيرا وربما استدان ، وارهق نفسه في المهر الذي يدفعه لعروسه ، وفي الهدايا منه إليها ، وفي التكاليف الأخرى التي تلتزم الرجل في مثل هذه الحالة . .

يعني أن الرجل قد أنفق على زواجه من المرأة « دم قلبه » كما يقال ، على العكس من المرأة . . وأصبح بزواجه مسئولا عن البيت :

---

(٣) النساء / ٢١ .

من زوجة ، وأولاد ، من ناحيتي الإنفاق والادارة العامة لشئونه . . الخ .

ومن خلال ذلك كله نحس أن الرجل له الكفة الراجحة إن لم تكن الوحيدة في الإنفاق والولاية العامة ، ولذلك جعله الله قواما على البيت ومسئولا عنه . .

ومن المعلوم في قانون الشركات المساهمة ومثيلاتها ، أن الذي يملك ، أو يسيطر على أكثر من نصف رأس المال ، ويكون قد تحمل بالتالي اكثر من المساهمين الآخرين في التكاليف ، يكون له الحسم والرأي ، في إدارة الشركة ، وبقائها أو فضها الخ . .

ولا يعقل أن يبذل الرجل كل ما يبذل ، مما لم تبذله المرأة ، بل كانت هي المبذول لها ، والمستفيدة من هذه الشركة ، وهذا العقد ، لا يعقل أن نترك الأمر في فض هذه الشركة للعضو السلبي ، ونعرض المنفق الباذل للخسارة ، بل العدل يقضي بأن نجعل أمر هذه الشركة وقيامها لمن بذل وضحى أكثر ، ويكون أحرص على استمرارها ، من اي انسان آخر ، حتى لا يتعرض لخسارة اكثر من غيره ، وهذا هو الاصل في هذه الشركة وفي كل شركة . .

وليضع أي انسان نفسه في مكان رجل ، أخذ يدخر ، ويحرم نفسه أشياء كثيرة في حياته ، ليجمع المهر ، وتكاليف الزواج ، أو باع مع ذلك شيئا مما يملكه ، ليدفع المهر والهدايا ، وتكاليف الزواج ، وتجهيز منزل للزوجية . . الخ ثم وضعنا هذا الجهد والغرم كله في مهب الريح - في يد الزوجة - التي لم تبذل ما بذله الرجل - لتفض هذه الشركة ، وتنزل الخسارة والحسرة بالرجل ، هل يستقيم مثل هذا الوضع مع العدل الذي ينشده الجميع ؟ .

إن الزوجة حين تفترق وتفض هذه الشركة، ستجد من السهل أن يتقدم لها رجل آخر ويدفع هو الآخر ويتكلف ، وهي تقبض وتستفيد ، فلا تخسر في الأولى ، ولا في الثانية . . وحينئذ يكون الطلاق عندها سهلا ، لا تحسب له من العواقب ما يحسبه الرجل - والشريعة تعتبر هذا العقد عقدا شبه مقدس ، وميثاقا غليظا - كما قلنا - وليس من السهل نقضه ولا قطعه ، ولذلك جعلت حق قطعه في يد أحرص الناس - عادة وعقلا - على إستدامته ، وهو الرجل ، الذي بذل المال الكثير ، والذي يستطيع أيضا أن يتحكم في عواطفه أكثر من المرأة ، والذي يجد نفسه مطالبا بعد الطلاق بنفقات لها وللأولاد منه الخ ، ونفقات أخرى لزواج ثان ، فيحسب ألف حساب وحساب قبل أن يطلق . .

وفي هذا من الضمان لاستمرار هذا العقد ما فيه . .

والذين يتنازلون عن حقهم في هذا ، يعملون عملا ضد الطبيعة والأصول . . ويتحملون نتيجة ما يفعلون ، فإذا تنازل الزوج عن حقه ، وجعل عصمتها في يدها ، أقر الشرع ذلك ، لكن على مسئولية الزوج طبعا . . وهو يقدر ذلك ، ويعمل له حسابه .

على أن للزوجة ايضا أن تطلب المفارقة عن طريق الخلع ، ودفع مال له ، أو التنازل له عن حقوق لها عليه .

كما أنها تستطيع إذا تضررت من معاشرته ان ترفع امرها للقاضي ، وعليه أن ينظر في طلبها ، ليتبين مدى جديته ، ويحكم لها إذا اقتنع بوجهة نظرها . وهكذا يضع الشرع حق الطلاق في يد الرجل ، ولكنه يفتح مع ذلك نوافذ للمرأة ، تستطيع منها فض عقد

الزواج . فليس هناك ـ إذن ـ تعنت ، ولا تحيز للرجل على حساب المرأة . . ولكنه وضع للأمور في نصابها ، ولحساب من نفترض هذا التعنت ، والله هو المشرع ، والكل عباده وعياله ؟ .

ولا بد ان يكون معلوما للجميع أن التشريعات إنما توضع ، مراعاة للأصل ، وللطبيعة الغالبة في الانسان ، ويجوز أن يكون هناك شذوذ في بعض النساء ، وبعض الرجال.، من هذه القاعدة ومن هذا الأصل ، فنجد من النساء من هن أعقل ، وأكثر احتياطا وحرصا على المعيشة من الرجل الذي قد يكون شاذا متهورا ، غير مقدر للعواقب ، كما اشرنا إلى ذلك من قبل ـ ولكن يكفي أن يكون مثل هذا شاذا وخروجا على القاعدة والأصل ، حتى لا تبنى عليه القوانين والتشريعات . . على أن الشرع قد فتح نافذة للمرأة ، تستطيع أن تخرج منها حين ترى ضرورة لذلك ، كما قلنا من قبل .

ومع هذا التشريع المحكم والحكيم ، سنجد من يقول : ولماذا لم يغلق باب الطلاق كله نهائيا فلا نجعله للرجل ، ولا للمرأة ، كما هو الحال في بعض الديانات الأخرى ؟

[لم شرع الطلاق ؟]

ونقول : إن الاسلام قد جعل عقد الزواج عقدا شبه مقدس ، وميثاقا غليظا ، ليس من السهل ولا من المقبول والمحبوب قطعه أو نقضه ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ـ ولذلك وضع توصيات لحسن المعاشرة وضمانات كثيرة لاستمراره ، وعدم نقضه . .

فحين يتضايق الرجل من زوجته ، ويكره منها شيئا ، يجد قوله تعالى يخاطب ضميره وشعوره ، ليهدئه ﴿ وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾(٤) .

ولاحظ قوله تعالى : خيرا كثيرا ، والانسان محب للخير ولتوقعه ، وحريص عليه ثم يجد ﴿ وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾(٥) .

ويجد الزوج في القرآن الكريم ، طرقا لعلاج مثل هذه الظروف ، التي لا بد أن تحدث بين الزوجين ليتبعها الرجال :

﴿ واللاتي تخافون نشوزهن (أي خروجهن عن طاعتكم ومعيشتكم) فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ﴾ وقدم العظة ، والكلمة الطيبة المؤثرة ، التي قد تفك العقد ، وتزيل الآثار السيئة من النفوس ، قدم ذلك ـ لأنه هو الأمر الطبيعي ـ على الهجر في المضاجع ، لأن الهجر ، يعتبر بمثابة إنذار عملي خفيف بعد العظة ، لإشعار الزوجة بما في نفس الزوج من ألم منها بعد أن لم تستجب للكلام الهادىء الطيب .

والهجر في المضاجع كأن يدير لها ظهره في الفراش ، وما يشبه ذلك ، مما يجعل الزوجة تحس أكثر ، حالة زوجها ، أو ترك الحجرة ، والنوم في حجرة أخرى إن تعين ذلك مما يؤثر على نفسية المرأة أيضا ، وينزع منها سلاح الأنوثة التي تعتز به ، ويشعرها بأنه يمكنه الاستغناء عنها .

---

(٤) النساء / ١٩ .

(٥) البقرة / ٢١٦ .

والمرأة هي التي تحس مفعول هذا الهجر وتحسه اكثر حين يهجرها وهو بجانبها حين النوم . وهذه طريقة أدبية صامتة ومؤثرة ، إن تكن سلبية فلها نواح إيجابية قوية ، تجعل الزوجة تفكر جديا في الحالة الطارئة عليها ، وتعمل من ناحيتها على إزالتها ، وتفض النزاع قبل أن يكبر ويتعقد .

فإذا لم يؤثر في الزوجة الوعظ والعتاب والكلام الحلو ، ولم يؤثر في نفسيتها هذا الانذار الخفيف الهادئ أيضا هو الهجر واستمرت تثير الشجار ، والعواصف ، « وتعكنن » على الزوج والبيت بتصرفاتها السيئة فهذا معناه دوام مرضها ، وأنها ممن لا يستجيب للكلام الحلو ، ولا للإنذار الخفيف ، بالهجر في المضاجع ولم تؤثر فيها هذه الجرعة من العلاج بل تحتاج إلى اسلوب متقدم نوعا ما في الردع وإلى دواء أقوى مفعولا ، ولذلك قال الله بعد هذا « واضربوهن » وبين الرسول ﷺ للزوج ألا يسرف في استعمال هذا العلاج ، وألا ينساق وراء غضبه ، فيضربها ضربا شديدا مؤذيا لها ، تاركا آثاره مثلا على جسمها ، بل يكون الضرب بشيء خفيف مثلوا له بعود السواك ، إذ يكفي شكل الضرب ، ورفع اليد عليها بأي شيء ، ولو صغيرا ، لتشعر بالمهانة ، وتتأدب ، إن كان لا يؤدبها إلا مثل هذا . .

فإن كانت من النساء الشواذ التي تستطيب القسوة ، ولا تعتبر ، أو ترجع عن تمردها ، إلا بما هو اشد من الخفيف ، فليعالجها زوجها بالعلاج المناسب لها . . ما دام في ذلك تسكين للفتنة التي أيقظتها ، فإن ذلك لمثلها وله أهون من الطلاق ، وتشتيت الأولاد . .

والناس معادن ، فبعضهم تؤذيه الاشارة ، أو يقضّ مضجعه الاعراض عن الكلام معه ، وعن ا لتبسم المعتاد . . وعن أمثال هؤلاء

النسوة قالوا : إن المرأة لها أن تطلب الفراق لمضارة زوجها لها بالإعراض عن كلامها ، واشاحة وجهه عن وجهها . . . وهذا نوع من النساء كريم وحساس ، فليكن الزوج معها كريما وحساسا ، ويكفيه إذا خاف نشوزها ، وتعاليها عليه وعلى معيشته ، أن يشعرها بغضبه منها ، بما تشعر به عادة ، من إشاحة وجهه عنها ، والإعراض عن التجاوب معها في الكلام الخ . وكذلك بتنوع العلاج معها حسب معدنها ووسطها ، من العتاب المؤثر الذي يرضى نفسها وأنوثتها ، لعلها ترضى وتهدأ وتستقيم ، إلى الالتجاء الى علاج آخر ، وهو الهجر في المضاجع ، فإن لم يثمر معها هذا العلاج أيضا ، لا نيأس ، ونتركها في ثورتها وتمردها أو نطلقها ، بل نعطيها جرعة مضادة أقوى ، وهي الضرب المناسب لطبيعتها ، خفيفا أو ثقيلا قليلا ، بحيث لا يوقعه في مشكلة أكبر وأشد . . ، ولكل طبيعة علاجها المناسب لها ، وهذا هو الشيء المعقول . . فليس النساء كلهن طبيعة واحدة ، ولذلك كان العلاج متغيرا ، ليناسب كل طبيعة . .

وقد لاحظت بعض النساء الكريمات يثرن ويعترضن على الضرب ، فكنت اسارع واقول لهن : ليس لمثلكم هذا الدواء ، فلماذا تضعن انفسكن هذا الموضع ، أنتن ارقى وافضل . . وهذا لغيركن ممن لا يردعهن إلا مثل هذا . كما لاحظت في حياة الريف . . أن اكثر النساء فيه تعودن على « الشخط والنطر » من زوجها فلم تعد تهتم به ، ولا تخاف إلا من الضرب ، ولا يردعها إلا هو . .

ومن حكمة الله أن جعل الدواء متغيرا ليناسب كل حالة ، وليسكن الفتنة ، ويقضي على تمرد الزوجة ، وكل هذا من أجل دوام العشرة الزوجية ، وعلاج الأمراض الناشئة فيها فإذا صح العلاج ،

فعلى الزوج الا يتصرف تصرفا سيئا ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا ﴾ فتذكروا قدرة الله عليكم ، ورأفته بكم . فإذا لم يجد هذا كله ، فعلى الزوج الا ييأس ، ويهدم عقد الزوجية ، بل عليه أن يلجأ إلى عقدمجلس صلح وتحكيم ، من أهله وأهلها ، او من الحريصين الآخرين على دوام الزوجية ، وهناء الزوجين ﴿ فإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا ﴾(٦).

فعلى أساس علمه سبحانه وخبرته ، وضع لكم هذا التشريع وهذا الدواء للعلاج به . . فإذا لم يجد هذا العلاج ، بل استحكم الخلاف ، واستحالت العشرة ، واشتد النفور ، وحدث الأنفصام النفسي ، كان آخر الدواء الكي ، إذ لا يمكن أن تجبر مثل هذين على أن يعشا زوجين ، وأن يكونا عضوين فاسدين في شركة الزوجية ، فإن بقاءهما معا سيحيل الحياة الى جحيم ، وليس الغرض من الزواج أن نجمع قطبين سالبين في مكان واحد ، أو نجمع بين اثنين ، كل منهما يضمر شرا للآخر وينغص عليه حياته ويتفنن في الكيد له ، ويتفرج عليهما الأولاد .

والشركة إذا تعادى فيها الشركاء ، وعمل كل عضو على إفساد مجرى العمل فيها ، وفشلت كل المحاولات التي بذلت لاعادة المياه لمجاريها وإنقاذ الشركة كان من الضروري فضها حتى لا تتعرض لخسارة أكثر ، أو للإفلاس .

فليس من الطبيعي ان نرغمهما ـ إذن ـ على استمرار الحياة

---

(٦) النساء / ٣٤ ، ٣٥ .

الزوجية بينهما ، ولا نقر ان تبتعد الزوجة عن زوجها مدة قد تطول الى سنة وأكثر مع بقاء العقد قائما بينهما ، ولا يكون له اي سلطان عليها ، وتتصرف هي كما شاءت ، ثم إذا جاءت بولد ، كان من طبيعة العقد القائم أن تنسبه اليه ، وهو يعلم ، وهي تعلم من أين جاء ؟ .

وهو كذلك يتصرف حسب ما تمليه عليه شهوته ، ويعربد في نساء وبنات الناس ، لأنه محروم من زوجته ، فاذا حرم كذلك من الزواج الشرعي - فإنه يجد العذر لنفسه في مثل هذا التصرف !!

إن الأمر الطبيعي ، بعد كل الجهود التي تبذل للابقاء على الحياة الزوجية ، وفشل هذه الجهود ، أن يعالج الوضع او الصدع الذي حصل ، بصدمة كهربية ، هي الطلاق ، ربما يفيق كل منهما ويهدأ ويفكر في المستقبل ومشاكله ، ويفضل على هذه المشاكل الكبيرة ، أن يلتئم الكسر ، ويعود كل منهما للآخر . . ولذلك اعتبر الشرع هذا الطلاق ، طلاقا رجعياً ، أي يمكن ان يراجع الزوج زوجته بكلمة أو فعل يدل على بقاء الزوجية واعتبارها . . في مدة نحو ثلاثة شهور ، وهي زمن الحيضات الثلاث . . على أن له أن يراجعها حتى بعد هذه المدة ، ولكن بعقد ومهر جديدين . . وما دامت النفوس قد تراضت ، واحب كل منهما العودة للآخر ، فأي مهر ولو 25 جنيهاً كاف في صلاحية العقد . . ويعود كل منهما للآخر ، ويستأنفا الحياة بعد هذه الهزة التي لا بد أن يستفيدا منها ويتعقلا . . وإن لم يرتدعا ويرتجعا وأصرا على البعد التام والافتراق النهائي . . فإن لها ان تبحث عن زوج ، وهو الآخر يبحث عن زوجة ، ليستأنف كل منهما حياة جديدة ، وتجربة جديدة يرجوان منها الخير ، وكما يقول الله سبحانه في مثل هذه الحالة

﴿ وان يتفرقا يغنِ الله كلا من سعته ﴾ فتحصن هي نفسها وتصونها بزوج شرعي آخر ، ويحصن هو نفسه كذلك بزوجة اخرى شرعية ، ويعيش كل منهما في حياته الجديدة ، طاهرا بعيدا عن معصية الله ، وينجبان الأولاد الحلال ، ولا عذر له أو لها ، إن وقع احدهما في معصية ، أو لوثا المجتمع بسوء سلوكهما . وقد فتح الله لهما الباب ، حتى لا يرزأ المجتمع بأولاد غير شرعيين نتيجة التعنت في إبقاء عقد الزوجية قائما رغم انفهما ، ومنعهما من الطريق الطبيعي للانفصال ، والبحث عن شريك يمكن التفاهم معه والعيش بجواره . . وإقامة اسرة جديدة طاهرة .

[صور شاذة]

إن مثل هذا التعنت ، وارغام الزوجين على المعاشرة رغم أنفهما ، ومنعهما من تجديد أسرة بالزواج ، قد افضى في الغرب إلى أسوأ الحالات ، وإلى شيوع المعاشرة الزوجية غير الشرعية ، والرضا بها من المجتمع كأنها أمر عادي لا شيء فيه . . وقد لمست حالة من هذه الحالات الكثيرة الشائعة في المجتمع الغربي ، حين كنت في زيارة لصديق مصري في المانيا في صيف سنة ١٩٦٩م إذ دخل عليه ضيوف من جيرانه المقابلين له هم : رجل إيراني يتكلم العربية قليلا وأمرأتان وبنت صغيرة ، ولما قضوا مسألتهم وخرجوا ، قال لي صديقي في تعجب : هل تعرف حال هؤلاء ؟ ثم بدأ يقص على نبأهم فقال : إن المرأة الكبيرة العجوز هي جدة البنت الصغيرة والشابة التي معها هي بنتها وام لهذه الطفلة ، أما الرجل فعاشق ايراني يقيم إقامة الزوج معها مع انها لا تزال زوجة رسمية لرجل الماني ، لكنهما انفصلا من زمن ،

وهي تقيم مع عاشقها هذا في منزل مقابل لمنزل الزوج الرسمي الذي يقيم هو الآخر مع عشيقة له أخرى ، وكل منهما يكيل للآخر من نفس الكيل . . وهذه الجدة تقيم مع ابنتها وعشيقها وحفيدتها الصغيرة في « التبات والنبات » . . وكما رأيتهم . . وبدأ على التعجب والتحسر طبيعة ، فقال لي : لا تعجب هذه هي الحال هنا ، وهي شيء عادي جدا . فإذا جاءت هذه الزوجة بولد كتبته باسم أبيه ، مع أنه من عشيقها . . وهي تدري والزوج يدري ، ولا يستطيع المعارضة ولا حق له فيها . . فعقد الزوجية قائم ومستمر ، والعشيق الايراني يتمتع

ولا مسئولية عليه ، وربما كان الزوج الذي يعاشر عشيقة بعد ان انفصل عن زوجته ، يأتي هو الآخر من عشيقته هذه بأولاد ، وتنسبهم أمهم لزوجها المنفصلة عنه من زمن . مع انهم من عشيقها قطعا .

وهذا هو الوضع الشاذ في المجتمع الغربي ، انحدروا إليه وعايشوه ورضوا به ، نتيجة لقيود منع الطلاق ، ومنع الزواج بثانية ونحمد الله على أن تشريعنا تشريع حكيم لم يلجئنا إلى مثل هذا الوضع . . فوجدتني اقول : نعم الحمد لله حمداً كثيرا . . إذ أنعم علينا بالاسلام . .

[منطق العقل والطبيعة]

وإذا نحن نحينا أنفسنا عن الكلام فيما عرفناه من تشريعات دينية مؤقتا ، وقصرنا كلامنا في حدود الطبيعة والعقل وأردنا أن نقنن للانسان حسب عقولنا ونظرتنا ، فإننا لا يمكن أن نسن له قانونا فوق طاقته وقدرته ، وينافي طبيعته ويصادمها ، مع نقص حكمتنا عن حكمة الله

جل جلاله كثيرا ، فإنك إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع ، ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ فمن المستحيل حين نضع قانونا لشركة مثلا ، ألا نضع في اعتبارنا احتمال المكسب والخسارة أو احتمال حدوث سوء تصرف يمكن ان يؤدي بهذه الشركة ، ويحتم فضها . . ولذلك كان من المستحيل ان نجعلها شركة مؤبدة لا يمكن حلها ، او تعديل قانونها على الأقل ، مهما يحدث فيها

من خسارة وسوء تصرف ، لأن هذا معناه الخراب التام ، وإهدار المال وشل كل قدراتنا عن إنقاذ ما يمكن انقاذه من ثروتنا . .

ولذلك يوضع في قوانين الشركات دائما بنود لمثل هذه الاحتمالات وعلاجها وكل عقد يقوم بين اثنين ، ويتصل بطرفين ، يقوم أولا على التراضي ، ويستمر كذلك بالتراضي والتعاون . . وهذه طبيعة الأمور البدهية . .

فإن استحال التراضي والتعاون ، كان من العبث استمرار الشركة ، وترك السفينة حتى تغوص نهائيا إلى الأعماق . . ولذلك كان من الضروري فض هذه الشركة وإيقاف سريان العقد ، وكيف يبقى ساريا وقد أصبح غير ذي موضوع .

وعقد الزوجية مثل كل العقود ، بل هو أقدسها ، لايتم إلا بالتراضي ، ولا يستمر إلا بالتعاون بين الطرفين .

فإذا انعدم الأساس ، وهو الرضا ، وحل محله البغض ، والرغبة الجارفة والإصرار على عدم استمرار هذا العقد ، وعدم معيشة كل من الطرفين مع الآخر ، وضرورة فض هذا العقد وهذه الشركة . . فكيف يصر الآخرون على ضرورة بقاء العقد قائما . . ويصر الآخرون على عقابهما بعدم تمكينهما من الزواج مرة ثانية ، وخوض تجربة جديدة

لعلها تفيد وتثمر ؟

إن من الخطر البالغ أن نصر على بقاء العقد ساريا ، وأن نحكم على الزوجين اللذين لم ينجحا في تجربتهما الأولى بالتشرد الزوجي ، فتكون هي التجربة الأولى والأخيرة .

ومن أجل هذا فتح الله باب الانقاذ بالطلاق مع أنه بغيض عند الله بل أبغض الحلال كما يقول رسول الله . . لكن ماذا نعمل ؟ فآخر الدواء الكي . .

إن الكثرة الغالبة تعيش وترضى بل تسعد في ظل زوجة واحدة . . ولكن من المفروض أيضا ان يحصل إخفاق في الزواج أو في التجربة ، والشرائع دائما والقوانين كذلك تراعي مثل هذه الحالات وتضع تشريعا مناسبا لها . . لتعالج به هذا الاخفاق . . والإنسان ليس ملكا ، فلا بد من أن يكون التشريع له مناسبا لطبيعته ، ومعالجا لأمراضه . .

ومن المستحيل في أي تشريع سماوي أو وضعي ، أن تلغى الطبيعة البشرية واعتباراتها ، من المستحيل أن نفرض في كل زوج وزوجته انهما لن يطرأ عليهما نزاع قد يستفحل ، ويصل إلى مداه ، وتشتد الكراهة بينهما ، ولا يطيقان البقاء سويا في منزل الزوجية ، وإن كان المطلوب والمحبوب ألا يحصل مثل هذا النوع ، لكن المحبوب شيء ، والواقع دائما شيَء آخر ، ولا بد أن نضع في حسابنا مثل هذه الحالات التي تطرأ على الزوجين ، وكل الاحتمالات . .

[حالة طوارىء]

في التشريع الاسلامي كثيرا ما راعى مثل هذه الحالات الطارئة ،

وشرع لها ، فقد لاحظ في الأمور التي يستعمل فيها الماء حالة عدم وجود الماء للتطهر به كما لاحظ عدم القدرة أحيانا على استعمال الماء مع وجوده لمرض ، فشرع في هذه الحالة التيمم بالتراب ، وهو لا ينعدم في أي مكان « وإن كنتم مرضى او على سفر او جاء أحد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا » اي ترابا طاهرا ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ،ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾[١] .

وفي الصوم لاحظ التشريع حالة عدم القدرة عليه في بعض الظروف ، فأجاز الفطر مع القضاء « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من ايام أخر » وفي الآية التي بعدها مباشرة يكرر هذا التعليم ﴿ ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من ايام أخر يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ﴾[٢] . مبينا الغرض من هذا التيسير ، وفرض كذلك حالة عدم القدرة على القضاء للمرض المستمر ، او للشيخوخة ، فشرع لها الفدية بدلا من الصيام ، وقدر بذلك لكل حالة ما يناسبها . . حتى في حالة الايمان بالله راعى الله سبحانه ـ وهو العليم الحكيم ـ أنه قد يحدث احيانا تعذيب وقهر للمؤمنين ليعلنوا كفرهم بلسانهم ، أو يتعرضوا لعذاب لا يطيقونه ، فشرع الله وأباح للمؤمن في هذه الحالة ، أن ينطق بكلمة الكفر ، ولا ضرر في ذلك ، ما دام قلبه مطمئنا بالايمان ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾[٣] .

---

(١) المائدة / ٦ .
(٢) البقرة / ١٨٥ .
(٣) النحل / ١٠٦ .

كما يراعى التشريع الاسلامي دائما بعض الحالات التي تطرأ ، ولا يستطيع الانسان التحكم فيها ، فرفع المحاسبة والجزاء عليها ، ففي حديث لرسول الله ﷺ « رفع عن امتي الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه » .

وهكذا نجد التشريع الاسلامي يراعي في كل جزئياته ، طاقة الطبيعة البشرية ، ولا يكلف الانسان فوق طاقته ، ويشرع للانسان حسب هذه الطاقة ، حتى قيل ذلك في قاعدة شرعية عامة « الضرورات تبيح المخطورات » .

فلا غرابة - إذن - إذا وجدناه في حالة الزواج ، يراعى ما يعرض له أحيانا ، من تعثر الحياة الزوجية ، وتعسر استمرارها ، فيشرع لها ، ويضع العلاج المناسب ، وهو الطلاق ، وفض هذه الشركة ، مؤقتا ، أو نهائيا ، بعد بذل المقدمات لفض الخلاف . .

فالاسلام نظر الى الطلاق كعلاج مر لا بد منه في بعض الظروف ، ولا يصار إليه - حسب تعليمات الاسلام - إلا في ظل هذه الظروف ، وإلا كان المسلم عابثا بتعليمات الله ، حين يهمل في اتخاذ كل الاحتياطات ، لبقاء هذه الحياة الزوجية ، وتفادي خطر الطلاق ، ويبوء بالوزر لهذا الإهمال . .

ومع هذا فقد أعلن الرسول ﷺ أنه أبغض الحلال عند الله ، تنفيرا للمسلمين من الوقوع فيه ، وحثا لهم على بذل الجهد لتفاديه ما أمكنهم ، لأن الله يبغضه .

ومثل ذلك ما حكم به سيدنا عيسى ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حين استنكره لقسوته ، وهذا حكم يشترك فيه الجميع . فلا

شك أننا جميعا نستنكره ، ونعتبره قاسيا ولـكن : ألا يركب الانـسـان الصعب ، مضطرا إلى ركوبـه في بعض الظـروف ؟ ويرتـكب أخف الضررين ؟ ألا يقبل الانسان العملية الجـراحية القـاسية ، في بعض الأحوال ؛ طلبا للحياة بدون متاعب وأمراض ؟ النسنا نـستنكر أحيانا بعض الأحكام ، فإذا عرفنا سببها ودواعيها ، رجعنـا عن استنكارنـا لها ؟

« روى انجيل متى أن السيد المسيح سئل عن الطلاق فاستنكره لقسوته ودفعه بالزوجة إلى اقتراف الرذيلة . . »(٤) .

« وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق » كما كان معمولاً به في شريعة العبرانيين اليهود « وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني ، ومن يتزوج مطلقـة فإنـه يزنـي » ، ووقـع الزوج بذلك بين فكي الكماشة فلا هو يستطيع التـزوج بثـانية ولا يستطيع الطلاق . . وهذا حصار ضربـه سيدنـا عيسى عليه الصـلاة والسلام ـ رغبة كريمة وتوجيها كريما ـ منه أحاط به الـزوج والزوجـة ليرتبطا بالحياة ، ويعيشا سويا ، فخـوف الـزوج المطلـق من تحملـه مسئولية دفع زوجته ـ إذا طلقها ـ للزنى ، وخوفه أيضا من أن تتزوج بمطلقة ، حين حكم بأن اتصاله بها سيكون زنى ، كل منهما سيكون زانيا ، فلا حيلة لهما الا البقاء معا ولو على نار !! ربما كان ذلك غالبا رد فعل على تصرف اليهود وتلاعبهم بالطلاق ، فروح المسيحية كانت رد فعل عام على المادية التي بالغ اليهود فيها .

ولـكن المسيحيين امـام هذا النص وحـده لا يجـدون فكاكا من

---

(٤) كتاب « المرأة في القرآن » ص ٩٣ للمرحوم للعقاد .

الحكم بتحريم الطلاق . . لكن إذا كانت العلة في التحريم هي الخوف من الوقوع في الزنا . . فماذا نقول في زوجين انفصلا عن بعضهم البعض انفصالا نفسيا تاما ، وأصبح الواحد منهم لا يطيق أن يكلم الآخر ، فضلا عن التمازج الجنسي ، وإلى مدى شهور وسنين ، ألم تدفع هذه الحالة كلا من الزوج والزوجة إلى إرضاء غريزتهما الجنسية ، خارج نطاق الزوجية ، لا سيما إذا كانا في شبابهما أو في اكتمال قوتهما . وكل منهما يأتي له أولاد غير شرعيين ، والزوجية تنسبه إلى الأب الرسمي زورا . ولكن حسب العقد القائم ، والزوج لا ندري الى من ينتسب الولد منه ؟ . ربما هو الآخر ينتسب إلى أب رسمي . او لا يجد من ينتسب إليه !! وهكذا يترتب على عدم الطلاق خوفا من الزنا ، الوقوع في الزنا فعلا . . كما تشاهد بالتجربة حالة الغرب في هذه الناحية ، وكما قيل الناس من خوف الفقر في فقر !!

ألا يدفعنا ذلك إلى أن نوازن بين الحالتين : حالة عدم الطلاق خوفا من الزنى ، وحالة التلبس بالزنا القائم فعلا ، والذي ترتب عليه تفاقم مشكلة الاولاد غير الشرعيين في الغرب ؟ ألا يمكن ان نقول إن ذلك التعبير من باب التشديد والتهديد والتخويف ، كما قيل « العين تزني » ولا يكون الغرض التشريع ؟ .

ألا يمكن للقائمين على أمر الدين المسيحي لاسيما في الغرب ، وفي ظل الحرية الجنسية المفتوحة هناك ، أن يجتهدوا ويوازنوا ، ويتقدموا بإصلاح ديني اجتماعي في هذه الحالة ولو أخذا بقاعدة : ارتكاب اخف الضررين . . بدلا من الوضع الحالي ، والتشبث بالنص ، دون نظر إلى علته ، مما دفع بالمجتمعات والدول الغربية ، إلى عدم التقيد بالنص الديني ، وإصدار تشريعات مدنية للطلاق ، يسير العمل

بمقتضاها هناك .

لاسيما إذا رأينا أن طائفة اجتهدت وتوسعت في الأسباب ولم تقتصر على سبب الزنى للطلاق كبعض الطوائف البروتستانتية . . كما يقول الاستاذ المرحوم عباس محمود العقاد « وتعتمد طائفة كبيرة من أتباع الكنائس البروتستانتية على نص في رسالة كورنثوس الأولى لإجازة التفرقة بين الزوجين إذا طال هجر الرجل لامرأته »[٥] وهذا سبب غير الزنى المنصوص عليه .

ثم يقول « ولقد تحول كثير من المسيحيين في القارتين - الأوربية والامريكية - إلى نظام قانوني يجيز ثلاثة أحوال في حكم الطلاق ، وهي : إلغاء القصد ، والتفرقة بين الزوجين ، والفصل بينهما ، مع بقاء الصفة الشرعية للزواج ، ويجوز للرجل والمرأة ان يتفقا على الانفصال ، وتسوية المسائل المتعلقة بتربية الأولاد ، والنفقة عليهم ، ويمكن كل زوج من حرية التصرف في حياته ، مع اسقاط حق الطرف الآخر في محاسبته فيما عدا الخيانة الزوجية ، وتبرم المحكمة عادة أمثال هذا الاتفاق ، كما اختاره الطرفان ، وقد تبتدىء المحكمة بتقرير الانفصال وشروطه ، إذا لم يتيسر الاتفاق عليه بينهما » إلى أن يقول « ويستطيع كل من الزوجين ان يحصل على الحكم بالغاء عقد الزواج ، إذا ثبت أن التفاهم بينهما على القبول ، داخله شيء من الخداع أو التزوير ، أو ثبت أن أحد الزوجين كان في حالة من حالات القصور ، عند موافقته على عقد القران . وبعض الولايات الشمالية من أمريكا ، يكتفي بإثبات حصول الزنى مرة واحدة من الزوجة ، لإصدار الحكم بالطلاق ، ولا يكفي ذلك في حالة وقوع الزنى من

---

(٥) ص ٩٣ من كتاب « المرأة في القرآن » .

الزوج لتطليقها منه ، بل ينبغي إثبات معيشته غير الشرعية مع أمرأة أخرى ، ولا يلزم تقديم الشهود على وقوع الزنى ، على مرأى من أولئك الشهود ، بل يكفي إثبات السلوك الذي يفضي إلى العلاقة الجنسية . . ومن أمثلة ذلك نزول الرجل والمرأة ، في أحد الفنادق كأنهما زوج وزوجة ، واجتماعهما في غرفة مريبة كما يجتمع الزوجان الشرعيان ومن أسباب الطلاق وقوع الغيبة « المنقطعة من الزوج او الزوجة » .

« ولا حاجة إلى الإثبات بالشهادة أو البينة ، مع اعتراف الزوج المتهم بتهمة الزنى ، الموجهة إليه ، وتسمى القضايا التي يلجأ إليها الزوجان ، إلى الحصول على حكم الطلاق بالاعتراف ، قضايا التواطؤ . . أو التراضي » ا هـ .

فمعلوم أن الزوجين يمكن أن يلجأ إلى مثل هذه الحيلة للوصول إلى الطلاق ، بأن يبيت في فندق مع امرأة ، أو تبيت هي مع رجل ، ويكون ذلك ثابتا في دفتر الفندق . . كما يمكنهما أن يتفقا على القول بحدوث قسوة بدنية ، ويحصلا على الطلاق . .

وهذه الحالات أو الصور حاول المقننون لها أن يدوروا في فلك الكتب الدينية كما يقول الاستاذ العقاد ثم يقول : « بيد أن الحكومات الأخرى ، التي قطعت صلة التشريع الحديث بالتشريع الديني ، قد غيرت أساس التشريع كله ، في مسائل الزواج والطلاق ، وجعلته على التعاقد العام الذي يخضع لقضاء العقود في جملته ، فلا يمتنع إلغاؤه والعدول عنه لسبب من الأسباب التي يختارها المتعاقدان أو ولاة الأمر » ص٩٥ .

وقد أدى هذا إلى فوضى في الطلاق ، ولأتفه الأسباب . . ولو أن رجال الدين هناك ، اجتهدوا على ضوء العلة المذكورة في كلام سيدنا عيسى ، وهي خوف الزنى ، لجعلوها سببا كذلك لإباحة الطلاق الآن من النظرة للواقع المر ، الذي ترتب على خطر الطلاق . . وأمكن أن تتلاقى وجهة النظر الدينية الاجتهادية ، مع المصلحة العامة ، وانضبطت الأمور بذلك ، ولم تقع هذه الكثرة من حوادث الطلاق المدني فقاموا بذلك من حفرة ، ليقعوا في حفرة أخرى . . فكلما كانت الأمور محكومة بالفكر الديني المتنور كانت اكثر ضبطا وتحقيقا للمصلحة . .

« ففي الولايات غير الكاثوليكية بالولايات المتحدة بلغت نسبة الطلاق٤٠٪ من الزيجات وهي آخذة في الازدياد ، وبلغ من كثرة الطلاق أن محكمة الحقوق في « مدينة سين » فسخت٢٩٤ نكاحا في يوم واحد »(٦) .

ونشر في اهرام١٤ / ٥ / ١٩٦٢، إحصاء من أمريكا يقول « أعلنت أمريكا أن امرأة من كل١٤ زوجة طلقت زوجها أو انفصلت عنه سنة١٩٦١م » .

وذلك بسبب ما أباحه القانون المدني هناك من حق للمرأة في تطليق زوجها ، والمرأة غالبا ما تمشي وراء عواطفها الحادة ، وتتصرف سريعا تحت تأثيرها . . وكم قرأنا عن تفاهات غريبة ، اتخذتها المرأة هناك ، سببا في طلب الطلاق ، وتجاب لطلبها !!!

---

(٦) كتاب « نظرية العلاقة الجنسية في القرآن » ص ٢٩٢ للاستاذ محمد مهدي آلا صفي طباعة النجف الاشرف

وهكذا نرى أن خطر الطلاق والانفصال على الزوجين إلا لعلة الزنى ، دون مراعاة للحالة النفسية بين الزوجين ، ادت إلى أمور خطيرة ، لاسيما في المجتمعات المفتوحة على الحرية الجنسية ،.. مما دفعهم هناك الى التقنين للطلاق ، خارج نطاق الدين تحت تأثير رد فعل الحظر .. فوقعوا في خطر شديد نتيجة التوسع في أسباب الطلاق ..

ولا علاج لهذا أو لذاك إلا في التشريع الذي يراعي الفطرة البشرية ، ويأخذ بيدها الى السمو ، ويضع لها بعض الحدود الممكنة .. تحقيقا للخير ما أمكن ، وتقليلا للشر ما أمكن .. فليس من المفروض أن يطيع الناس جميعا تشريع السماء ، أو أي تشريع ، أو لا يسيئوا استعماله .. فلا بد من وجود الشر ، بجانب الخير .. لكن تصبح المسألة مسألة نسبة بين الخير وبين الشر ..

فالتشريع الاسلامي المعتدل ، لم يسلم ممن يسيئون استعماله ، ويلقون الشر في نهر الخير .. لكن العيب في هذه الحالة ، يكون عيب الناس ، لا عيب التشريع .. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، ويمكننا وضع ضوابط لمنع سوء الاستغلال .. ولقد وجدنا بعض الدول الأوروبية تتحرك فيها الحكومات ، والبرلمانات ، والصحافة ، لوضع حد لمئات الآلاف من الأسر الممزقة والزيجات الفاسدة ، نتيجة حظر الطلاق ..

فقد رأينا في اكتوبر سنة ١٩٧٠ معركة عنيفة في إيطاليا بين الفاتيكان وأنصاره ، وبين البرلمان وأجهزة الاعلام ، من أجل اقدام البرلمان على سن قانون مدني ، يجيز الطلاق ، لأسباب اكثر من الأسباب المحددة للطلاق لدى الكنيسة ، وكانت مئات الآلاف من الزيجات ، تنتظر

حل مشكلتها بصدور هذا القانون ، ونجح البرلمان الايطالي في إصداره ، واستراح الناس في اكتوبر سنة ١٩٧٠ م ورأينا البرلمان الهندي يقر قانونا بإباحة الطلاق في ١٤ / ١٠ / ٩٥٤ ١وكان ممنوعا لدى بعض الطوائف ، وقال « نهرو » تعليقا على هذا « إن إفتراق زوجين متباغضين خير من بقائهما على حقد وضغينة » ووافق مجلس العموم البريطاني على قانون يبيح للزوجين الطلاق بعد انفصال احدهما عن الآخر لمدة عامين ، إذا وافق الزوجان على الطلاق ، ولمدة خمسة اعوام إذا وافق أحدهما دون الآخر .

[تشريع فرنسى بالطلاق]

كما قامت فرنسا بإصدار تشريع للطلاق ، اقتربت فيه من التشريع الاسلامي ، إلى حد كبير ، واعتبروه حركة إصلاحية كبيرة لشأن الأسر . . .

وقد نشرت جريدة « الجمهورية » في القاهرة بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٧٧ تحقيقا عن هذا التشريع الفرنسي ، بقلم الصحفية « هدى المهتدي » تحت عنوان : آخر صيحة في التشريع الأوروبي ـ قانون فرنسي يبيح الطلاق بشروط إنسانية عادلة » . . وقالت في هذا التحقيق :

« لم يكن من حق أي من الأزواج من المجتمع الغربي عامة ، أن يفكر في شيء اسمه الطلاق ، مهما استحال استمرار الحياة الزوجية ، وتكاثرت أسباب الفراق . كان الزواج الأول ، هو الزواج الأول والأخير ، ومهما بلغ الاختلاف او النزاع ، فقد قضى على الزوجين أن

يعيشا في قيد حديدي أبدي ، لا يسمح لأحدهما بالانفصال ، مما كان سببا في انتشار الانحراف . الذي بدأ يرفضه المجتمع ، ويأباه التقدم الحضاري .

وكانت المبادرة التي تمثل آخر صيحة في التشريع الغربي ، هي صدور قانون الطلاق الفرنسي ، بشروط عادلة وإنسانية وعلمية ، وكأن المشرع الفرنسي قد قرأ وفهم أبعاد المبدأ الاسلامي الاجتماعي الذي تنادي به الآية الكريمة ﴿ **فأمسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف** ﴾ وهذه بعض معالم هذا القانون ..

[هدف القانون ووسائله]

« الهدف هو ضمان احترام كيان وكرامة الزوجين ، والحرص على تماسك الأسرة حتى بعد الانفصال من أجل تحقيق هذا الهدف يقضي القانون الفرنسي بإباحة الطلاق طبقا لهذه الشروط :

● « يعاون القاضي المتخصص في نظر دعوى الطلاق فريق من الإخصائيين الاجتماعيين والنفسيين ورجال الدين » . وهذا قريب جدا من موضوع الحكمين الذي أشارت به الآية ، غير ان الآية قالت ﴿ حكما من اهله وحكما من اهلها ﴾ وهذا آنس وأحفظ للسر . وإن كان من المفهوم أنه في حالة عدم وجود أحد من الأهل يمكن ان يقام بدلهما من يعتني بهذه المهمة .

● « مهمة القاضي هي في المرتبة الأولى حماية الأمومة والطفولة والحرص على كرامة الأبوين .

● « لا يتعامل القاضي ابـدا مع الأوراق ، بل يعتمـد على تجاربـه الشخصية . ومع الانسان صاحب المصلحة .

● « ويشترط القانون توفر ثقة الزوجين المتنازعين في القاضي الذي يصدر القرار .

● « يلزم القانون الزوجين بالتعرف على اسم القاضي وعنوانه ، وتبادل الزيارات العائلية التي يجري خلالها الحوار ويهدف هذا الى الوصول الى الحكم ولو بالطـلاق ، دون مهاترات وتشنجـات ربمـا يشعلهـا المحامون انفسهم . .

● « يجتمع القاضي الصديق بكل من الزوجين على انفراد ، ثم يجتمع بهما معا مع المحامي ، لبذل آخر الجهود ، حتى اذا ثبت ان لا علاج اصدر القاضي قراره . .

● « إذا شك القاضي في أن أحدا من الزوجين أوكليهما ، واقع تحت تأثير ضغوط نفسية من الأهل والاقارب يؤجل النطق بالحكم ٣ شهور .

● « في حالة الحكم بالطلاق ، يتدخل القاضي بالمعروف ، في تنظيم زيارات للأولاد ، وفي اقتسام وسائل المعيشـة (النفقـة) الـخ . . »
« ومما جاء في المذكرة التفسيرية لهذا القانون انه قد انتهى عهد القاضي الحاكم بأمره ، والقاضي في هذا القانون هو الانسان العادل ، الـذي يدير دفة سفينة الأسرة ، حين تدخل في بحر متلاطم الأمواج ، حتى لا تحطمها العواصف . . فإما التلاقي من جديد في هناء ، وإما انفصـال بغير عناء .

« وبعد . . أليس جوهر هذا القانون كأنـه مستمـد من أحـكام الشريعة الاسلامية »؟وهكذا تقول الكاتبة . . والحقيقة أن فيه روحـا من الشريعة الاسلامية وحكمها فعلا . . فقد قرر : إما التلاقي من

جديد في هناء ، وإما انفصال بغير عناء . . وهذا يتلاقى مع قوله تعالى ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ .

ويتلاقى طبعا مع اقرار مبدأ الطلاق ، ويتلاقى مع ما قرره القرآن وقررته السنة من بذل الجهود للصلح بين الزوجين ، وهذا يعمل الغرب تدريجيا ، وتحت ضغط الظروف الطبيعية ، للاقتراب من الشريعة الاسلامية واحكامها ، والابتعاد والتخلص مما تقرر عندهم من حظر وقيد ، نتيجة لما ترتب عليه من مفاسد اجتماعية متفاقمة . .

الزواج والطلاق قبل الاسلام[1]

ولقد كان الزواج بلا حصر موجودا قبل الاسلام في جزيرة العرب وغيرها فجدده الاسلام بأربعة ، في ظل ضمانات وشروط صعبة ، جعل الزواج بدونها محرما ، كما كان الطلاق موجودا وبكثرة تشبه الفوضى ، ومع إعنات ومضارة ، تصل إلى حد اذلال المرأة ، في المجتمع العربي ، كما كان موجودا في ظل الشريعة الموسوية بإطلاق ، ولم تشترط إلا أن يدفع الزوج لزوجته كتابا يكون فيصلا وشاهدا بيد الزوجة والزوج بالانفصال وكان يحرم عودة الزوجة للزوج بعد ذلك تحريما باتا . . كما ينص على ذلك الاصحاح الرابع والعشرون من سفر التثنيه . . حيث يقول « إذا اخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة في عينيه ، لانه وجد فيها عيب شنى (هكذا) وكتب لها كتاب ، (هكذا) ودفعه الى يدها ، وأطلقها من بيته ، ومتى خرجت . . الى أن يقول « لا يقدر رجلها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة ، بعد أن تنجست ، لأن ذلك رجس لدى السرب » . وتنجيسها جاء من زواجها بآخر . .

وظل ذلك معمولا به ـ أي الطلاق ـ حتى بعد ظهور المسيحية ، ولما سئل عيسى عليه السلام عن ذلك ، استنكر لقسوته ـ كما ذكرنا من

(١) المرأة للعقاد ص ٩٢ .

قبل . . ولما جاء الاسلام نظم الزواج ، كم نظم الطلاق ، وكما جعل الاقتصار على زوجة واحدة هو الأفضل ، والأبعد عن المشكلات وارتكاب المحرمات حيث جعل استدامة هذا الزواج وعدم الطلاق هو الاصل ، والأسلم من المشكلات ، ووجع الدماغ ، وخلق المتاعب . . وبغّض لدى المؤمنين أمر الطلاق ، وإن أجازه في ظل ظروف تدعو إليه ، ووضع لنا طريقا لحل المشكلات والخلافات التي لا بد منها غالبا بين الزوجين ، رغبة منه في دوام العشرة الزوجية ، ورعاية الأولاد . . حتى إذا ترك المسلم هذه الحلول التي رسمها الله له ، أضاف إلى إثمه بالطلاق ، إثماً آخر ، في إهمال هذه التعليمات الالهية ، والمؤمن الصادق يتحاشى أن يرتكب شيئا يبغضه الله ، ما لم تكن هناك ضرورة ملجئة ، فيخضع لها ، ويتمشى معها مفوضا أمره إلى الله . .

وقد جاء الاسلام بتسهيلات للزوجين إذا دب الخلاف بينهما ، وحصل الطلاق الأول . . فقد حكم بأن تقضي عدتها في بيت الزوجية وأباح للزوج أن يراجعها اثناء ذلك ، بعد أن تهدأ ثورتهما ، ويحسا خطأهما ، ويعرفا المشكلات التي ستواجههما لو استمر هذا الطلاق والانفصال ، وهذه فرصة أولى له ولها ، أعطاه معها فرصة ثانية . إذا تكرر منه الخطأ والأمر البغيض ، وهو الطلاق مرة ثانية ، فأعطاه إمكانية إرجاع زوجته في العدة ، بكلمة تدل على المراجعة ، أو فعل من شأنه أن يفيد رجوع الزوجية بينهما ، حرصا من الاسلام على مداواة الجروح ، وبقاء هذه العلاقة ، وسلامة الأسرة .

فإذا استهتر الزوج بعد ذلك وتمادى وطلق مرة ثالثة ، فإنه يكون إنسانا مستهترا ميئوسا من حفاظه على الزوجية والأسرة ، وكرامة

الزوجة . . وحينئذ قرر الاسلام أن هذا الطلاق يفصل ما بينهما فصلا تاما ، ولا يمكن إرجاعها بالأسلوب الذي تم في المدتين السابقتين . .

لكنه لا يحرمها عليه تحريما باتا وإلى الأبد ، كما فعلت الديانة الموسوية اليهودية ، مما ذكرناه من قبل ، فكثيرا ما يحصل التهور ، وعدم تقدير الظروف والمصاعب من الزوج ، فيطلق ثالثة ، لكنه بعد ذلك يفيق من تهوره ، وربما يكون له أولاد يثقل عليه رعايتهم ، فيفكر ويقدر ويندم ، وربما تفكر الزوجة كذلك من جانبها ، وتندم على أنها كانت مشتركة في هذا المصير ، الذي صاروا إليه ، وصار الأولاد . . ولهذا لم يغلق الاسلام نهائيا أبواب العودة لكن بشروط أخرى قاسية ، فإذا تزوجت المرأة زواجا عاديا بآخر ، وطلقت منه طلاقا عاديا ، او مات عنها زوجها الثاني ، فإنه لا يحكم عليها بالنجاسة كما جاء في التوراة بل يمكن أن يستأنف الزوج الأول الزواج منها ، بعقد ومهر جديدين بعد انقضاء عدتها من الزوج الثاني . .

وقد وضع الاسلام هذا الشرط الصعب على نفسية الزوج الأول « فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره » أي نكاحا عاديا طبيعيا ، ويفضي إليها ، وتفضي إليه ، ويتعاشران معاشرة زوجية حقيقية ، حتى يعمل الزوج دائما حسابه ، فلا يقدم على قطع العلاقة الزوجية بالطلاق الثالث . . حتى لا تغص نفسه ، إذا أراد أن يرجعها ، بهذا الشرط وما يترتب عليه مما تنفر منه النفوس السليمة .

■ لعن الله المحلل والمحلل له :

وبعض الناس يلجأ إلى إجراء هذا الزواج الثاني على شكل صوري بعيد عما أراده الله ، بدون أن تعتد الزوجة عدتها من الزوج

الأول ، وبدون أن يدخل بها الزوج الثاني ، وبدون أن تنقضي عدتها منه ، فيجري هذا الزواج في وقت سريع ، وبشرط أن يطلقها الزوج الثاني لتعود وتتزوج الأول متصورين انهم بذلك حققوا شرط الله ، فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، متجاهلين الشروط الضرورية التي لا بد منها في هذه الحالة وهي إنقضاء العدة ، وتحقيق الشرط الذي اشترطه الرسول ، حين جاءه من يسأله عن هذا الزواج الصوري ، فقال له : « لا . . . حتى تذوق عسيلتها وتذوق عسيلته » تعبيرا عن الدخول بها دخولا عمليا . تتلاقى فيه شهوتاهما ، ولا يشترطان على المحلل أن يتزوج ثم يطلق ، مما يفسد العقد ويحيله إلى عملية نصب وتحايل غير مقبولة . . وحتى مع تحقيق هذه الشروط كاملة ، لعن الله المحلل والمحلل له ، وأخذ المحلل صفة التيس المستعار . . وذلك كله تنفيرا من اللجوء والوصول الى هذه الحالة ، إبقاء على العلاقة الزوجية ، حتى لا تتعرض لهذه الهزة الكبيرة ، وما يترتب عليها من المحلل الملعون . .

ومع إقرار الاسلام للطلاق في ظل الاحتياطات التي وضعها ، نجده يحتفظ للزوجة بحقوقها كاملة ، فلها ما يكون قد تأخر من المهر ، ولها نفقة مدة عدتها ، ولها متعة يدفعها الرجل لها « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين »(٨) ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ﴾(٩) . وهذا للمرأة التي لم يدخل بها ، ولم يفرض لها مهر . . فإن فرض لها مهر وطلقت قبل الدخول ، فلها نصف المهر .

---

(٨) البقرة / ٢٤١ .

(٩) البقرة / ٢٣٦ .

وقد أخذ التعديل الجديد لقانون الاحوال الشخصية بالقرار ٤٤ لسنة ١٩٧٩ م بفرض متعة للزوجة إذا لم تكن الفرقة بسببها آخذا من هذه الآيات وعلى مذهب الامام الشافعي ، وجعل أقلها مدة سنتين من النفقة المقررة لها . . جبرا للمرأة المدخول بها التي صارت ثيبا وربما تكون قد قضت زهرة شبابها وكافحت مع الزوج ، فيأتي ويطلقها مستسهلا أمر النفقة ، دون مراعاة للعشرة الطويلة معها ، ولا إلى مصيرها المنتظر ، بعد أن صارت ثيبا ، قلت الرغبة في الزواج منها ، بعد ان « عطبها » أو بعد أن صارت لا رغبة فيها البتة ، لكبر سنها ولشيخوختها ، ولذلك فرض لها في التعديل الجديد متعة ، فوق النفقة ، كأنها معاش عن مدة خدمتها معه وربما أفنت زهرة شبابها في خدمته . . ولذلك كانت المتعة متفاوتة حسب الظروف ، وحسب المدة التي قضتها معه وبهذا الحد الأدنى ، وذلك حفاظا عليها ، وعلى عرضها ، وعلى كرامتها .

وبجوار ما فرضه الشرع على الزوج من نفقة ومتعة للزوجة المطلقة ، أبقى عليه كذلك مسئوليته عن نفقة الأولاد نفقة مناسبة لأمثالهم . . حتى لا يظن الزوج أنه حين يطلق امرأته ، لا يكون مسئولا عن أولادها منه ، ويتركهم يتشردون . . ولا شك أن هذه المسئولية عن المطلقة وعن أولادها فيه ، سيجعله يفكر كثيرا قبل أن ينهي علاقته بزوجته « وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم » .

وهكذا جعل الله الطلاق علاجا لأزمة ، وحلا لمشكلة ، يصعب حلها إلا به ، وهو مع ذلك علاج بغيض عند الله ، ولا يحسن بالمسلم أن يترك مشكلته مع زوجته تتفاقم إلى أن تصل إلى هذه النقطة الحرجة ، كما لا يجوز للزوجة المسلمة أن تعمل على تفاقمها ، حتى لا

يبقى أمامهما إلا هذا الحل ، والله يقول ﴿ إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ .

وحين يصل الأمر الى هذه النقطة الحرجة ويحدث الطلاق ، تحفظ الشريعة للزوجة الحقوق التي تيسر لها معيشتها ، وتعينها على حفظ كرامتها وعرضها ، كما تحفظ للأولاد حقوقهم كاملة على أبيهم . .

ومع أن كثيرا من الأزواج يسيئون استعمال حقهم في الطلاق ، لا تزال نسبته في البيئات الاسلامية اقل كثيرا جدا من نسبته في البلاد الأخرى الغربية التي أباحت الطلاق ، وهو في البيئات المتعلمة ، كالزواج بثانية ، أقل كثيرا جدا منه في البيئات غير المتعلمة . . مما لا يمكن اعتبار هذا أو ذاك مشكلة في مجتمعاتنا والحمد لله . .

الرسول وزوجاته ﷺ

من الموضوعات الاسلامية التي يحلو للمبشرين وبعض المستشرقين والغربيين والمغرضين عموما ، أن يلغطوا فيها ، ويطعنوا بها على الاسلام ، وعلى الرسول ﷺ ، موضوع زواج الرسول بأكثر من أربع ، حتى توفي عن تسع من الزوجات . . ويركزون هجومهم على هذا الموضوع ، ويضايقون المسلمين كلما وجدوهم بالتحدث فيه ، وربما لا يسعف المسلم ما لديه من معلومات قليلة ، أن يرد عليهم فيتورط ويقع في ضيق شديد ، وربما يتسرب إلى نفسه شيء من الشك في دينه ورسوله ، كما حكى لي أحد ابنائنا الشبان المهندسين .

لذلك كان من المهم جدا لشبابنا ، سواء هنا أم بالخارج ، أن يتحصنوا بالمعلومات الصحيحة عن هذاالموضوع، لتقوية عقيدتهم من ناحية ، وليستطيعوا أن يدفعوا عن دينهم ورسولهم مثل هذه التعديات . .

[رد سريع]

ولقد أعجبني من قراءاتي في هذا الموضوع ، ما ذكره المرحوم

الدكتور مصطفى السباعي من محاورة دارت بينه وبين الأب مدير مدرسة الآباء اليسوعيين حين زارها في دبلن (ايرلندا) سنة ١٩٥٦ يقول[1] :

« فكان مما قلته له : لماذا تحملون على الاسلام ونبيه ، وبخاصة في كتبكم المدرسية ، مما لا يصح أن يقال في مثل هذا العصر ، الذي تعارفت فيه الشعوب ، والتقت الثقافات ؟

فأجابني : نحن الغربيين لا نستطيع أن نحترم رجلا تزوج تسع نساء !

قلت له : هل تحترمون نبي الله دواد ، ونبيه سليمان ؟

قال : نعم . . وهما عندنا من أنبياء التوراة .

قلت له : إن نبي الله دواد ، كان له تسع وتسعون زوجة ، « أكملهن بمائة بالزواج من زوجة قائده« أوريا » كما هو معلوم ، ونبي الله سليمان كانت له ـ كما جاء في التوراة ـ سبعمائة من الحرائر ، وثلثمائة من الجواري ، وكن أجمل أهل زمانه ، فلم يستحق احترامكم من يتزوج بألف امرأة ، ولا يستحق من يتزوج تسعا ؟!! لماذا لا يستحق احترامكم من تزوج تسعا ، ثمانية منهن ثيبات وأمهات ، وبعضهن عجائز ، والتاسعة هي الفتاة البكر الوحيدة التي تزوجها الرسول طيلة عمره ؟

فسكت قليلا ، وقال : لقد أخطأت التعبير ، أنا اقصد أننا نحن الغربيين لا نستسيغ الزواج بأكثر من واحدة ، ويبدو لنا أن من يعدد الزوجات غريب الأطوار أو عارم الشهوة !

(١) ص ٩٦ من كتابه « المرأة بين الشريعة والقانون » الطبعة الثالثة . .

قلت : فما تقولون في داود وسليمان عليهما السلام ، وبقية أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا جميعا معددين للزوجات ، بدءا من ابراهيم عليه السلام ؟

فسكت ولم يجد جوابا . . »اهـ . .

أعجبني هذا الرد السريع المختصر ، الذي أسكت هذا الأب اليسوعي ، فلم يجد منفذا يخرج منه ، ويواصل هجومه أو تهجمه ، دون الدخول في تفصيلات ، وذكر حقائق موضوعية ، قد يجد مثل هذا الأب وسيلة للرد عليها والجدل فيها ، ولو من قبيل المكابرة والمغالطة .

ويمكن لأي مسلم صادفه مثل هذا الأب ، أن يرد سريعا بهذا الرد ، ليسكت أي متهجم على الرسول والاسلام . . لكنا لا نريد أن نكتفي بهذا ، فقد يصادف المسلم إنسانا لا يؤمن بدين ، ويهاجم الاسلام والرسول من هذه الناحية ، كما يهاجم الانبياء السابقين ، ولذلك أضع أمامك بعض الحقائق الموضوعية التي تستطيع بها إفحام هؤلاء وهؤلاء . .

■ حياة الرسول الخاصة في شبابه ورجولته :

كل انسان في شبابه معرض لأن يقع في زلات ، ولاسيما في الناحية الجنسية ، ولكن التاريخ يذكر لنا شدة استقامة الرسول في صباه وشبابه ، لا يختلف على ذلك احد من المنصفين . .

ونجده ﷺ ، يتحدث عن فترة شبابه ، كما يتحدث عنها أي شاب ، أو أي رجل تعدى هذه الفترة من حياته ، فيقول ، وهو الصادق الأمين ، كما كان أهل مكة أعداؤه يقولون عنه ، قبل أن يبعثه

الله رسولا وبعد أن بعثه :

« ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به ، غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد ، ثم ما هممت بسوء حتى اكرمني الله عز وجل برسالته » ثم يذكر هاتين المرتين فيقول :

« فإني قد قلت ليلة لغلام من قريش ، كان يرعى معي ، بأعلى مكة (أي بضواحيها) : لو أبصرت لي غنمي ، حتى أدخل مكة ، فأسمر بها كما يسمر الشباب ؟

فقال : أفعل . .

« فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفا بالدفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان ابن فلان ، تزوج بفلانة بنت فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله على أذني ، فنمت ، فما أيقظني إلا مس الشمس :

« ثم جئت صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئا ، ثم أخبرته الخبر . .

« ثم قلت ليلة أخرى له مثل ذلك ، فقال : أفعل . .

فخرجت ، فسمعت حين جئت مكة ، مثل ما سمعت ، حين دخلت مكة تلك الليلة ، فجلست ، فضرب الله على أذني ، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس .

« فرجعت إلى صاحبي ، فأخبرته الخبر ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمه الله عز وجل ـ برسالته »[٢] .

---

(٢) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ١٩٦ أخلاق النبي للدكتور أحمد الحوفي .

قد يتظرف إنسان ويقول : وهل كان من المنتظر أن يحكي محمد عن نفسه ، ما يكون قد وقع له من هفوات شهوية في شبابه ؟ نقول اولا : إنه حكى ذلك وهو رسول ، ونشره على الناس ، وهو -ﷺ- منزه عن الكذب ، على ان الذين عاصروا شبابه وعرفوه موجودون ، وفيهم أعداء له مغرقون في عداوته ، فلوكان هناك شيء يخبئه ، لما أمن ان يظهره أحد من أعدائه ، وهو يحكي واقعا حصل له ، ثم يقول : ما هممت بسوء حتى أكرمني الله بالرسالة ، لا يأمن أن يأتي أحد ممن عاصروه وعادوه ، فيذكر له ما خبأه لو كان . . ويسوء موقفه بذلك بين أصحابه . . فلولا وثوق الرسول مما يقول ، حتى لينفي عن نفسه مجرد الهم والحديث النفسي بسوء ، ما جرؤ أن ينشر ويقول للناس : ما هممت بسوء حتى أكرمني الله بالرسالة ، ومعلوم أنه بعد الرسالة لا يهم بسوء ولا يفعله ، لاسيما بعد ان تعدى طور الشباب . .

ثم إن الذين عاشروه وخبروه في مكة شاباً ، ونفسوا عليه أن تزوجته خديجة ، بعد أن رفضت من تقدم اليها من كبارهم ؛ خلعوا عليه أشرف الألقاب التي كان يتطلع إليها كل شاب ، وكل رجل ، وهو لقب « الصادق الأمين » حتى أصبح يعرف به ، ولو لم يذكر اسمه « محمد » . ولذلك كان محل ثقتهم ورضاهم ، حين اختلفوا حول وضع الحجر الأسود في جدار الكعبة ، ولما يكن قد أرسل ، بل كان رجلاً عادياً مثل أي واحد منهم ، لكنه تميز عندهم بالصدق والأمانة ، ولو كان لاهياً مثل شباب مكة ، لما أجمعوا على نعته بهذا اللقب . .

ثم إنه لما أرسل اليهم ، وعادوه ، وتفننوا في الكيد له ، والحط من شأنه ، باتهامات متعددة ، لم يستطيعوا أن يجدوا تهمة تمسه من هذه الناحية ، فقالوا عنه : إنه شاعر ، وساحر ، وكاهن ، مما ذكره

القرآن، والتاريخ ، ولو كانوا قد عرفوا عنه أية ثغرة أو نقيصة تشينه من هذه الناحية ، لما ترددوا أبداً في النيل منه بها . .

فكان ذلك كله دليلاً قوياً على بياض صفحته ، مما تسود منه صفحات الشباب . .

وحين بلغ الخامسة والعشرين ، تزوج السيدة خديجة ! ولم يكن ينتظر التزوج بها ، وهي غنية ثرية ، وهو فقير ، وهي قد تزوجت من قبل ذلك مرتين ، ولكنها هي التي أعجبت به وباستقامته ، وخبرت أحواله حين خرج بتجارة لها الى الشام ، وحكي لها عبدها « ميسرة » الذي رافقه ، الشيء الكثير من أخلاقه وتصرفاته . .

ولو كان شاباً شهوياً ، تجرفه شهوته ، لكان من الممكن له أن يتزوج بكراً تليق وترضى به ، قبل أن يبلغ هذه السن كما هي العادة ، وكما كان يفعل أقرانه . . وكما كان يحث أصحابه بعد ذلك وهو يقول لهم « هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك » ؟!

ولكن هذه الناحية لم تكن تشغله .

ومع فارق السن بينه (٢٥ سنة) وبين السيدة خديجة (٤٠ سنة) حين تزوج بها ، وهي ثيب تزوجت مرتين قبله ، لم يفكر في الزواج من غيرها ، طيلة المدة التي قضاها معها وهي٢٥ سنة منها١٥ سنة قبل بعثته ، وعشر سنوات بعدها . . إذ توفيت والرسول ﷺ في سن الخمسين تقريباً .

ولو كان شاباً أو رجلاً تلعب به شهوته ، لكان في إمكانه أن يجري على عادة قومه ، ويتزوج على خديجة ، لا سيا عندما كبرت سنها ،

فقد توفيت عن نحو خمس وستين سنة . . وكان عليه الصلاة والسلام في سن الخمسين في ذلك الوقت . كان يمكنه أن يتزوج ، وهي تكبره بنحوخمسة عشر عاماً ، لا سيما بعد أن تخطت الخمسين والستين من عمرها ، ولكنه عليه الصلاة والسلام ، لم يكن يلقى بالاً لهذه الناحية ، التي تشغل أمثاله من الرجال عادة ، وظل معها ، حتى ودعها إلى مثواها الأخير ، وهو جد حزين عليها وفي لها . حتى لم ينسها طول حياته ، فكان يذكرها دائماً ، ويثني عليها ، على مسمع من زوجاته ، حتى لتقول السيدة عائشة رضي الله عنها : ما غرت من امرأة مثل ما غرت من خديجة ، لكثرة ذكر الرسول إياها ، حتى أنه كان يذبح الشاة ، فيتتبع صديقات خديجة ، يهديها إليهن . وذلك كله بعد موتها . .

وحين استبدت الغيرة مرة بالسيدة عائشة الشابة ، من كثرة ذكر النبي لها ، وثنائه على أيامها ، قالت له : « هل كانت الا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها » ؟! فغضب الرسول ، حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : « لا والله ، ما أبدلني خيراً منها . . » « الحديث » حتى قالت السيدة عائشة ، وهي تروي هذا : « فقلت في نفسي ، لا أذكرها بسوء أبداً » .

وهذا الذي يقوله الرسول ﷺ عن زوجة توفيت وفي وجه زوجته الشابة التي تحركها الغيرة ، يدل على منتهى حبه وتقديره ووفائه عليه الصلاة والسلام لها . . حتى آخر لحظة من حياتها ، بل حتى آخر لحظة من حياته ﷺ ، وبعد موتها وهي عجوز ، قد فرغت مما لا يفرغ منه النساء المتوسطات أو الصغيرات السن عادة. ولم يعد فيها مأرب للزوج الرجل ، وهو أقوى منها ، في الاربعينات من عمره .

لو كان مثل الرجال الذين يستجيبون لداعي الشهوة فيهم ، لتزوج وهو في الأربعينات، وهي قد شاخت ، تقبل على الستين بل تتخطاها ، وقد كانت له حينذاك مندوحة ومبرر للزواج ، حتى في نظر السيدة خديجة ، والعادة جارية على مثل هذا . .

لكنه لم يفعل ، لأنه لم يكن مثل كل الرجال ، أو مثل هؤلاء الذين تلعب بهم شهواتهم ، ويتهمونه بأنه كان مثلهم رجلاً شهوياً ، تقوده شهوته !! حسبوه واحداً منهم !!

وخسئوا ، وضلت عقولهم ، وسيطر عليهم حقدهم وتعصبهم ، فلو كان مثلهم تقوده شهوته ، لتزوج وخديجة رضي الله عنها وأرضاها ، قد دخلت في الشيخوخة المتأخرة ، وهو في أوج قوته ، تلبية لنداء شهوته . . ولكنه لم يفعل . .

ولو كان مثلهم لسارع بعد موت خديجة ، ليريح نفسه ، ويسليها بالزواج من بكر أو شابة جميلة ، تعوضه طول عشرته لعجوز ، كالسيدة خديجة ، وتملأ عليه البيت كما يقال . .

ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يسارع إلى زواج . . وكانت أول واحدة تزوجها بعد خديجة امرأة كبيرة السن وهي :

■ ١ ـ السيدة سودة بنت زمعة : وكانت من أسبق النساء للاسلام ، متحدية بذلك أهلها ، وتزوجت ابن عمها ، وهاجرا للحبشة، ثم عادا لمكة ، ولكن زوجها توفي . . وكانت لا تستطيع أن تلحق بأهلها الكفار الذين تحدتهم من قبل ، وخرجت عن رأيهم بإسلامها . وقد صارت كبيرة السن ، ثقيلة الحركة ، لا يرغب في مثلها أكفاؤها من الرجال . . وكانت مع ذلك فيها حدة . وسرعة غضب ،

ليس بها من المرغبات للرجال مثل ما بها من المنفرات . فمن لهذه المسلمة الكريمة التي آثرت الإسلام على أهلها ؟ وتحملت المتاعب مع زوجها ، في هجرتها للحبشة ، واقامتها في دار الغربة ، فراراً بدينها ، ثم حين عادا لمكة ، لحقها سوء الحظ بوفاة زوجها . . فأين تذهب ، وهي كبيرة السن ، بطيئة الحركة ، وفيها شدة وحدة ؟ فمن يرغب في الزواج بمثلها ؟ . . إنها إذن لضائعة . .

هنا يتقدم الرسول ، صاحب الرسالة ، والقلب الكبير ، والمسؤول الأول عن أصحابه المسلمين ، لينقذ هذه السيدة المسلمة من مأساتها ، وينتشلها من حيرتها وبؤسها . . ويضمها إلى رعايته معلناً زواجه بها قبل الهجرة بسنتين وبعد وفاة السيدة خديجة بأكثر من سنة . . ولكنه لم يدخل بها إلا بعد أن هاجر للمدينة .

فهل كان رجلاً شهوانياً حين تزوجها ، وقد فرضتها ظروف حياتها فرضاً على الرسول . . هل كان مثلها في هذه السن وهذه الصفات ممن تسد شهوة أو ترضي رغبة ؟ ومع ذلك فلو كان شهوانياً منجذباً للنساء ، شغوفاً بهن شغف أمثاله من الرجال . لبادر بالدخول بها ، ولكنه ظل سنتين بمكة ، لم يدخل بها ، وهاجرت للمدينة ، وهناك دخل بها . . فهل في ظل هذه الظروف ، يمكن أن يدعى عاقل ، أو يتصور مجرد تصور ، ان محمداً ﷺ تزوج تلبية لشهوة عنده ؟!!

وكانت الزوجة الثانية بعد وفاة السيدة خديجة هي :

■ ٢ ـ السيدة عائشة بنت صديقة : وأقرب أصحابه اليه : أبي بكر رضي الله عنه . . كانت لا تزال صبية ، وقد أراد الرسول ﷺ أن يقوي

العلاقة بينه ، وبين صاحبه الأول أبي بكر أكثر مما هي عليه ، فخطبها وهو في مكة ، ولكنه لم يدخل بها إلا في المدينة ، وهي البكر الوحيدة في نسائه اللاتي تزوج بهن . . لم يدخل بها إلا بعد نحو أربع سنين من وفاة السيدة خديجة ، وكان عليه الصلاة والسلام في أشد الحاجة إلى زوجة تقوم بشؤونه ، وترعى بيته ، لا سيا وان حال سودة كما رأينا ، فكانت زوجة اسما لا فعلاً . .

■ ٣ ـ السيدة حفصة بنت عمر : وقد حدث بعد ذلك أن استشهد

الصحابي « خنيس بن حذافة السهمي » زوج السيدة حفصة بنت عمر ، متأثراً بجراح أصابته في غزوة بدر . ولا شك أن عمر قد تأثر وحزن لوفاة زوج ابنته . وجرياً على العادة السائدة في ذلك الوقت عرض زواجها على صديقه أبي بكر ، فسكت ، ولم يجبه ، فاستاء عمر من هذا الرفض .

ثم عرضها على صديقه « عثمان » وكانت زوجته رقية بنت الرسول ﷺ قد توفيت ، فقال عثمان له : لا أريد أن أتزوج الآن ، ربما لأنه كان يرمي إلى الزواج من بنت الرسول الأخرى: أم كلثوم . .

وصعب على العزيز عمر ، أن يلقى الرفض من صديقيه ، فذهب إلى الرسول يشكو إليه همه ، وقص عليه ما حدث مع صاحبيه : أبي بكر وعثمان . .

فماذا تتوقع أن يعالج به الرسول هذا الموقف ، وهذا وزيره الثاني يشكو اليه همه وحزنه ، ويرثى لحال ابنته الثكلى ؟ أقول : إن هنا موقفاً فرض نفسه على رسول الله ، فقد تزوج من قبل بنت صاحبه أبي

بكر ، وتزوج قبلها سودة بنت زمعة لظروفها السيئة . وليست بنت عمر أقل منهما ، وليس عمر أقل تطلعاً لشرف مصاهرة رسول الله من أبي بكر ، وهما معاً وزيراه المقربان ، وأعتقد أن رسول الله ﷺ بفطنته ، لا بد أنه لمح ذلك وقدره ، كما تأثر لما لحق عمر من غضب ، لتصرف صديقيه معه . وهو لا يريد أن يكون بين أقرب المقربين إليه أي شيء يمكن أن يفرق بينهم . .

ولذلك كان رد الرسول عليه : « يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان ، من هي خير من حفصة » .

ولم يكن ذلك لغزاً صعب الفهم . . فلا بد أن عمر فهم على الأقل أن الرسول سيخطب بنته ، وفعلاً خطبها منه ، وتزوجها في السنة الثالثة من الهجرة ، وربط بذلك بينه وبين وزيريه - أبي بكر وعمر - برباط المصاهرة ، فوق رباط الدين ، وكرم عمر ، كما كرم من قبل أبا بكر ، بهذه المصاهرة . . وزوج عثمان من ابنته أم كلثوم ، وبذلك كرم الجميع ، وأزال سحابة الصيف التي أظلت نفس عمر رضي الله عنه ، وحمد أبو بكر وعثمان ربهما ؛ لعلاج الرسول هذا الموقف على هذه الصورة . . فهل كان زواجه من حفصة لشهوة ، أو كان حلاً لإشكال ، وتمتيناً للروابط . .

وتتوالى الظروف التي تفرض على الرسول أن يتقدم لعلاج ما ينشأ فيها ، وما تخلفه من مواقف . . ويجد نفسه وجهاً لوجه أمام حالة لا بد أن يتحمل هو وحده علاجها ، ولا يدعو غيره لهذا العلاج ، والرسول ﷺ كما يقول : عائل من لا عائل له ، ومن هنا تزوج :

■ ٤ - أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية : فقد حدث لها من الظروف ما فرض على الرسول أن يتزوجها ، ويرعاها ،

ويرعى أولادها . . وهل كان من الممكن أن يترك الرسول امرأة ، بادرت باعتناق الاسلام وتحملت ما تحملته في سبيل دينها ، هي وزوجها أبو سلمة « عبد الله بن عبد الأسد المخزومي » ، فهاجرا للحبشة ، ثم عادا وشهد الزوج الفارس غزوة بدر ، ثم غزوة أحد ، وجرح فيها ، ومات متأثراً بجراحه ، تاركاً زوجته المجاهدة المهاجرة ، وأولاداً له ، وهي كبيرة السن ، قد أجهدتها السنون والأحداث . . فمن يرعاها ويرعى أولادها في المدينة ، وهي مسلمة وأولادها مسلمون ؟ .

تقدم لها أبو بكر كما تقدم لها عمر ، ولكنها اعتذرت ، لكبر سنها ، ولكثرة عيالها ، وشدة غيرتها . . وبقيت تجابه الحياة هي وأولادها ، ويشتد حزنها على رجلها الشهيد ، وعلى حالهم بعد استشهاده .

ولم يكن ليسهل على الرسول ؛ الأب الروحي للجميع ، والمسئول عنهم ، وعن الشهداء وأسرهم بنوع خاص ، أن يترك هذه الأسرة ، يرعاها الحزن ، وتهدها الحاجة ، ولا عائل لها يرعاها ، ويتكفل بها ، ويكون هذا مصير عائلات المضحين الشهداء . فذهب رسول الله إليها يواسيها ، ويطمئنها على حالها ، وحال أولادها ، وقال لها : سلي الله أن يؤاجرك في مصيبتك ، وأن يخلفك خيراً . فقالت : ومن يكون خيراً من أبي سلمة ؟ وهو رد يفيض بالحزن والهم . .

ولكنها وجدت فعلاً من هو خير من أبي سلمة ، وجدت رسول الله يعلن زواجه منها ، وكفالته لأولادها . . وكانت قد رفضت من قبل أن تتزوج أبا بكو أو عمر ، لأنها تعلم أنها كثيرة العيال كبير السن ، ومع ذلك شديدة الغيرة ، فلم تقبل على الحياة مع أي منهما

وهي على هذه الحال ، أنفة منها أن تحمل واحداً منهما همومها ، وعبء أولادها . وحين خطبها رسول الله صارحته أيضاً بما يمنعها من الاستجابة : « أنا امرأة كبيرة السن ، كثيرة العيال ، شديدة الغيرة »

فقال لها رسول الله ﷺ : « أنا أكبر منك سناً ، وأما العيال فإلى الله ، وأما الغيرة فأدعو الله أن يذهبها عنك » . .

فهل امرأة على هذه الحال ، وبهذه العيوب ، يقبل عليها رجل تقوده شهوته وأمامه الكثيرات من الأبكار يتمنين ويتمنى أهلوهم مصاهرته ؟ ، أم أن هناك معاني عليا كريمة ، لا يدركها أمثال هؤلاء الحاقدين ، هي التي جعلت الرسول يقدم على زواجها ، ويتحمل ما يتحمل من أجلها ؟ بعد أن رفضت الزواج بمن تقدم إليها ، حتلا لا تحملهم وتحمل أسرتهم أثقالها ، وهي لا تضمن أن تستريح أو تستمر مع أي منهما . .

أما رسول الله ، فهي ضامنة معه راحتها ، ورعاية أولادها ، لا سيما بعد أن صارحته بعيوبها ، والزواج منه شرف لا يعادله شرف آخر .

ولو كانت قد رضيت بمن تقدم لها أولاً . . لانتهى أمرها ، ولما كان هناك مجال ليتقدم الرسول اليها ، ولكن كانت مشيئة الله سبحانه . . وأضيفت إلى الرسول أعباء جديدة . . لا امرأة ترضي شهوة أي رجل . .

لقد كان على الرسول ﷺ في موقعه ، أن يقوم بما تقوم به الدول الآن من رعاية المحتاجين ، وكفالة أسر الشهداء ، وهو ـ كما يصفه الله ـ ﴿ عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف

رحيم ﴾(٣) ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾(٤) ، وكما يقول ﷺ « أنا كفيل من لا كفيل له » ، كان هو الرسول ، وهو الدولة ، وهو الوالد الحنون على أولاده ، وعليه واليه تؤول كفالة من لا كفيل له ، وكان يبذل هذه الكفالة أحياناً في صورة وسام عملي لأسرة الشهيد ، هو احتضانه المباشر لها ، بزواجه من زوجته ، ورعايته لمن يكون من أولاده ، رعاية مباشرة ، يتحدث بها المتحدثون من الأزواج وأسرهم في زهو وفخر ، ويعلمون أنهم لن يضاموا ، إذا استشهد عائلهم ، ولم يكن لهم عائل ، فرسول الله عائل الجميع ، فأية قوة معنوية تملأ نفوس المجاهدين وأسرهم ، وهم يرون مثل هذه الكفالة ؟

من هنا ، وانطلاقاً من هذا الخط ، تزوج الرسول ﷺ أم سلمة ؛ كما تزوج زوجة شهيداً آخر في بدر هي :

■ ٥ - السيدة زينب بنت خزيمة « أم سلمة » : وكانت في الجاهلية تدعى أم المساكين ، لعطفها عليهم ، وبرها بهم ، استشهد زوجها في غزوة بدر ، وكانت امرأة عادية ، لا صبا فيها ، ولا جمال يغرى بها الرجال فأكرمها الرسول بضمها إلى زوجاته في السنة الثالثة من الهجرة ، ولكنها لم تعش معه إلا قليلاً . وانتقلت إلى رحمة الله . .

وكان ﷺ بصفته رئيساً للدولة ، مسئولاً عن سياستها ، وعن اقامة التوازن بينها وبين من حولها ممن يمثلون مراكز قوى ، والعمل على توطيد دولته ، بصلات تربطها مع هذه المراكز . وكما كان يدأب الملوك على مر التاريخ على أن يعنوا بهذه الناحية ، ويصهروا مع ملوك الدول الأخرى ، ليأمنوا جانبهم من ناحية ، وليضمنوهم في صفهم

(٣) آخر سورة التوبة .
(٤) الأحزاب / ٦ .

من ناحية أخرى . . كان للرسول ﷺ خطوات في هذه الناحية ، اتسمت أولاً بالإكرام وحسن الرعاية ، ومنتهى سمو الخلق ، وانتهت بالمصاهرة ، ليطفىء بها نار عداوة مشتعلة ، ومن هذا القبيل زواجه .

■ ٦ ـ السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية :كان أبوها سيد بني المصطلق ، الذين تألبوا على رسول الله ودعوته ، وأعلنوا عداوتهم وحربهم له . . وانتصر عليهم المسلمون في السنة الخامسة من الهجرة ، وأسروا منهم من تمكنوا من أسره . . وكان من الاسرى سيدة كانت زوجة لمسافع بن صفوان ، وابنة سيد القبيلة ، ووقعت في سهم الصحابي « ثابت بن قيس » الذي أسرها ، فكانت من نصيبه ، فكاتبها على مال ليعتقها ، ولكنها لم تجد المال ، فذهبت للرسول ﷺ تشكو إليه حالها ، وتقول له :«أنا بنت الحارث بن ضرار سيد قومه ، وقد كاتبني ثابت بن قيس ، وجئت أستعين بك » أي بمال أو دين . . وهنا كانت ألمعية رئيس الدولة القائد وكان الظرف المواتي الذي لم يضيعه في جذب بني المصطلق إلى صفه ، وكان إكرامه لعزيز قوم ذل ، فقال لها : هل لك في خير من هذا ؟

قالت : وما هو يا رسول الله ؟

قال : أقضي عنك كتابتك وأتزوجك .

ولم تكن « برة » ـ وهو اسمها في ذلك الوقت ـ تحلم بهذا ، بل كان همها أن تجد المال الذي تفك به رقبتها ، وتعود إلى أبيها . . ولذلك أسرعت ، وقالت : نعم . . وفعل رسول الله ما وعد به : فأعتقها وتزوجها ، . . وانتشر الخبر بين أصحاب رسول الله ، وأسرى بني المصطلق في يد بعض الصحابة يعانون ذل الأسر ، وتحدثوا : لقد

صار بنو المصطلق أصهارا لرسول الله ، فكيف نبقى على أسراهم في يدنا ؟ وأطلقوا أسراهم ، وحرروهم من الرق . . بسبب هذه المصاهرة . . حتى لكانت السيدة عائشة تقول : لا نعلم امرأة كانت خيراً وبركة على قومها من « جويريه » ، وهو الاسم الذي أطلقه الرسول على « برة » زوجته الجديدة . .

أما بنو المصطلق وهم الذين انهزموا أمام جيش الرسول ، وعادوا بغيظهم وحسرتهم يندبون قتلاهم وأسراهم ، فقد وجدوا ما لم يكونوا يتوقعون ، لقد تزوج « محمد » المنتصر من ابنتهم ، وأطلق أسراهم ، وعادوا إليهم مكرمين ، كما أن بنتهم صارت إلى أكرم زوج ، وأفضل بيت . وصاروا أصهار الرسول ، يا له من شرف لم يكونوا ليتوقعوه . .

وأثرت هذه الخطوة الكريمة في نفوسهم أيما تأثير ، فأقبلوا على الإسلام ، ووقفوا مع الرسول ينصرونه ، بعد أن كانوا من أشد أعدائه ، ومن المحرضين عليه ، المثيرين القبائل من حولهم لمحاربته . .

خطوة من الرسول القائد ، كسبت للإسلام موقعاً جديداً ، وانصاراً عديدين ، لم تكن لتكسبها الحروب والدماء . . وكان الرسول ﷺ في ذلك الوقت يناهز الثامنة والخمسين ، فلم يكن ليقع تحت تأثير شهوة ، يتخذ هذه الخطوة لإرضائها ، ولكنها كما يقولون : « ضربة معلم » . . سياسية ، كسبت للإسلام والمسلمين أنصاراً أقوياء مخلصين . .

فهل يعاب على الرسول ، وهو القائد المسئول عن دعوته وأمته ، ـ أن يتخذ هذه الخطوة ، التي يتخذ مثلها كثير من الملوك والرؤساء ،

لتوطيد علاقاتهم مع دول مجاورة ، أو غير مجاورة ؟ وهذه دول أوربا تتشابك أنساب الأسر المالكة فيها ، وتتعاطف ؛ بسبب المصاهرة من زمن بعيد ، مما كان له تأثير على مجرى الأحداث فيها . .

فلماذا نخرج هذه الواقعة عن حيزها وظروفها ، ونجرها جرا الى ظروف الشهوة ؟

إذا كان هناك تعليق أو نقد ، فليكن منصباً على هذه المصاهرة السياسية ، وليقولوا لنا : ما عندهم عنها ؟

ولم تكن هذه هي المصاهرة السياسية الوحيدة ، بل كان معها غيرها ، جرياً على سياسة مرسومة معمول بها في العالم وعلى مر التاريخ . لقد كانت مصاهرات الرسول ﷺ بعد زواجه بالسيدة خديجة محكومة بمنطق مصلحة الدعوة الاسلامية ، سواء فيمن تزوج بهم، أو فيمن زوجهم ببناته ، فالخلفاء الراشدون الأربع - وهم أعيان وكبار صحابته ، والمضحون الأول في سبيل الدعوة - ربط اثنين منهم بالتزوج من بنتيهما : عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، واثنين منهم آخرين زوجهما الرسول ببناته « عثمان بن أبي عفان ، وعلي بن أبي طالب » .

ثم دارت الزيجات الأخرى : إما في دائرة الكفالة للزوجات والأولاد تكريماً للشهداء ، وتقوية للروح المعنوية في الأحياء ، خدمة للاسلام ، وإما في دائرة خدمة الاسلام أيضاً من ناحية المصاهرة السياسية التي تجمع الأنصار ، وتقوي أزر المسلمين . . وتقلل من الأعداء ، وتهز من روحهم العدائية . . وتحملهم على الانكماش . .

هكذا دارت زيجات الرسول ﷺ في هذه الدائرة ، التي تدور حول مصلحة الدعوة ، بعيداً عن التهريج الحقدي ، الذي هرج

ويهرج به هؤلاء ، ويشغبوا على الاسلام ورسوله ، لحاجة في أنفسهم نعرفها ، فليسوا من البلهاء الذين لا يعقلون ، ولكنهم عقلاء حاقدون ؛ أعماهم حقدهم عن الحق الذي لا ريب فيه . .

وفي هذه الدائرة كان زواجه أيضاً بالسيدة رملة المعروفة باسم :

■ ٧ ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان : وكان أبوها رأس الكفر والعداوة لرسول الله ، وهو في مكة ، وبعد أن هاجر للمدينة ، وقد أسلمت هي في مكة ، على الرغم من أبيها ، وهاجرت مع زوجها « عبيد الله بن جحش » إلى الحبشة ، فراراً بدينهما ، ولكنه ما لبث أن تنصر هناك ، ودعاها إلى متابعته ، ولكنها أبت ، وأصرت على دينها ، ومات هو هناك ، وظلت وحيدة ، حتى عادت للمدينة في السنة السادسة من الهجرة ، عام الهدنة . وما كانت لتذهب الى أبيها ، وقد ناصبته العداء من قبل وقطعت ما بينها وبينه ، حين أسلمت وهاجرت ، فلم تجد أمامها باباً مفتوحاً ، إلا باب الرسول ، وعنايته بالمسلمين ولا سيما أمثالها . . وكان لها من مواقفها هذه ما يسجل لها بكل تقدير فمن يتلقاها ويكرمها ، ويعرف قدرها إلا الرسول ؟ ومن يكافئها على هذا الموقف ويرعاها ، إلا راعي الأمة ، وحامل مسئوليتها ؟ .

ولذلك كله ، واحتمالاً لتألف أبيها ، تزوجها الرسول ﷺ في العام السابع من الهجرة . يعني والرسول يحمل على كاهله أعباء ستين سنة ، وأعباء الدعوة الاسلامية ، والدفاع عنها في حروب متتالية ، وما كان لمثله في هذه السن ، وأمام هذه الأعباء أن تتحرك فيه شهوة لزوجة جديدة . . ولكنه كان قدره الذي تحمل أعباءه في صبر ، ورضا نفس ، وانشراح صدر ، ما دام هذا كله من أجل الدعوة الاسلامية . .

■ ٨ ـ السيدة زينب بنت جحش : وكان قدره أيضاً أن يلقى الله عليه عبء تجربة جديدة مرت على النفوس ، خارجة عن تقاليد العرب وما ألفوه ، وساروا عليه .. وما كان غيره ليتحمل الدخول في هذه التجربة ، ولا تتوفر له ظروفها ، وحتى لو خاضها غيره فلن تكون لها قوتها ..

فقد حرم الله التبني ، بقوله ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾(٥) وكان ذلك هدماً لعادة عربية متأصلة ، بنوا عليها آثارها من أن الأب المتبني لا يتزوج امرأة ابنه بالتبني ، كما لا يتزوج امرأة تزوجها ابنه بالنسب

فحكم الاثنين واحد عندهم ، لا فرق بين الابن بالتبني ، وبين الابن بالنسب ، مما يدل على تأصل عادة التبني فيهم ..

والقضاء على العادة المتأصلة في مثل هذه صعب وعسير ، ويقضي باتخاذ اجراء قوي يحدث دوياً ورجة في النفوس ، يجعلها تنفض هذه العادة سريعاً وبشيء من السهولة على النفس بدلاً من أن يسلك سلوكاً بطيئاً متدرجاً للقضاء عليها . واختار الله الطريق الأول السريع الحاسم ، للقضاء على هذه العادة .

والناحية العملية هي دائماً الناحية الحاسمة في سن تشريع وفي إبطال عادة .. والله سبحانه قد أصدر أمره بإبطال التبني .. ولكي يؤكد هذا الأمر كان من الطبيعي ، أن يلغي آثاره ، وكان من اثاره عدم التزوج بامرأة تزوجها المتبني . فليلغ إذن هذا الأثر وبتجربة عملية رائدة وحاسمة .

---

(٥) الأحزاب / ٤

ولكن من يمكن إجراء هذه التجربة عليه ، ويكون لها وقعها ودويها ؟

لا أحد غير رسول الله ، يخوض هذه التجربة ، فهو سيلبي توجيه الله في ذلك ، وهو محل الثقة والقدوة من الجميع ، لا سبيل لأحد أن يشكك فيما يفعله أو يتردد في الاقتداء به ، والمواد التي ستجري بها التجربة موجودة ، قد أعدها الله وهيأها بحكمته . فزيد بن حارثة كان الرسول قد تبناه ، منذ كان في مكة قبل البعثة جرياً على عادة العرب ، أعتقه واتخذه ابنا له ، فكان يدعى « زيد بن محمد » وسارت الحياة على هذا ، بعد انتقاله وهجرته للمدينة ، يدعوه الرسول ويدعوه المسلمون والعرب : زيد بن محمد ، وعندما نزلت الآية بإبطال التبني وقالت ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ دعاه النبي لأبيه فصار : زيد بن حارثة .

لكن العرب الذين تأصلت فيهم عادة التبني يحتاجون إلى هزة قوية ، تحملهم على إلغاء هذه العادة ـ كما قلنا ـ والغاء اثارها . ومواد التجربة موجودة : زيد المتبنى . . والمادة الثانية للتجربة ، كانت زوجته « زينب » التي طلقها ، لما استحالت العشرة بينهما . . وكانت بنت عمة رسول الله ، وخطبها الرسول لإبنه زيد ، فأبت وأبى اخوها عبد الله اولا ، لانها شريفة بنت عمة الرسول ، وزيد كان عبداً اعتقه الرسول ، وليس له أسرة يعرف بها برغم ما يقال له : زيد بن محمد ! !

وكان الله سبحانه يدبر للأمر ، وهو بكل شيء عليم . . فأنزل آيات من القرآن في شأن هذا الموقف ، ويعيب على زينب وأسرتها ، رفضهم وعدم الاستجابة لرسول الله ، ويقول ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن

يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾(٦) .

وكان لهذه الآية وقعها الشديد على نفس زينب وأخيها المتمنعين الرافضين لرأي الرسول ، فسارعا بالقبول خضوعاً لله وله ، وتزوجها زيد ، ودخل بها ، وعاشا معاً . . لكن أية معيشة ؟ . فمهما تستسلم زينب لأمر الله ورسوله وتنفذه ، فإن لها قلبها ونفسيتها ، وليس من السهل تحويل القلب ، وإجباره على الاستجابة ، ولذلك ظلت معيشتها مكدرة منغصة ، فهناك حائل قلبي وحاجز نفسي يحول دائماً بينها وبينه ، ولا بد أن تظهر آثاره على تصرفاتها معه فوق أنها كانت تتعالى عليه ، وتؤذيه بأنها شريفه ، وهو عبد عتيق . مما لم يكن يطيقه زوج .

وإذا كان زيد قد راض نفسه على التحمل في بادىء الأمر ، وكان يعلل نفسه بأنها ستنتهي عن هذا ، عندما تمضي أيام على الزواج وتنكسر حدتها ، فإنها لم تهدأ ، واستمرت تعايره وتؤذيه ، فاضطر أن يرجع إلى رسول الله ويشكو إليه . وكان الرسول قد أعلمه الله بهذه التجربة التي سيجريها عليه قبل ذلك ، ليهيء نفسه على تحملها . .

وكانت الأحداث تتوالى أمامه ، لتقترب به من إجراء التجربة ، والرسول مع خضوعه التام لأمر الله وإرادته ، بشر ، يعتري قلبه ويجري عليه ، ما يعتري قلوب البشر ، ويجري عليهم ، فكان في قلبه شيء من الزواج بامرأة تزوجها ابنه المتبنى ، خوفاً من تعيير العرب له ، واستنكارهم ، وللرأي العام سلطانه ـ ولذلك كان اذا اشتكى زيد اليه ما تفعله معه زوجته « زينب » ويطلب تطليقها يقول له « أمسك عليك زوجك واتق الله » . تمهل واصبر عسى أن تغير من سلوكها ، ويصلح

---

(٦) الأحزاب / ٣٦ .

حالها ، إلى مثل ذلك ، مما تفيده عبارة القرآن الموجزة ، لكي يؤخر ما استطاع وقت التجربة المرة التي يقبل عليها ، وذلك من واقع الطبيعة البشرية ، لا رفضاً لها ، ولكن تخوفاً وتأجيلاً . . فالموت حق وآت لا ريب فيه ، ولا مفر منه ، ولكن النفس مع ذلك تكره وقوعه ، وتحاول ـ ما استطاعت ـ تأجيله بالعلاج وغيره . .

وإذا كان هذا هو موقف الرسول ، ومدى تخوفه من التجربة، مع خضوعه لها ، فماذا ـ إذن ـ كان المنتظر أن يحدث من غيره لو اختير لها ؟ .

وقد عاتب الله رسوله على هذا الموقف ، وعلى خشيته هذه الخشية من الرأي العام ، حتى لتحمله على تأجيلها ما أمكن . . فيقول له(٧)

﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وانعمت عليه(انعم الله بالاسلام وانعمت عليه بإعتاق يشير الى زيد) « امسك عليك زوجك (ولا تطلقها) واتق الله . وتخفي في نفسك ما الله مبديه (وهو زواجك المرتقب من زينب) وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (تخشى كلام الناس واللائق بك الا تقف هذا الموقف) فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ». ولم كل هذا ؟ يقول الله معللاً له : ﴿ لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ أي دخلوا بهن « وكان أمر الله مفعولاً » نافذاً لا محالة ، هذا هو الغرض من التجربة ، وهو ألا يتحرج أحد من التزوج بامرأة ابنه المتبنى فقد رأى المسلمون والعرب جميعاً أن محمداً تزوج فعلاً من امرأة ابنه زيد المتبنى، فلينهدم ـ إذن ـ في أذهانهم ما رسخ فيها طوال الأجيال ، من التبني ومن آثاره . . فلم يعد للتبني مكان في المجتمع المسلم ، وبالتالي

(٧) في سورة الأحزاب / ٣٦ ـ ٣٧ .

آثاره التي تترتب عليه . . وما كان ليقضي بقوة على هذه العادة المتأصلة ، إلا بتجربة عملية كهذه ، وما كان أحد ليقدر على تحمل هذه التجربة إلا محمد ، وما كان لها من قوة وأثر إلا بإجرائها على القدوة والمثل الأعلى ، الذي يقتدى به الجميع . . خطوات يأخذ بعضها ببعض ، وأجزاء طبيعية للتجربة الرائدة ، لكي يتم نجاحها بتفوق .

لهذا ولهذا وحده تزوج الرسول : زينب بنت جحش « بنت عمته » ، وما كانت بعيدة عنه قبل ذلك ، بل كان عندها وعند أهلها أمل أن يتزوجها ، حتى انهم ظنوا ـ حين ذهب اليهم ـ أن الرسول سيخطبها لنفسه ، وفرحت وفرحوا ، ولكنهم صدموا ايما صدمة ، حين عرفوا أنه ﷺ يخطبها لابنه المتبنى « زيد » . ومن زيد ؟ إنه العبد العتيق . . فلم يقبلوا إلا بعسر وبأمر قرآني من الله مع عتاب وتهديد ، لم يترك لهم أي خيار . ولذلك قيل : إن زينب هي الوحيدة التي تدخل الله وقضى بزواجها الأول ، من زيد ، وزواجها الثاني ، من رسول الله . . ولم تكن هذه العناية الألهية بأمر زواج ، هو متروك عادة لاختيار الطرفين ، لولا أنها خطة موضوعة مرسومة ، رسمها المخطط والمدبر الأعظم سبحانه لغاية يريدها هو « وما كان لهم الخيرة من أمرهم » فحين يختار الله ويريد . لا بد من نفاذ ما يختار ، وتحقيق ما يريد « إنما أمره إذا أراد امراً أن يقول له كن فيكون »(٨) .

فمن ذا يقول بعد هذا إن هذا الزواج بزينب كان برغبته ، حتى يقول : إنه كان تلبية لشهوة منه ـ كما يقول بعض الحاقدين الملفقين ، ويخترعون قصة ينسجها خيالهم حول الرسول ، وهي لا تليق بخلق الرجل العادي . . فيدعون أن الرسول أحبها وهي زوجة لزيد ،

---

(٨) آخر سورة « يس » .

وتعلق قلبه بها ، واتجه إلى الزواج منهـا ، وكان الرسـول رجـل من المستهترين الذين يسطون على زوجات الغير ، وكأن الله ـ تعالى عن ذلك ـ يبارك هذا الاستهتار وهذه الرغبة . فيقول له ولم لا ؟ لم تخفي في نفسـك هذه الرغبـة « وتخفـي في نفسـك ما الله مبـديه وتخشى الناس . . . ؟ » كأن الله ـ تعـالى عن ذلك علـوا كبـيرا ـ على نفسـهم ، متحلل مثلهم، يبارك مثل هذه العلاقـات ، كما يبـاركون العلاقات الآثمة بين بناتهم وبـين الشبـاب !! هل يعقـل أن يطمـع الرسول في زوجة لأحد أصحابه ؟ وحتى على فرض أن ذلك حصـل ـ وهو مستحيل ـ فهل يعقل أن الله يبارك مثل هذا التصرف الخارج من الأخلاق بين عامة الناس ؟ سبحانه وتعالى عن ذلك . .

إنهـم ينسجـون القصـة من خيوط خيالهـم المريض، ونفسيتهـم المتحللة ، ولا يتورعون أو يستحون .

إن الله يقول ﴿ زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنـين حرج في أزواج أدعيائهم . . ﴾ ولو كان الأمر كما يقول هؤلاء ويدعون ، لما كان هناك حاجة لتدخل الله ، ولكان من المنطق السليم أن يقول : زوجناكها لنلبي بهذا الزواج رغبتك وشهوتك ونرضيك . .

ولكنه علل قصة الـزواج كلهـا بعلـة : ألا يتحـرج المؤمـن من التزوج بعد ذلك بامرأة تزوجها ابنـه بالتبنـي ، ولـذلك تصـدى الله للدفاع عن الرسول ، أمام الرأي العام وعيبه عليه في تزوجه بزوجة ابنه بالتبني ، قال : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله لـه ﴾ فيما قضاه وأوجبه الله وأراده فهو ينفذ أمر الله وإرادته لا إرادته هو ، وهي سنة درج عليها الرسل جميعاً : ان يطيعوا ويمتثلوا . والرسول قد نفذ ما قضى الله ، فلا يتوجه أحد عليه بلـوم في هذاالـزواج ، لأنـه

خالف فيه عادة قومه .

وهل يتصور بعد هذا أحد أن الرسول أقبل على هذه المتاعب كلها لمجرد شهوة ، وما كان شاباً تدفعه شهوته ، وهو حين كان شاباً لم تدفعه شهوته لشيء ولو كان سهلاً ؟ فما بالنا وهو في الستين ؟

هذه حقيقة زواج الرسول بزينب ، وهي بعيدة كل البعد عن مثل هذه السخافات التي يروجها الضالون المضللون ، والتي قد تروج على بعض الطيبين « المغفلين » من المسلمين فيرددها ، مسحوراً عقله بقصة حب وغرام تستهويه ، فلا يلتفت إلى ما فيها من سم ، وطعن خبيث على طهارة الرسول . والطيبون « المغفلون » هم الذين يسارعون في التصديق بكلام ربما يكون ضدهم ، وفيه حتفهم وهم موجودون بيننا وفي كل زمن ، فإياك أن تكون واحدا منهم . .

■ ٩ ـ السيدة صفية بنت حيي : أما زواج الرسول بالسيدة صفية بنت حيي بن أخطب فهو زواج سياسي وانساني ، فهي بنت سيد بني النضير زعيم اليهود في المدينة ، وكانت ممن أخرجهم الرسول منها ، وأقامت في خيبر مع يهودها ، فلما فتح الرسول خيبر ، وقعت صفية أسيرة في يد المسلمين في السنة السابعة من الهجرة . . وجاءت من نصيب أحد المسلمين « دحية الكلبي » .

ولإحساس الرسول ﷺ بقيم الناس ، ورحمته بعزيز قوم ذل ، صرف دحية عنها فأمن أن يسيء معاملتها . وقال له : اختر غيرها . . وكرمها وجبر خاطرها فخيرها : بين أن ترجع إلى قومها ، وبين أن تقيم ، ويعتقها ويتزوجها . . وهو يرمي بذلك إلى أن يقيم الجسور ثانية بينه وبين اليهود ، ويطفىء ولو شيئاً مما في نفوسهم عليه وعلى الإسلام ، بعد أن قضى عليهم في المدينة وعلى شوكتهم في آخر جيوبهم

« خيبر » .

ولو اختارت الرجول إلى قومها ـ وهو الذي يختاره كل أسير ـ لأرجعها الرسول ، ولكنها آثرت أن تقيم معه وتنال شرف الزواج منه ، على الرجوع إلى قومها . . برغم ما تعلمه ، ويعلمه كل من يحيط بالرسول ، من الشظف الذي يعيش فيه هو وزوجاته .

ولذلك شك بعض المسلمين في نواياها ، وباتوا يحرسون خيمة الرسول ليلة الدخول بها ، أثناء عودته من خيبر .

وعاشت صفية زوجة للرسول ،وفية أمينة ، ومن أمهات المؤمنين ، مكرمة كل التكريم منه ﷺ ، تحظى بعطفه ورعايته ، ودفاعه عنها ، حينما تتعرض لها زميلة من زميلاتها بكلمة تؤذيها ، ولها وضعها الحساس .

دخل عليها مرة ، فوجدها تبكي ، فسألها ، فقالت : بلغني أن عائشة وحفصة تنالان مني ، وتقولان : نحن خير من صفية ، لأننا بنات عم الرسول وأزواجه . . فقال لها : ألا قلت لهن : كيف تكن خيراً مني ، وأبي هارون ، وعمي موسى ، وزوجي محمد ؟ ! »

لقنها رسول الله ﷺ فخراً لها تعتز به ، أمام من يعتز عليها بنسبه . . حتى لا تشعر بشيء من المرارة وهي في كنف رسول الله . . وهي بحكم نشأتها وتاريخ أهلها ، غريبة على مجتمعها الجديد ، في بيت رسول الله ، لا بد أن يلقى عليها الماضي شيئاً من ظله . . فكان رسول الله ، بما عرف عنه من ود وكرم خلق ، ولا سيما مع أهله وزوجاته ، حفيا بها دائماً ، لتعويضها عما قد تحسه ، ولهذا ظلت وفية له ﷺ ، في حياته ، وبعد مماته ، حتى توفيت ودفنت بالبقيع .

فإذا كان لأحد أن يطيل لسانه ، ويتناول هذه الزيجة ومثيلاتها بالنقد ، فعليه أن يتذكر ـ قبل أن ينقد ـ أن الكثيرين من الملوك والرؤساء تزوجوا من الأسر التي هزموها ، وقضوا على ملكها ، رغبة في التخفيف مما أصابها ، وجبرا لخاطرها ، وكسراً لحدة عدائها ، وتأليفا لقلوبها . . فهل هناك من ضير إذا استعمل الرسول هذه السياسة لمصلحة الإسلام ؟

■ ١٠ ـ السيدة ميمونة : ويأتي زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارثة الهلالية ، بظروفه التي أحاطت به ، وكأنه كان مفروضاً عليه ﷺ بظروفه التي أحاطت به ، كانت قد تزوجت مرتين ، ولها صلات وثيقة ببيوت العرب ، ومنها بيت الرسول وآله . . حيث كان لها أخوات ربطت بين هذه البيوت كلها ، فأخت لها كانت زوجة العباس عم النبيﷺ ، وهي : أم الفضل ، وأخت لها ثانية كانت أم خالد بن الوليد ، واخت لها زوجة لجعفر بن أبي طالب ، وأخت كانت زوجة لحمزة بن عبد المطلب ، غير أخوات أخريات في بيوت كبيرة . .

ولما تأيمت ، وكانت قد كبرت سنها ، وذهب رواؤها وجمالها ، أبدت رغبتها وأملها في الزواج من رسول الله ، وفوضت الأمر لزوج أختها : العباس . . ولما لقى العباس رسول الله في عمرة القضاء عرض عليه هو وجعفر ، وكل منهما زوج لأختها أن يقبل الزواج من ميمونة ، التي وهبت نفسها له ، طلباً لتشريفها وتكريمها . . وكان موقفاً في غاية الحساسية ، فهي قد وهبت نفسها ، لا تريد الا التشريف والتكريم ، واللذان عرضا على الرسول أمرها لهما صلة وثيقة به وبها . . ولها أخوات منبثات في بيوت عربية كريمة ، ستصير لها صلة برسول الله ، وغالباً ما تثمر هذه الصلة ، دخولاً في الإسلام ، أو على

الأقل مهادنة له ولرسول الله . . وذلك كله بجانب مودته لعمه وابن عمه واستجابته لطلبها . .

ولهذا كله قبل الزواج من ميمونة بالرغم من كبر سنها ، وسبق زواجها مرتين ، وكان اسمها « برة » فسماها ميمونة وفي شأنها نزل قوله تعالى ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾(٩) .

مارية القبطية : وقد انضمت إلى بيت الرسول سرية قبطية جميلة ، من بنات مصر ، أهداها المقوقس حاكم مصر ، هي وأختها سيرين ، إلى الرسول ﷺ ، رداً على رسالته إليه ، مع حاطب بن أبي بلتعة ، يدعوه فيها للاسلام، فتلقاه لقاء حسناً ، ورد على الرسول رداً حسناً ، شفعه بهذه الهدايا . . وما كان للرسول ﷺ إلا أن يقبل هذه الهدايا ، ووهب سيرين لحسان بن ثابت ، واحتفظ بمارية .

وما كان من المستساغ أن يستصغر الرسول هذا الرد وهذه الهدايا ، ولو أنه وهب الاثنتين ، لكان في ذلك شيء ، وإذا احتفظ ولو بأحداهما كان ذلك تعبيراً عن تقديره للهدية . . وهو الانسان الحساس كريم الخلق ، ومعلم الناس كيف يكون الذوق . ولهذا احتفظ بمارية القبطية ، كسرية له ، وأسكنها في مكان خاص بها ، بعيدا عن مساكن زوجاته ، حيث كان يذهب اليها ، بين آونة وأخرى في مكان يقال له الآن « مشربة أم ابراهيم » .

وكم كان سرور الرسول ـ وهو في هذه السن ـ حين عرف أنها حملت منه ، فكل زوجاته حتى الشابة عائشة ، لم تنجب له ولدا تقربه

---

(٩) الأحزاب / ٥٠ .

عينه ، فكانت ولادة ابراهيم فرحة كبرى شعت في نفس الرسول وحياته ، ورفعت منزلة أمة « مارية المصرية القبطية » ، الى منزلة الزوجية لرسول الله . واحتلت مكانا خاصا في قلب الرسول والد ابراهيم ، وان كان ابراهيم لم تطل به الحياة ، فاختفى سريعاً من حياة الرسول ، كشهاب أضاء ثم اختفى ، وكان ذلك أثره البالغ في نفس الرسول . .

هذه هي ظروف زواج الرسولﷺ بهذه الزوجات الكريمات ، وهي ظروف بعيدة كل البعد عن أنيكون الباعثعليها شهوة ، بل كانت الشهوة أبعد ما تكون عنها . وإنما كانت الظروف الإنسانية والسياسية هي التي أحاطت بهذه الزيجات ، وفرضتها فرضاً ، وهو عليه الصلاة والسلام قد تخطى الخمسين ، ويحمل مع كبر سنه هموم الدعوة وحمايتها . . على أن هذه الزيجات قد تمت كلها في ظل العادة الجارية عند العرب وقتئذ ، بعدم وضع حد أقصى لمن يتزوج بهن الرجل ، كانت مع ذلك تبعاً لظروفها التي عرفناها والتي يمكن أن نسميها ظروفاً قاهرة ، بعد أن ظل الرسول محتفظاً ومحافظاً على زوجة واحدة هي السيدة خديجة حتى بلغ سن الخمسين ، وتعدى عمر الفتوة والشهوة . . ولما يكن قد نزلت آية التحديد بأربع من سورة النساء ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾(١٠) الآية فقد تمت هذه الزيجات في نحو السنة السابعة تقريباً ، ونزلت آية التحديد في نحو السنة الثامنة . .

لكن لماذا ؟

---

(١٠) في سورة النساء

وللمتقولين أن يقولوا : لماذا لم يمسك الرسول أربعاً من زوجاته ، ويفارق باقيهن كما أمر صحابته ؟ لماذا أبقى تسع زوجات معه بعد نزول الآية بينما أمر صحابته ممن كان متزوجاً بأكثر من أربع أن يمسك أربعاً ويفارق الباقيات ؟ هنا يكون التساؤل وارداً ، وهنا يمكن أن نتفاهم أو نتفهم ، ولكن بدون حقد أو تحامل ورأي مسبق نصر عليه . . لقد تزوج الرسول بهذه الزوجات ، وكان لكل زوجة ظروفها الخاصة التي عرفناها والتي يمكن أن نصفها بأنها ظروف قاهرة ، فرضت على الرسول الزواج ، فلم يكن الزواج مما يمكن أن نسميه : اختيارياً بحتاً ، وكانت الظروف كلها تتصل بمركز الرسول ، كرسول وكولي للأمة مسئول عن كل كفالة من يحتاج لكفالة ، ومسئول عن تكريم الشهداء والمجاهدين ، ومسئول عن صلته السياسية ـ كرئيس دولة ـ بالمراكز السياسية حوله . .

ومسئول عن صلته السياسية ـ كرئيس دولة ـ بالمراكز السياسية حوله . .

فكم يكن ـ إذن ـ رجلاً عادياً ليس له الا الظروف العادية ، يتحرك في فلكها الضيق بناء على ظروفه الخاصة الضيقة . ولكنه كان إنساناً له هذه الظروف العامة أو الخاصة بمركزه . . وهو في هذا ليس بدعا بين العظماء الذين يعيشون في ظل ظروف خاصة بهم تحكم تصرفاتهم ، ولهذا كان مما لا بد منه ، أن يتصرف في ظل هذه الظروف ، وتحت ضغطها ولأجلها تزوج ، ولأجلها أبقى ، وإلا فمن يستبقى منهن ، ومن يترك ؟

هل يترك واحدة من اللاتي آواهن وأكرمهن ، وأكرم بإكرامهن الشهداء أو المجاهدين ؟

هل يترك واحدة من بنات وزيريه ؟

هل يترك واحدة من اللاتي تزوج بهن لتوطيد علاقة ، أو جبر خاطر ، أو جذب قبائل للاسلام ، أو كسر حدة عداوة له ؟

وقد نزل من القرآن « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، أن ذلكم كان عند الله عظيماً»(١١) فكان اللاتي يطلقهن يجنى بذلك عليهن ، فلا هو أبقاهن ، ولا هن يستطعن أن يتزوجن بعده ويعشن في ظل رجل وكفالته ، يحميهن ويسترهن . . وينقلب الشرف الذي حازته كل منهن بزواجها من الرسول ، إلى بلاء على من يطلقهن ، ويستغني عنهن ، وهل كان مثل هذا أو بعضه ، مما يليق برسول الله ، أو حتى من عظيم في قومه ؟ وإن لم يكن رسولاً ؟ . .

إن الظروف القاهرة ، أو شبه القاهرة ، التي أملت عليه ﷺ ، بصفته رسولاً ورئيس دولة أن يتزوج بمن تزوج بهن كلهن ، وهو يعيش عيشة أدنى من عيشة الكفاف . هي التي أملت كذلك عليه ، أن يظل محتفظاً بهن . وكان ذلك من خصوصياته ، إعمالاً لهذه الظروف وتقديراً من الله سبحانه للمسئوليات التي يتحملها .

ولم يكن الاحتفاظ بالوضع القائم في بيت الرسول ، ومع زوجاته ، كلهن ، لمصلحته الخاصة ، أو طمعاً منه في اراحة أو لذة يريد استبقاءها .

فلقد كن ـ مع مقامهن ومقام بيت الرسول ـ تتغلب عليهن أحياناً طبيعة النساء الضرائر-بعضهن مع بعض ـ مما كان يجلب التعب لرسول الله ، وكن-كطبيعة الانسان ولا سيا النساء ـ يتطلعن الى مستوى من

---

(١١) الأحزاب / ٥٣ .

المعيشة ، أفضل مما كن يعشن فيه ، وكن لذلك ينغصن أحيانا على الرسول حياته بطلباتهن ، حتى اضطر الى هجرهن مدة ، ظن الصحابة حينئذ أنه طلقهن ، ونزلت الآيات الكريمة تعالج هذه الأزمة التي نزلت ببيت رسول الله ، وتخيرهن بين أن يرضين مع الرسول بالمعيشة كما هي ، أو يطلقهن الرسول ليتمتعن بما يتطلعن اليه ، من مستوى من المعيشة أعلى « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن اجرا عظيما »(١٢)وهي آية صريحة ناطقة بسبب الأزمة التي حدثت .

وكان بعضهن يثرن قلاقل في البيت العظيم ، متأثرات بما في طبيعة الضرائر من الغيرة ، ويتحزب هذا البعض على الرسول وبعض الزوجات ، ويثرن مؤامرات وقضايا تتعبه وتحرجه ، حتى لتبلغ الجرأة ببعضهن أن يتهمنه بعدم تحري العدالة بينهن ، متأثرات بحدة الغيرة عندهن ، فما كان الرسول إلا عادلا في كل ما يملكه ويستطيعه ، ولكنها الغيرة التي تتعدى الحدود . وتشغل الرسول عن مهماته الكبرى في تبليغ الرسالة ، وسياسة شئون الدولة ، وما كان مثل هذا الذي تفعله زوجات الرسول أحياناً من مؤامرات ضد بعضهن البعض ، ومن قضايا تحرجه وتشغله ، مما يجوز له أن يستمر ، ولا مما يليق ببيت النبوة .

ولذلك أنزل الله قرآناً يعالج به هذا الموقف في حزم ، ويقضي عليه في حسم ويوجه الخطاب الى اثنتين منهم أثار عاصفة في بيت الرسول وان كان الخطاب في الحقيقة ، أو الانذار ، موجهاً للجميع ، ممن

---

(١٢) الأحزاب / ٢٨ - ٢٩ .

تسول لها نفسها أن تتخذ مثل هذا الموقف ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما (أي مالت عن طريق الحق واللياقة مع الرسول وفعلتم ما يستوجب عليكم التوبة)وإن تظاهرا عليه (أي تتجمعا وتتآمرا عليه) فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ أى معين . سورة التحريم الآية ٤ .

وحين تحس أية زوجة ، أنها تقف في جبهة ، ضد الله ورسوله ، وجبريل ، وصالح المؤمنين ، والملائكة جميعاً ، فإنها ستعمل حساباً وألف حساب للجبهة التي تقف ضدها ، وتكف قطعاً عن مشاغبتها . وبذلك كان الحسم .

ثم يأتي القرآن بعد ذلك مباشرة بتهديد آخر لهن ، ويوجه لهن الإنذار كقنبلة مسكتة ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾ ومع هذا الإنذار ، المواصفات التي يجب على نساء الرسول أن يتصفن بها ، بحيث لا تخالف واحدة منهن ، واحدة من هذه الصفات ، وإلا كانت غير لائقة ببيت النبوة . . . وإلى هذا الحد كان الرسول ﷺ يجد المتاعب من زوجاته ، اللائي كن يسترسلن أحياناً وراء طبيعة النساء ، وهن بشر .

فلا نظن أن الرسول ﷺ ، سلم في حياته من متاعب الضرات ، خفيفة أو ثقيلة ، وإن كان لم يطف على السطح من هذه المتاعب ، ولم يأخذ من العناية به ، إلا ما تعرضت له الآيات الكريمة التي نقرؤها ، حين بلغت هذه المتاعب ذروتها أوكادت ، وفي كتب السيرة والأحاديث تفاصيل عن هذه المتاعب لمن يريد الاستزادة . .

فلم يكن ﷺ - إذن - بالزوج المستريح تماما في بيته لهذه الضرائر ، حتى يؤثر بقاءهن على فراقهن ، طلباً للشهوة ، او استدامتها ، وما كان في سعة من العيش تمكنه من توفير المعيشة الطيبة لهن ، كما تشتهي النساء وتتطلع دائماً ، ولكنه كان واجب الرسالة والرسول : الأب ، والراعي ، ورئيس الدولة ، والمسئول عنها ، وعن الرعية ، وعن تكريم البطولة والتضحية ، والعلاقات الدولية ، إن أطلقنا عليها هذا الاسم التي تدخلت كلها في فرض هذه الزيجات على رسول الله . . كان يتحمل ذلك كله ، ليسوس الأمور ، مهما يكن فيها من متاعب ، ويتحمل ما لا يتحمله الرجل العادي من أجل مسئوليته . أفيجوز لإنسان - مع هذا كله - أن يتخطى كل هذه الاعتبارات ، ويجرفه الحقد للتعامي عنها ؟

ولو كان الرسول قد فعل ما يفترضه هؤلاء من تطليق ما زاد عن أربعة ، لما سلم أبداً من سم حقدهم ، ولقالوا : كيف يتركهن الرسول ، وهذه حالهن ؟ ولمن يتركهن ؟ وأين سيذهبن بعد أن آواهن ؟ وكيف لا يضع اعتباراً للعلاقات والاعتبارات التي كانت دافعاً للزواج بهن ؟ ، إلى غير ذلك مما يسيل به الحقد من سموم ؟

والحاقدون لا ينتظر منهم أبداً الاقتناع بأي حق ، ولا يسكتهم أي دليل ، هم كما قال الله عنهم ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ البقرة / ٦ - ومنطقهم هو ما أخبر الله به ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ الشعراء / ١٣٦ يعني لا فائدة من كلامك عندنا مهما يكن فيه من الحق .

والقارىء ليس فى حاجة لأن أعرفه بموقف الحاقد ، ومنطقه

الخاص به ، فقد لقى كثيراً من الحاقدين ، وشرب المر في حياته منهم ، ومن مواقفهم . . وعرف ما يحكم تصرفاتهم . .

ولست أطمع ـ ولا أنت تطمع ـ في إقناع حاقد مغرض بغير ما يريده ، ولهذا لا أوجه حديثي اليهم ، وإنما أوجهه لأخواني وأبنائي المسلمين ، ولكل عاقل ومنصف من غير المسلمين . . وأمامي قوله تعالى : ﴿ **إنما يتذكر أولو الألباب**﴾[١٣] وقوله تعالى : ﴿ **فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور** ﴾[١٤] ويسرني أن أضع أمامك في النهاية ما قاله الكاتب المسيحي الكبير في كتابه[١٥] « الأبطال[١٦] عن « محمد » « البطل العظيم » :

« وقد قيل وكتب كثيراً في شهوانية الدين الاسلامي ، وأرى كل ما قيل وكتب جورا وظلماً ، ثم يقول : « وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا ، ولشد ما نجور ونخطىء اذا حسبناه رجلا شهوياً لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ . كلا . فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت . لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ، ومأكله وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار ، وكان يصلح نعله ، ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام مجتهد في الله وفي نشر دين الله غير طامع في رتبة أو دولة أو سلطان » . .

---

(١٣) الرعد ـ ١٩ .

(١٤) الحج ـ ٤٦ .

(١٥) توماس كارليل ، ولد في اسكوتلاندا سنة ١٧٧٥ وعاش ٨٦ عاماً .

(١٦) ترجمة المرحوم محمد السباعي ص ٨٨ ـ ٨٩ طبعة ثالثة سنة ١٩٣٠ . وكان لكتابه عن « محمد » البطل أثر كبير في تصحيح أخطاء كثيرة دأب عليها كتاب الغرب .

[لماذا لا تتزوج المسلمة إلا مسلماً ؟]
[ويتزوج المسلم كتابية ؟]

تساؤل يطرحه أحياناً غير المسلمين ، يريدون به إحراج المسلم ، وكأنهم يقصدون إلى أن الاسلام دينٌ عنصري ، فهم يقولون لماذا نرى الاسلام يبيح للمسلم أن يتزوج بكتابية : مسيحية أو يهودية ، ولا يبيح لغير المسلم أن يتزوج بمسلمة ، وكان الأمر يقتضي التسوية بين الحالتين كما سوى بين الأطعمة ؟

وهم يشيرون بذلك إلى ما جاء في القرآن الكريم ﴿ **وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن (مهورهن) محصنين غير مسافحين ،ولا متخذي أخدان** ﴾[1] . .

والمراد من كلمة « المحصنات » هنا العفيفات ومن « محصنين » أي متزوجين ووضح المراد أكثر بقوله ﴿ **ولا متخذي أخدان** ﴾ أي عشيقات وخليلات . أي يكون النكاح عن طريق الزواج . .

ونقول لهؤلاء : إن الزواج قائم أصلاً على التآلف والتواد والالتقاء الفكري والنفسي ما أمكن « وجعل بينكم مودة ورحمة » ولذلك يستبعد الله منه كل ما يؤدي إلى الشقاق والانفصام من أول خطوة فيه . .

ومن أجل هذا حرم الله على المسلمين أن يتزوجوا بمشركات ، كما حرم على المسلمات أن يتزوجن بمشركين وذلك في قوله تعالى ﴿ ولا

---

(١) المائدة / ٥ .

تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمةٌ مؤمنة خير من مشركة (أي حرة مشركة) ولو أعجبتكم ،ولا تنكحوا (بضم التاء أي لا تزوجوا بناتكم) المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك (أي حر مشرك) ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ،ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾[٢] . . . وذلك لأنه لا توجد أية أرض مشتركة بينهما يقيمان عليها بناء الزوجية ، فالمشركة لا تعترف بالاسلام ، ولا بأي دين أو مبدأ مشترك بينها وبين المسلم ، فليس بينهما خيط يشتركون فيه ، ولذلك لا يتزوج المسلم مشركة أبداً ، والمسلمة لا تتزوج مشركاً ، لأنه لا يعترف بدينها ، ولا يقيل أن تقوم بواجباته ، ولا أن تعظم رسولها أو مبادئه في بيته . .

ومثل المشرك أو المشركة في هذا ، الملحد الذي لا يعترف بدين ، والملحدة كذلك ، فلا تزاوج بينهما وبين المسلمة أو المسلم ، وإذا حصل زواج ثم ظهر منها أو منه إلحاد ، ينفسخ النكاح ، وتتوقف العشرة الزوجية الحلال فوراً . .

ولكن المسلم بالنسبة للمرأة الكتابية يتلاقيان في الاعتراف بموسى أو عيسى والرسل السابقين ، عليهم جميعاً الصلاة والتسليم . يعني أن هناك منطقة وفاق يتلاقيان عليها .

فاليهودية تتلاقى مع المسلم في الاعتراف بموسى ومن سبقوه ، والمسيحية تتلاقى معه في الايمان بعيسى ومن سبقوه ، فإذا وجدها تعظم موسى أو عيسى ، فهو يعظمهما كذلك ، وليست عليه أية غضاضة في تعظيمها لمن تؤمن به لأنه يؤمن به كذلك . وهو لايكرهها على أن تؤمن بمحمد ، فلا إكراه فى الدين ، فبينهما خيط متصل يمكن أن يتلاقيا

---

(٢) البقرة / ٢٢١ .

عليه . .

والرجل وإن كان له السيطرة والقوامة ، والنفوذ الأول في بيته ، لكن لم يطلب منه الاسلام أن يستعمل هذا في إكراهها على الإسلام ، بل يتركها بما تعتقد ، تسامحاً منه ، عوده الاسلام عليه بل أمره به . .

ولهذا أباح له الإسلام أن يتزوج بيهودية ، أو مسيحية . على أن الأمور المباحة من حيث المبدأ ـ كما هو معروف ـ متروك أمر فعلها ، أو عدم فعلها ، لما يراه الإنسان من مصلحة ، في الفعل ، أو الترك . .

فإذا غلبت المصلحة أقبل على فعله ، وإذا غلب الضرر أو توقعه امتنع عن فعله . .

ومعنى هذا أننا حين يظهر لنا أن التزوج بمسيحية ، قد ينتج عنه أضرار لنا ، أو لأولادنا ، أو لديننا وأمتنا ، فإن التزوج بها يصبح حراماً وممنوعاً . .

وعلى سبيل المثال : المسلم الذي يتزوج كتابية ، ويكون قد هاجر من بلده إلى الغرب ، وهو وحيد هناك ، بعيد عن أسرته المسلمة ، وزوجته المسيحية بين أهلها ، وبي بيئتها المسيحية ، فإن الغالب ، وأقول الغالب احتياطاً . . ولا أريد أن أعمم الحكم ، الغالب أن ذريته مصيرها إلى الانسلاخ عن الاسلام والدخول في المسيحية ، فالأم هناك تصحب أولادها للكنيسة ، كل يوم أحد ، وفي الأعياد ، وهو ـ غالباً ـ لا يستطيع منعها ، ولا منع الأولاد منها . . وبهذا يقترب الأولاد من المسيحية وطقوسها ، والأولاد ملتصقون بالأم غالباً ، فتكون النتيجة : أن ذريته تبدأ في الانسلاخ عن الاسلام ، إن حافظ هو على الجيل الأول منها ، وهو موجود ، فإنه لن يكون موجوداً مع

الأحفاد ، ولا مع أولادهم ، حتى يشدهم للإسلام ، فتنقطع الصلة بينهم ، وبين الاسلام نهائياً !!

ويكون السبب في ذلك ، والذي يتحمل وزره أمام الله ، هو الذي تزوج بمسيحية ، وعاش في هذه البيئة ، وأمام هذه التيارات .

والآباء مأمورون بأن يحافظوا على دين أولادهم وتدينهم ، بأمر من الله سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾[٣] وقال كل العلماء والمفسرين تفسيراً لهذا وبياناً له : إن الآباء مسئولون عن تربية أولادهم ومن هم تحت رعايتهم ، على أن يشبوا على الاسلام ، ويعملوا بتعليمه . فإذا هم قصروا في ذلك ، وانحرف أولادهم ، أو من تحت رعايتهم عن الاسلام ، وعن التدين ، بسبب هذا التقصير ، فإنهم يكونون قد عرضوا أنفسهم وعرضوهم لعذاب الله . هذا هو معنى هذا الأمر ، وهذه المسئولية .

ولنتصور في هذا الإطار مسئولية الأب الذي يتزوج مسيحية أو يهودية أو ملحدة وهو مقيم في بيئة غير إسلامية كأوربا أو أمريكا ، أو روسيا ، أو ما شابه هذه البيئات .. إنه مهما تكن غيرته وتدينه ، يصنع الخطوة الأولى في تحويل ذريته من الاسلام ، كما يتخذ الخطوة الأولى في الطريق إلى نار وقودها الناس والحجارة كما يقول الله سبحانه .

بعد أن كتبت هذا بمدة ، اطلعت على حديث لمحرر الأهرام (في ٥ ربيع الأول سنة ١٤٠١-١١-١ -١٩٨١) مع الأستاذ ابراهيم خليل

---

(٣) التحريم / ٦ .

عطا الله أمين عام الاتحاد الاسترالي للمجالس الاسلامية ، وهو مهندس زراعي مصري ، هاجر الى استراليا مع أسرته عام١٩٦٨ ويعمل مدرساً ثانوياً للعلوم هناك . . يقول : لقد كان الدافع الحقيقي لتشكيل الجمعيات الاسلامية ، تجربة أليمة لآلاف من رجال القبائل الأفغانية ، الذي رافقوا المستكشفين الأوائل من البريطانيين لقارة استراليا ، وكان عمل هؤلاء الأفغان ارتياد الأماكن الصحراوية والوعرة بقارة استراليا ، بواسطة آلاف الجمال الذي أتوا بها من بلادهم ، وقد أنشأ هؤلاء الأفغان المساجد ، ولكنهم لم يصطحبوا معهم زوجاتهم ، فتزوجوا من غير المسلمات ، وانقرض هذا الجيل الأول منهم ، وكان أن نشأ أبناؤهم وأحفادهم على غير دين الإسلام !! حتى أنك ترى الشباب منهم يدعى : جورج علي ، أو الفتاة تدعى : جانيت محمد . !!! وبالطبع كانت هذه الظاهرة صدمة قوية للمهاجرين المسلمين من اللبنانيين والأندنوسيين والهنود والباكستانيين والمصريين . فعمل المسلمون المنتشرون في الولايات الست لاستراليا على إنشاء جمعية إسلامية في كل مدينة ، ويجمعها على مستوى الولاية ، مجلس إسلامي ، ومن مجموع هذه المجالس ، تشكل الاتحاد العام الاسلامي الذي يضم ربع مليون مسلم » .

فهذه صورة واقعية مما قلته من قبل ، تبين إلى أي مدى يجني الآباء على دينهم وعلى ذريتهم أحياناً ، بالزواج من مسيحية ، في وسط كله مسيحي ، مما يشكل خطورة كبرى على دينهم ، وعليهم حين يلقون الله ، ويحاسبهم على ما قدمت أيديهم . !!

فليس كل مباح ـ إذن ـ يمكن فعله والإقدام عليه . . وإنما ذلك محكوم بميزان النفع والضرر به ، ولمن يتحمل مسئوليتهم . . ولذلك

رأينا سيدنا عمر بن الخطاب وهو خليفة ، يمنع تزوج المسلمين بالكتابيات ـ مع اباحة ذلك بنص القرآن ـ وذلك (لمصلحة رآها في ذلك الوقت وهي أن العرب أخذوا يقبلون على التزوج بهن لملاحتهم ، ويتركون العربيات المسلمات ، فيكثرن العوانس فيهن ، وفي ذلك من الضرر عليهن وعلى أسرهن ما فيه . . ومثل هذا أو قريباً منه في منع المباح ما نعلمه من بعض القوانين التي تحرم على بعض الموظفين في الدولة أن يتزوجوا بغير مواطنات ما داموا في عملهم . وذلك لأن عملهم يقتضي مثل هذا الحظر . . ومثل ذلك في المنع ايضاً ما إذا كان الزوج ينظر إلى زوجته المسيحية نظرة متميزةعنه لتفوقها عليه في الناحية الاجتماعية ، فإن ذلك يؤدي إلى ضعفه أمامها ، وسيطرتها عليه وعلى الأولاد ، فيؤدي هذا إلى أن تنشئهم على دينها ، وهو ضعيف المقاومة كما يحصل من التزوج بالغربيات غالباً . .

وتأتي بعد ذلك إلى منع الإسلام تزوج المسلمة بكتابي : يهودي أو مسيحي . . والاسلام يلاحظ الطبيعة التي منحها الله الرجل وسلطته في بيته ، وقوامته على المرأة ، وهي قوامة ناشئة من الطبيعة بالنسبة لكل من الرجل والمرأة ، أو الذكر والأنثى عموماً . . فنقول مع مراعاة ما تقدم ، وما هو معروف من طبيعة الزواج ، وما يقوم عليه من تآلف وتواد ، ورحمة وانسجام : إن الزوج الكتابي لا يعترف بمحمد نبياً ورسولاً ، ولا يحترمه ،ولا يقبل بطبيعته أن يكون له ذكر أو شأن في بيته ، ولا يستريح بطبيعته كذلك أن تظهر زوجته إيمانها به ، وخضوعها له ، وعملها بتعاليمه ، لأنه لا يعترف به . . وبالتالي لا يقر أي ولاء له ، ولا أي احترام ، فهو ليس كالزوج المسلم ، الذي يلتقي مع زوجته المسيحية مثلا ، في الإيمان بعيسى ، واحترامه .

وهذا يؤدي حتماً إلى واحد من اثنين : إما أن تترك الزوجة المسلمة دينها ، وتتنازل عنه ، إرضاء لزوجها ، وإما أن تنفصل عنه وتختار دينها عليه .

والإسلام لا يقر أبداً أن يترك مسلم دينه أو مسلمة دينها ، ولا يشرع ما يؤدي لذلك . . أما إذا كان هذا الزواج سيؤدي حتماً للانفصال ، وهو الأمر الوحيد فلا مبرر أبداً لإبرام زواج محكوم عليه مقدما بالانفصال والفشل .

فكلتا النتيجتين سيئة ، وغير مقبولة ، ولذلك لا يمكن الإقدام على زواج هذه نتيجته مقدما . ولهذا قرر الاسلام هذا الحكم القاطع الفاصل : ألا تتزوج مسلمة من غير مسلم ، وكل زواج مثل هذا مفسوخ وباطل . . وهو حكم قائم على منطق سليم لدى العقلاء جميعاً ، ولنرح أنفسنا من مجادلة المغرضين المتعصبين . .

■ مشكلة جديرة بالنظر

ويترتب على هذا مشكلة ، يوقع المسلمون أنفسهم وبناتهم فيها ، ثم يصرخون ، ويطلبون منا أن نحل مشكلتهم . . أولئك الذين يقيمون في الغرب ، أو في الشرق في بيئات غير إسلامية ، ولهم بنات يكبرن ويصبحن في سن الزواج ، ولا يوجد مسلمون يتزوجون بهن . . ماذ يعمل الآباء ؟ . .

هل يتركون بناتهم بغير زواج ، ما دام لم يتقدم لهم مسلم يرتضونه وترتضيه هي أيضاً ؟

أو يلجأ للحل الثاني ، فيزوجها لغير مسلم ، وهذا باطل وحرام ، والعيشة في ظله عيشة حرام ؟

كلا الأمرين مر وعلقم .. فماذا يعمل الأب

ونقول للأب : إنك أنت الذي صنعت هذا المصير لك ولبناتك ، حين جريت وراء كثرة في المال ، وراحة في المعيشة أكثر مما تجدها في بلدك ، ولم يمتد بصرك للمستقبل ، ولم تقدر ناحية دينك ، ومصير بناتك ، ودينهن ، ولم تحسن المفاضلة بين المال الكثير والمعيشة الأحسن ، وبين دينك ، ودين بناتك ، ومصيرهن ، ومصير ذريتهن وذريتك . إنك انت الذي أوقعت نفسك في هذا الإشكال ، وبالجري وراء دنياك وتركك لأمر دينك وأنت تعلم هذا . فتحمل أنت وزر مايترتب على اختيارك ، لو آثرت البقاء حيث أنت مع هذا المصير ، ولم تعد لبيئتك الاسلامية ، لتعيش فيها ، ويجد بناتك ، وتجد لهن الأزواج المسلمين وتفوزوا جميعاً بدينكم ، وبحسن موقفكم من ربكم بعد أن تنتهي هذه الحياة القصيرة ..

إن الأب المسلم حقاً هو الذي يفكر بعيداً ، ويصر على أن يحفظ عليه وعلى أولاده دينهم ، ولو كان في ذلك تضحية بمادة أكثر ، ومستوى من المعيشة أحسن ، فإن المسلم يضحي بروحه في سبيل دينه ، فليس بكثير على الآباء أن يضحوا بشيء من دنياهم في سبيل دينهم .

لقد أعجبت أيما اعجاب بعامل كبير في مطعم فندق كبير بالقاهرة . أقبل عليّ وحياني حتى حسبت أنه يعرفني من قبل ، وظل ونحن نتناول الغداء حريصاً على تحيتي ، وسؤاله عما أريده ، وعما إذا كان الطعام يعجبني أولا .. الخ ..

ولما فرغنا من الطعام جاء إلي يحدثني عن حالة خاصة به ، كان

يتحدث بها وهو مقتنع ومسرور بما فعل قال لي : كنت اشتغل في فندق كبير بلندن لعدة سنين ، ولما كبرت بناتي أخذت أفكر في مستقبلهن في الوسط الانجليزي وزواجهن ، وخفت على ديني وبناتي ، فقررت أن أرجع بهن للقاهرة . . والحمد لله ، فقد هيأ لي العمل هنا بسهولة وبأجر طيب ، ثم أخذ يقبل يده ظهرا لبطن ، وهو يقول : الحمد لله ، ويتجه ببصره إلى السماء . . .

وشدني هذا الرجل إليه ، وازداد إعجابي به . وقلت له : ما دمت قد اتجهت إلى الله ، وتركت لندن ، وما للعمل والحياة فيها من مغريات ، من أجل الحفاظ على دينك ودين بناتك الثلاث ، فإن مكافأة الله لك كانت سريعة في الدنيا ، ولأجر الآخرة أكبر . . وشددت على يديه ،وأنا في ذروة الاعجاب به ، والشكر لله على ما وهبه من عون سريع . .

وحتى لو تأخر عون الله عن هذه الصورة ، لأمر يريده، فإنه سبحانه لا يتخلى عن إنسان أخلص له ، وهاجر إليه بدينه ، فراراً من الانحراف والضياع . .

وكم في الغرب منا ، مثل هذا الرجل في ظروفه العائلية ، ولكن من النادر أن يوجد مثله في اتخاذ القرار المناسب وفي الوقت المناسب . .

أنا لا أقطع الطريق على رجل مسلم ناجح في الحياة هناك ، ولكني أريده أن يضع في حسابه دينه أولا ، ودين أولاده، ثم يأتي بعد ذلك المال الوفير . . ولا أريده أن ينجح في صفقات المال في التعامل مع الناس ، ويخسر الصفقة الرابحة الوحيدة في تجارته مع الله . . لا أريده أن يجمع المال ثم يتركه ، ليقف أمام ربه خزيان ، نتيجة ما فعله

بأسرته .

ولقد خير الله المؤمن بين الدنيا وكل ما فيها ، مما يحبه الانسان ويقدم عليه ، وبين دينه ، وهدده بالحرب والويل ، وكل ما يتصوره الانسان من شر ، إن هو اختار دنياه على دينه ، فقال سبحانه :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ والتهديد بقوله تعالى « فتربصوا » أي انتظروا ، يحمل كل ما يمكن التهديد به سواء في الدنيا أم في الآخرة . .

والآية نص صريح في مثل حالة هؤلاء فليضعها إخواننا هناك أمامهم ، ولا يندفعوا ويسترسلوا في جمع المال على حساب دينهم . . ويستطيبوا الحياة القصيرة هناك ، دون أن يعملوا حساباً للحياة الطويلة الأخرى ﴿ وللآخرة خير وأبقى ﴾ . . وأسأل الله لهم العون والتوفيق في طريقهم إلى الله . .

[كلمة أخيرة]

وكلمة أخيرة لا بد منها لبعض شبابنا الذين يتزوجون من الغرب أو من الكتابيات عموما . .

لقد راعى الإسلام في تحليله التزوج بالكتابيات قرب ما بين الطرفين ، وأن في إمكان الرجل أن يجذب زوجته إلى الإسلام ، حين

---

(٤) التوبة / ٢٤ .

تختلط به ، وتطلع على الاسلام وآدابه وأخلاقه ، وتلمس ذلك كله بشكل عملي ، في زوجها ، فتقبل على الإسلام . . هذا هو المفروض والمأخوذ بعين الاعتبار في التزوج بكتابية . .

ونجد في بعض شبابنا الذين يتزوجون في الغرب ، ويعودون لمصر ،أو يمكثون هناك ، صورة غير هذه الصورة المشرقة للرجل المسلم ، حيث يعاملها معاملة غير كريمة ، وغير متفقة مع أخلاقيات الاسلام ، أو يعامل الناس أمامها ، بصورة خارجة عن الآداب والسلوك الاسلامي الرفيع ، فيعطيها بذلك انطباعاً سيئاً عن الاسلام والمسلمين ، لأنها تنظر للإسلام من خلاله ، ومن خلال عائلته أيضاً ، إذا كانت تختلط بهم ، وبذلك يقع في مسئولية صد الناس عن الاسلام ، وليسوا مطلق ناس ، بل ألصق الناس به وهي زوجته وأم أولاده . . بينما يستطيع أن يحقق مكاسب دنيوية وأخروية له ، إذا التزم بآداب الاسلام ، وعمل على جذب امرأته اليه ، عن طريق أكثر الأساليب وأقواها إقناعا ، وهو الخلق الاسلامي العملي . . فليتنبه لذلك جيدا أبناؤنا الذين يقبلون على التزوج بغير المسلمات . .

وليحذروا أن يدخلوا في مشاركة زوجية يكون فيها هو الطرف الضعيف ، الذي ينظر الى زوجته على أنها أرقى منه ، فإن ذلك يؤدي به الى أن يكون تابعاً ضعيفاً أمام الطرف الآخر ، وفي ذلك من الخطر ما فيه عليه وعلى أولاده منها . . فليحذر أبناؤنا هذه الحالة ، ولا يرموا بأنفسهم ومستقبلهم ومستقبل أولادهم في مناطق الخطر ، لمجرد شهوة أو نظرة طارئة تزول مع الأيام « وتذهب السكرة ، وتجيء الفكرة » . .

ليس بسبب الإسلام تأخر المسلمون

لحاجة في نفس يعقوب ، يتعامى الغربيون ، والمغرضون منهم على الأخص ـ وهم الكثيرون ـ عن العصور الذهبية الأولى للاسلام والمسلمين ، حين سادوا الأرض وعمروها ، وأنشئوا حضارتهم الاسلامية الانسانية في كل جوانب الحياة ، وكانوا المثل الأعلى ، الذي يتطلع إليه عالمهم حينذاك يتعامى المغرضون فيتهمون الاسلام بأنه السبب في ضعف المسلمين الآن !! وتناسوا أن المسلمين لم يقفزوا إلى هذه المكانة في الماضي ، وهذا المستوى إلا بفضل الاسلام وعقيدته ، ونظامه ، ولم يكن هناك سبب غير هذا ، فقد كان العرب قبل الاسلام قابعين في جزيرتهم ، قانعين بمعيشتهم ، في وديان شبه الجزيرة وعلى سفوح جبالها ، وفي قراها الصغيرة القليلة المتناثرة ، والمتباعدة . . كل همهم أن يعيشوا في نطاقهم بما يتيسر لهم في بيئتهم الصحراوية ، متنازعين متقاتلين لأتفه الأسباب . . بينما كان العرب الساكنون في اطراف الجزيرة من الشرق أو الشمال ، واقعين تحت تأثير النفوذ الفارسي في الشرق ، والنفوذ الروماني في الشمال . .

وكانوا مع ذلك يتمتعون جميعا بما يتمتع به أمثالهم غالبا ، من الصفاء النفسي ، والصراحة ، والشهامة ، والمروءة ، والنجدة ، والكرم وإباء الضيم .

ولكنهم في حياتهم متفرقون ، لم تجمعهم سيادة ، ولا ملك ، وكان الحرص على البقاء في الأرض الجدباء التي يعيشون فوقها يدفعهم ، وهم في طبيعتهم واخلاقهم الصحراوية - إلى الحروب فيما بينهم ، لكلمة تبدر من أحدهم ، أومن أجل بئر ماء ، أومرعى قليلة تقابلهم او الاعتداء حتى على ناقة لأحدهم .

وكانوا كما يعبر شاعرهم عن نفسيتهم وهو يمدحهم بالنجدة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

هكذا يندفعون بعصبيتهم دون تعقل .

فجاء الاسلام ، وقدمه لهم رسوله محمد ﷺ القرآن المنزل عليه من ربه ، فجمعهم على أسمى وأطهر عقيدة ، ووحد بينهم ، فكرا وهدفا ، ونظاما ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ،فأصبحتم بنعمته إخوانا . .** ﴾[1] .

وبرزوا في الحرب ، وفي السلم ، قادة ، وسادة ،عادلين رحماء . . وأخذت الأرض الطيبة تعطي نباتها بإذن ربها ، وبدأت تتكون في المجتمع الاسلامي الواسع حضارة ، اخذت تنمو وتقوى وتتوسع ، حتى شملت كل نواحي الحياة ، علوما وآدبا ، وفلسفة وحكمة ، وأخلاقا ، وتقنينا . فكانت البلاد الاسلامية على عدة قرون ، هي التي تشرق بشمس الحضارة الانسانية العالية ، بينما كانت البلاد الأخرى البعيدة عن الاسلام تعيش فى ظلام الجهل ، والتأخر ،

---

(١) آل عمران / ١٠٢ .

وترفض أية مدنية أو حضارة ، وتطارد كل فكر جديد ، يخالف رأي الكنيسة ، ويخرج على التقاليد الموروثة . .

لا يختلف على هذه القفزة الحضارية التي صنعها الاسلام للعرب والمسلمين أحد من رجال الغرب المحايدين حتى ليقول اكبر مؤرخي العصر مستر . . ولز : « كل دين لا يسير مع المدنية في كل طوْر من أطوارها فاضرب به عرض الحائط ، ولا تبال به ، لأن الدين الذي لا يسير مع المدنية جنبا إلى جنب لهو شر مستطير على أصحابه ، يجرهم الى الهلاك . وإن الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هي الديانة الاسلامية . . وإذا أراد الانسان ان يعرف شيئا فليقرأ القرآن ، وإذا طلب مني القارىء ان أحدد له الاسلام ، فإني أحدده بالعبارة التالية : الاسلام هو المدنية » .

ويقول مسيو هنري دي شامبون مدير تحرير مجلة « ريفو بارلمنتر » الفرنسية :

« نحن مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا : في العلم والفن والصناعة ، مع أننا نزعم السيطرة على تلك الشعوب العريقة في الفضائل ، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشري مدة ثمانية قرون بينما كنا يومئذ مثال الهمجية »

ويقول« بريقون »[٢] :

« العلم هو أجل خدمة أسدتها الحضارة العربية الى العالم الحديث ، فالأغريق قد نظموا وعمموا ، ووضعوا النظريات ولكن روح البحث وتركيم « ترتيب » المعرفة اليقينية ، وطرائق العلم الدقيقة ، والملاحظة الدائبة المتطاولة ، كانت غريبة عن المزاج

---

(٢) في كتابه تكوين الانسانية ـ عن كتاب الاسلام والغرب تأليف روم لاندو ص ٢٤٥ .

الإغريقي ، وإنما كان العرب هم اصحاب الفضل في تعريف أوربا بهذا كله ، وكلمة موجزة : فإن العلم الأوربي مدين بوجوده للعرب » .

ويقول « روم« لاندو »(٣).

« وحين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم ، يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه ، خلال مائتي سنة انقضت على وفاة الرسول ليس غير ، وعمق ذلك التقدم ، امرا يدعو إلى الذهول حقا ، ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضا ، أن النصرانية احتاجت الى نحو الف وخمسمائة سنة ، لكي تنشيء ما يمكن أن يدعى حضارة مسيحية » .

ويحلل هذه الظاهرة المذهلة فيقول انها بسبب من :

● الرغبة المتقدة لدى المسلمين في اكتساب فهم أعمق للعالم كما خلقه الله .

قبولهم للعالم المادي لا بوصفه دون العالم الروحي شأنا ومقاما ، ولكن بوصفه صنواً له في الصحة والرسوخ .

● واقعية قوية تعكس في صدق واخلاص طبيعة العقل العربي اللاعاطفي .

● وأخيرا فضولهم النهم الذي لايعرف الشبع في المعرفة .

● ففي الاسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ، ويتخذ طريقا معاكسا ، لأن الأول في نظرهم كان باعثا على الثاني ، وكان الاسلام هو الذي فعل هذا كله .

(٣) ص ٢٤٦ من كتابه السابق .

ولقد قدر علماء الغرب كثيرا من علماء المسلمين ، وكتبوا عنهم ما تزهو به حضارة الاسلام ، ويزهو المسلمون .

فالبيروني يقول عنه الغربيون : انه أعظم عقلية لا في الشرق وحده ولا في الغرب وحده ، ولا في العصور المتوسطة ولا في الحديثة ، بل إنه أكبر عقلية في التاريخ .

■ والكندي يقول : انه أحد ثمانية في العالم ، نبغوا في الرياضة ، وكان مع ذلك طبيبا وفيلسوفا وموسيقيا ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، والرازي الطبيب والخوارزمي ، وجابر بن حيان وابن رشد وغيرهم كثيرون من مئات وآلاف المسلمين النابغين في هذه العلوم ، وكانوا يتمتعون برضا الخلفاء المسلمين وتشجيعهم ، لم يقم في وجههم عائق من دينهم او من حكامهم ، بل كانوا وكان الجميع يعتبرون عملهم عبادة في دائرة عمله ، وكشفا عن مكنونات الله التي أمر بالكشف عنها ، والوصول الى أسرارها ، حتى ليقول جوستاف لوبون : إن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين . ويقول آخر : لا أدري كيف اعطانا الاسلام في مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد افراده ، وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثني عشر قرنا في اوربا ، ولم تعطنا فلكيا واحدا » .

ولما قال « جاليلو » : إن الشمس هي مركز الكون ، وليست الارض ، مخالفا بذلك رأي الكنيسة ، حكموا عليه بتحديد إقامته ، بعيدا عن روما مدى الحياة ، وهو في شيخوخته ، وعاش في هذه الوحدة القاتلة ثماني سنوات ، فقد فيها بصره ، ثم مات . . . بالرغم من أنه اضطر لأن يعلن أمام محكمة التفتيش انه مخطىء ومذنب ، وأن رأيه مناف للايمان ، مجاراة لرأي الكنيسة ، وتخلصا من الحكم

بالإعدام ، ولكن المحكمة كانت تعرف انه يجاريها ، ويجاري الكنيسة . . فأصدرت هذا الحكم المخفف في نظرهم سنة ١٦٣٣م وفي ٢ / ٧ / ١٩٦٨ ، نشرت « الأهرام » أن كاردينال النمسا أعلن انه ستعاد محاكمته لتبرئته مما نسب اليه ، بعد نحو أربعمائةسنة .وقد أعلن بابا الفاتيكان في أواخر سنة ١٩٨٠ أنه قرر إعادة فتح ملف « جاليلو » للنظر في قضيته من جديد ، طبعا توطئة لتبرئته . وهذه صورة مما كان يحدث في أوربا حتى القرن السابع عشر ، بينما كانت شمس الحضارة مشرقة على العالم الاسلامي وتشع منه على العالم كله قبل ذلك بنحو الف عام فما الذي أحدث هذه النهضة غير القرآن ومبادىء الاسلام ، وحرص المسلمين على العمل بهذه المبادىء في حياتهم ؟ فارتفعت بهم إلى هذه المنزلة . . وجعلت منهم سادة العالم في وقت سريع . .

[القرآن هو القرآن والاسلام هو الاسلام]

ولا يزال القرآن هو القرآن ، لم يتغير منه حرف ، ولا تزال سنة الرسول ﷺ هي سنته ، ولا تزال المبادىء الاسلامية التي قامت عليها حضارتهم ، هي المبادىء نفسها لم تتغير . .

لكن الذي تغير هو الانسان ، هو موقف المسلمين من هذه المبادىء ، فبعد أن كانوا حريصين على صوغ حياتهم على أساسها ، لم يعودوا ملتزمين بها ، وتركوها إلى أهوائهم ، وتساهلوا في تمسكهم بأخلاق الاسلام ، واستبدلوا بها غيرها مما لا يقره ولا يرضاه دينهم . فكانت النتيجة تطبيق سنة الله في الحياة عليهم ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ، فتغيرت حياتهم ، وتحولت من قوة إلى

ضعف ، ومن تقدم إلى تخلف ، وسبقتهم أمم أخرى غير اسلامية أخذت بجوهر الفضائل والاخلاق والتعاليم الاسلامية ، فجرت عليهم سنة الله ، وارتفعوا وسادوا ، بينما تخلف المسلمون . حتى وجدنا الشاعر الألماني ، حينما ذكرت له مبادىء الاسلام واخلاقه ، يقول معبرا عن واقعهم :

إذا كان هذا هو الاسلام .. ألسنا كلنا مسلمين ؟

يعني أنهم يسيرون على نفس الأخلاق التي ينادي بها الاسلام ، ولو لم يشعروا ، لكنهم سادوا وتقدموا بها . . وهو ما يعبر به بعضنا حين يقول : هناك إسلاماً ولا مسلمون ، وهناك مسلمين ولا إسلام . .

كالدواء يهمله مريض فيضعف ، ويتناوله آخر فيصح ويقوى ، ولو لم يذهب إلى الطبيب الذي كتب الدواء . . والدواء هو الدواء لم يتغير ، ولكن الذي يتغير هم الناس المحتاجون إليه ، من حيث إقبالهم عليه ، أو إهمالهم له ! ومثل الأرض الخصبة . . يتعهدها فلاح بالحرث والزرع والسقي ، فتنبت وتعطي ، ويهملها آخر فلا تعطيه شيئا . .

والأرض هي الارض الخصبة التربة ، ولكن استغلها إنسان فجادت بالخير ، وتركها إنسان فاحتبس عنه خيرها . . وليس من الانصاف أبدا أن نلوم الطبيب ونلعن الدواء الذي أهمله المريض ، وليس من الانصاف كذلك أن نلعن الأرض الخصبة ، ونعفي مهملها من اللوم ، وهو السبب .فالاسلام ومبادئه ، هو الذي نهض بالعرب ، وبكل أمة اعتنقته واخذت به : عقيدة ونظاما ، وهو الذي اسدى كل هذا الخير ، وكل هذه الحضارة لتابعيه على مدى قرون عديدة ومنهم إلى

غيرهم . .

وكانت تجربة ناجحة طوال هذه المدة ، لا يغض من جلالها أبدا ، إن تابعيه حينما لم يحسنوا التعامل معه وبه ، تغيرت حالهم ، وانحط شأنهم . .

وكان يمكن أن يرد هذا الاتهام ويكون مقبولا ، لو أن واقع المسلمين الآن متفق ومطابق لتعاليم الاسلام أما وهو مخالف لتُعاليم الاسلام ، خارج عليها ، فلا يجوز أن نحمله وزر تخلف المسلمين ، بل إن حالة الضعف التي أصابت المسلمين ، حين تركوا التعامل به ، دليل آخر قوي على صلاحيته وفعاليته للنهوض بكل من أخذ به .

فالدواء حين يتناوله مريض فيصح ويقوى ، وحين يتركه ينتكس ويضعف ، تبرهن الحالة الثانية على سلامته وجدارته كدواء . . ولا يمكن لعاقل مهما تبلغ درجة عقله ، أن يأخذ من الحالة الثانية دليلا على عدم صلاحية الدواء ، لأنه لم يستعمل ولم يجرب فكيف يساغ لنا حين اهماله ، أن نحكم عليه بعدم الصلاحية ؟ . كما يحكم الغربيون على الاسلام من واقع حال المسلمين الآن !! ويتركون لنا أن نحكم عليهم بالغرض والهوى ، أو بقصر النظر ، لأنهم لم يعمموا نظرتهم ، وينظروا الى تاريخ تجربة الاسلام مع تابعيه على مر العصور ، منذ جاء الاسلام ، ونزل بأنظمته واخلاقه لواقع الحياة ، فكانت اسعد وأقوى حياة .

إنهم لو فعلوا هذا ونظروا نظرة شمولية لتاريخ الاسلام مع المسلمين ، كما يفعل كل باحث عاقل محايد ، ما كان يصدر عنهم مثل هذا الحكم ، ولاتجه بحثهم إلى سبب آخر لضعف المسلمين

وتأخرهم . .

فما كان الذين قادوا الجيوش وفتحوا العالم ، وقضوا بجيوشهم على أكبر دولتين . ولا الذين قادوا الحركة العلمية بكل فروعها وموضوعاتها ، ولا الذين بنوا هذه الحضارة الاسلامية المزدهرة الشامخة ، ما كان هؤلاء جميعا إلا صادعين بأمر الله ، مجاهدين في سبيله ، في كل مجال عملوا فيه . . منفذين لتعاليم الاسلام وتوجيهاته . .

« روى أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي في الرياضيات السماوية لبطليموس ، على استاذه « الأبهري » فدخل عليهما بعض الفقهاء يوما ، فقال لهما : ما الذي تقرآنه ؟ فقال الأبهري : أفسر أية من القرآن ، وهي قوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾[٤] فأنا أفسر كيفية بنائها .

وقال الامام الرازي يعلق على هذه الرواية بعد ما ذكرها : ولقد صدق الأبهري فيما قال ؛ فإن كل من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله ، كان اكثر علما بجلال الله وعظمته .

وهكذا كان المسلمون ينطلقون إلى كل عمل ، وكل علم ، وكل جهد ، بدافع الاسلام ، وبتحريك منه . . حتى لا يمكن أن يدعى أحد أن هذه الحضارة صنعها المسلمون خارج الاسلام ، كما حصل في الغرب ، حين بنوا نهضتهم خارج رأي الكنيسة . . ولقد كتب الباحثون من الغرب ، ومن الشرق ايضا ، عن فضل الحضارة

---

(٤) سورة (ق) ٦ .

الاسلامية ، على بعث النهضة الاوربية الحديثة ، وكتبوا عن المساهمات الكثيرة التي ساهم بها علماء الاسلام في مختلف نواحي الرقعة العلمية والحضارية . . وما كان لهؤلاء الذين يتهمون الاسلام ظلماً ان يغضوا نظرهم عن هذه الحقيقة الدامغة الواضحة ، لولا المرض الذي يملأ قلوبهم على الاسلام والمسلمين فجعلهم يخرجون عن بداءة المنطق السليم . .

إن الاسلام لا يرضى عن وضع المسلمين الآن ، ولا عن تخلفهم وتأخرهم عن غيرهم في مجالات الحياة ، لأنه يفرض عليهم أن يعدوا أنفسهم بكل اساليب الاعداد ، ليكونوا القوة الأولى في العالم ، وليقودوه في كل مضمار « فالمؤمن القوي خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف » كما يقول رسولنا ﷺ . .

والقوة هنا ، تعني القوة في كل مجال ، قوة الايمان ، والخلق ، والجسم ، والعلم ، والحرب ، والزراعة والصناعة والتجارة ، وكل مجال يعمل فيه الانسان ، ويحتاج إليه في حياته .

وكما يعترف الدكتور « شبلي شميل » وكان شيخ ملاحدة الشرق ولكنه ، يقول بلا محاباة وفي نظرة موضوعية : « إن القرآن فتح أمام البشر ابواب العمل للدنيا والآخرة ، وجاء لترقية الروح اوالجسد ، بعد ان أوصد غيره من الأديان تلك الأبواب ، فقصرت وظيفة البشرية على الزهد والتقشف والتخلي عن هذا العالم الفاني »(٥) .

وكما يقول رسول الله ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » أي ومسلمة . وقال الأئمة ابتنباطا من القرآن والسنة ان طلب العلم

---

(٥) ص ١١ « مع الرعيل الأول » للمرحوم محب الدين الخطيب . .

يكون فرض كفاية على المسلمين ، إذا كان فيهم علماء في كل فرع من فروع العلم بمعناه الواسع ، الذي يشمل كل علم وكل صنعة وحرفة الخ . . فإذا لم يكن في فرع من الفروع علماء ، كان من الواجب العيني على المسلمين ، أن يتعلموا هذا العلم ، حتى يسدوا حاجاتهم ، ولا يحتاجوا لغيرهم . فكان إقدام المسلمين على تعلم العلوم ، على اختلاف موضوعاتها تلبية لأمر الدين . . ومن هنا كان الاسلام هو باعث النهضة الاسلامية بهذه الصورة المشرقة والاسلام بقواعده ومبادئه ونظمه العامة في الحياة لا يزال ، ولن يزال هو هو ، لا ولن يتغير فمن سوء الحكم وفحشه ، ومن الخضوع للهوى والحقد ، أن يقول عاقل : إن الاسلام هو السبب في تأخر المسلمين الآن . .

[لكن هؤلاء هدف]

ونحن لا يغيب عنا ما وراء هذا الحكم ضد الاسلام من غرض ، فهم ليسوا بلهاء ولا جهلاء بما صنعه الاسلام والمسلمون للحياة وفي الحياة . ولكنهم يرمون إلى أن يرسبوا في أعماق المسلمين أن دينهم هو السبب في تأخرهم ، والمسلمون بطبيعتهم ينزعون للتقدم ، وخلع لباس التخلف والتأخر عنهم ، فإذا اقتنعوا بما يدعيه هؤلاء المغرضون ، من ان دينهم هو السبب في تأخرهم ، تخلوا عنه ، وانطلقوا في الحياة بدونه وتحللوا منه . . وهذا هو نهاية القصد ، وبلوغ المراد عند هؤلاء المتهجمين . .

وخسروا ، وخابوا ، وضل سعيهم - والحمد لله - بفضل رجال من علماء المسلمين كشفوا زيف اتهامهم ، وبرهنوا للمسلمين عن

جوهر دينهم وتعاليمه . . وأن ما هم فيه الآن ، إنما هو بسبب تخليهم عن مبادىء الاسلام وتعاليمه ونظمه ، فبدءوا يصلحون حالهم ، ويلتمسون الطريق للتقدم ، من خلال دينهم والحمد لله . .

ولم يكن مجرد كلام ، ذلك الذي وضعه الرئيس المسلم محمد انور السادات ، قاعدة لانطلاق الدولة في شتى مجالات الحياة وهي « قاعدة العلم والايمان » العلم في ظل الايمان ، وبدافع وحراسة منه - حتى لا يكون علما مدمرا ، ولا علماً مع إلحاد الشيوعية .

ولم توضع هذه القاعدة إلا بعد يقين بأن الدين أقوى دافع للعلم ، وللتقدم ، وللقوة في كل مجال نحبه لأنفسنا - فمع التدين والايمان لا مع الإلحاد نندفع نحن المسلمين إلى الاستفادة مما وصل اليه غيرنا ، وسبقنا به من العلوم وأحدث ما وصل اليه من التكنولوجيا فقد علمنا رسولنا ان « الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها » ، ونندفع أكثر ليكون منا المخترعون والمكتشفون والنابغون في كل ميدان ، ونقود قافلة الحضارة . . وأنني لا أزال اذكر ما قاله المرحوم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت حينما كان شيخا للأزهر ، ويرن في أذني صوته ، حين سئل عن رأي الاسلام في الصعود للقمر ، فلخص رأي الاسلام ورأي علمائه في جملة مختصرة : « لو استطعت ان أكون اول صاعد للقمر لفعلت وما تأخرت » .

هذا هو الرأي الصحيح المستقيم للاسلام ، وإن كانت هناك بعض حشرجات متناثرة من مدعي العلم بالاسلام ، يغمغمون بكلمات بعيدة عن الاسلام ، تذهب مع الهواء ، والركب الاسلامي الجاد في طريقه الصحيح ، والحمد لله . فليس هناك علم من العلوم إلا والمسلمون جادون في تعلمه وليست هناك صناعة من الصناعات إلا

والمسلمون مقبلون بنهم على تعلمها ، بوحي من دينهم ، وتلبية لصالحهم ، وتوفيراً للقوة التي أمرهم الله ان يعدوها لأنفسهم ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ .

وتحقيقا للعزة التي كتبها الله لهم ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ .

إن المسلمين تخلفوا حقيقة ، ولكن لم يكن تخلفهم بسبب تمسكهم بدينهم ، بل بسبب اهمالهم لدينهم ـ كما قلنا مرارا ـ وقد بدأت اليقظة الاسلامية تدب في النفوس ، وتقبل هذه النفوس على دينها تصحح به طريقها ، وتسدد على نوره خطوها ، وتصلح أخطاءها ، وتعوض ما فاتها . .

والحضارات تدور ، إن لم يصبها الفناء ، كحضارات قديمة ، فنيت وبادت ، بعد أن سادت ، ونحمد الله على أن حضارة الاسلام لم تمت ـ وإن كانت قد رقدت زمنا ـ لكنها ـ والحمد لله ـ بدأت في خطوها الجديد ، للظهور والسيادة « وتلك الايام نداولها بين الناس » .

وما دام القرآن بيننا ، يحث فينا روح الايمان والعمل ، فلن تبيد حضارته ، وقد وعد الله وتكفل بحفظه ، وهذا بالتالي ، وعد وتكفل من الله ـ وهو لا يخلف الميعاد ـ بحفظ حضارته ، وتعاليمه ، ولغته ، وأمته ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ وهذه ميزة خاصة بالاسلام ، وأمته ولغته ، وحضارته ، برغم أنف الحاقدين والمتربصين ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا

عاملون وانتظروا إنا منتظـرون ﴾ فللاسـلام رب يحميه ، وجنـود يحرسونه ، ويفنون فيه .

على أننا إذا دخلنـا في بعض الحـوارى التـي يعبـث فيهـا هؤلاء المغرضون ، وتناولنا بعض التفـاصيل الموضـوعية لأهـم النقـط التـي يطعنون بها ، ويدعون أنها من تعاليم الاسلام ، وأنها السبب في تأخر المسلمين ، وعدم أخذهم الحياة بروح الجد والانتاج ، وجدنا ان من أهم النقط التي يثيرونها ، ويعتبرونها سبباً أو من الأسباب المهمـة في تخلف المسلمين ، هي ما يسمونه :

[التواكل]

ويقولون إن الاسلام يعلم المسلمين أن يأخذوا بمبدأ التواكل ، مع أن كلمة التواكل ومشتقاتها لم ترد في القرآن ، ولا في السنة ، ولا في أي تعليم من تعاليم الاسلام ، كشيء يجب او يجـوز للمسلمـين أن يأخذوا به ، وإذا ورد في كتاب او حديث من أحاديث العلماء فإنما يرد ويذكر لذمه والتنفير منه ، كخلق سيىء . .

لأن التواكل هو : عدم العمل ، وعدم الأخذ في أسباب الأمور المطلوبة للمسلم ، ارتكانا على أن الله سيحقق له الغرض المطلوب ، بدون سعي ، وبدون عمل أو جهد ، واعتمادا على أنه « ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » وأن ما قدره الله للانسـان لا بد حاصـل وواقـع ، ولـو لم يعمـل شيئـا ، ولـم يبـذل جهـدا ، لتحقيق هذا المقدور .

وعلى أساس هذا ترك المسلمون الأعمال ، وقعدوا وانتظروا تحقيق

الآمال . . هكذا يقولون ، ويتهمون الاسلام بهذه الروح . . لكن هذه الفكرة غريبة على الاسلام كل الغرابة ، وبعيدة عنه كل البعد ، بل ومناقضة لما امر به من سعي وعمل ولما مدح به العاملين المخلصين في آيات كثيرة من القرآن ، وفي أحاديث كثيرة ايضا ، فالاتهام مرفوض من أساسه . فالله سبحانه : يقول : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾(٦) .

ويقول قبل هذا في السورة نفسها : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ـ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾(٧) .

وايات كثيرة تمدح الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتعدهم خير الجزاء ، وتأمر المؤمنين بالجهاد والقتال والتضحية بالروح للدفاع عن دينهم وأنفسهم ، كما تأمر بالسعي في الأرض لتحصيل المعاش ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾(٨) .

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾(٩) ، والانتشار في الأرض ، والضرب في مناكبها وأعلى أماكنها ، ابتغاء وطلبا لتحصيل الرزق الطيب ، هو العمل في كل مجالات الحياة مهما تكن صعبة . .

---

(٦) التوبة / ١٠٥ .
(٧) التوبة / ٩٤ .
(٨) الجمعة / ١٠ .
(٩) الملك / ١٥ .

وهناك أحاديث كثيرة أيضا تأمر بالعمل ، والجد فيه ، وتمجده ، وتضعه في مقام الجهاد في سبيل الله ، بينما تذم البطالة والكسل وتنذر الكسالى الخاملين بالعذاب الأليم ، ولو كانوا في كسلهم وبطالتهم يتعبدون .. لأن للعبادة ، من صلاة ، وقراءة قرآن وغيرهما وقتا تنتهي فيه ،فشغل بقية الوقت بالاستمرار في العبادة مع ترك العمل لتحصيل الرزق يعد جناية على الاسلام ، وعلى الفرد وعلى الأمة الاسلامية .. ولذلك سمى الله المنقطعين للعبادة التاركين للعمل معتدين ، وقال لهم ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ وفضل الرسول ﷺ الأخوة الذين يؤدون الفرائض ، ويعملون لكسب معيشتهم ، ومعيشة اسرتهم فضلهم على أخيهم المنقطع للعبادة ، وقال لهم « كلكم خير منه » وقال ﷺ : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » وعمل اليد كناية عن اي جهد يبذله العامل لكسب معيشته .. فكيف يقال : إن الاسلام يعلم المسلمين مبدأ التواكل ؟؟

[حياة الرسول والصحابة خير رد]

ولو كان التواكل وعدم العمل ، اعتمادا على أن الله متكفل بكل حاجات الإنسان ، دون سعي وجهد منه ، مبدأ من مبادىء الاسلام ، أو حتى من هامشيات الاسلام ، لكان الرسول ﷺ أول الناس اتباعا له ، وكان اولى بأن يسارع الله سبحانه لتحقيق رغباته إكراما له ، وللرسالة الإلهية التي يؤديها ، بدلا من العناء الذي رآه ﷺ .

ولكننا نرى من سيرة الرسول غير ذلك تماما ، وهو الذي يتفق مع نظرة الاسلام الطبيعية للحياة ، فلقد سلك الرسول الطريق الطبيعي

الإلهي وهو العمل ، واتخذ كل الاسباب التي توصله لغايته ، بالعمل المضني ، والجهاد العنيف ، وتعرض هو وأصحابه لشتى انواع التعذيب ، والمهانات من أعدائه ، واضطر للهجرة وترك الوطن مع صحابته ، ثم خاض الحروب ، واستعد لها ، وخطط لكي يكسبها وأصيب هو في الحرب ووقع من الصحابة كثير من الضحايا شهداء ، وكان أحيانا ينتصر ، وأحيانا ينهزم ويصاب ، وما ترك وسيلة ولا سببا لتحقيق اغراضه الا اتخذه . .

وهكذا سار اصحابه ، والمسلمون من بعده على نهجه ، لم يتواكلوا ويتركوا العمل ، إتكالا على أن الله سيرزقهم أو ينصرهم ، وكان عمر رضي الله عنه يقول : إني أرى الرجل فأحترمه ، ثم اسأله : هل لك من حرفة ، فإذا قال لي : لا ، سقط من عيني ، وهو الذي قال أيضا : اعملوا فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . . قال ذلك لجماعة قعدوا عن العمل ، وفهموا معنى التوكل في الاسلام خطأ ، فضربهم ، وقال : إنما المتوكل من يزرع الحب ، وينتظر الحصاد من الرب يعني : الذي يعمل ويأخذ في الاسباب ، وينتظر من الله أن يوفقه ، ويبارك له في حصاده .

فالاسلام بكل اقواله ، وبسيرة الرسول العملية ، وبما سار المسلمون الصالحون عليه ، فهما للقرآن والسنة ، كل ذلك ينفي نفيا تاما فكرة التواكل في الاسلام . .

فإذا كان التواكل من الاسلام ، وكان كسل المسلمين ، وعدم إقبالهم على العمل ، وإتخاذ وسائل التقدم ، أمرا نابعاً من الاسلام ، ومن عقيدة المسلم في الله . فلماذا لم يكن الرسول والسابقون من المسلمين على مر القرون يعملون بهذا ؟

هل يمكن أتهامهم بأنهم لم يفهموا الاسلام ؟ وإنما المتأخرون هم الذين فهموه وعملوا بمقتضاه ؟!!

وهل يمكن اتهام الرسول وصحابته والمسلمين من بعدهم ، بأنهم ساروا على منهج يخالف الاسلام ، حين عملوا وكدوا وسعوا ، ونهضوا ، وحاربوا ، وتعلموا ، ونبغوا . . ؟!!

فالذين يهاجمون الاسلام ، وينسبون اليه انه سبب تخلف المسلمين ، بما زرعه فيهم من مبدأ التواكل ، أناس تافهون ، واتهامهم تافه مثلهم . . ﴿ قل الله ،ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ .

[القضاء والقدر]

ويتصل بهذا ما يلغطون فيه ـ كالأطفال الذين يلعبون في التراب ، مما يتعلق بعقيدة القضاء والقدر دون فهم لها . . إنها مجرد

عقيدة بأن الله يعلم كل شيء في السموات والأرض ، وأنه قدر الأمور من قديم وخطط لها حسب علمه ، وحكمته . . وكل ذلك يختص هو سبحانه بعلمه ، لا يعلمه أحد من الناس ، وقد خلقهم واعطاهم العقل ، وأمرهم بسحن التفكير والعمل ، والمجال أمامهم واسع ، للتفكير والعمل ، لا حجر على هذا أو ذاك ، وما دام المقدر غائبا عن المسلم لا يعلمه ، واحتمالات الفوز والفشل مطروحة أمامه ، ومتروكة لحسن تفكيره وجودة عمله ، فليعمل ، وليجتهد ، وليتخذ من الأسباب ما يتهيأ له ، وما يقدر عليه ، والنتائج تأتي مترتبة على مدى

حسن التفكير والعمل ، وحسب ما علمه الله من الأزل . .

وعلم الله مقدما بما سيحصل من تفكير وعمل واتخاذ أسباب ، أو بعـدم شيء من ذلك ، لن يؤثر مطلقا على تحركات الانسان ، لأنـه علم وانكشاف لله وحده يحتفظ به ، ولا يعلمه الانسان ، بل يجهلـه تماما ، يجهل المستقبل ، يجهل الغيب المنتظر له ، ومن نقطـة جهـل الانسان هذه ، تنبع حريته في الفكر والحركة وتنبع مسئوليته فالانسان منـا يتحمس للمشي في طريق ، ولا يعلـم ما خبـيء له ، ولا ماذا سيحصل فيه ، ولكنه عند الله معلوم ، وعند الانسان مجهول ، وجهل الانسان بما سيحصل ، هو الذي جعله يفكر في اتخاذ هذه الطريق ، وسار فيه فعلا ، معتقدا أنه سيصل به الى غايته . وسيلاقي اهلـه أو أحبابه ، إلى غير ذلك ، مما يفكر فيه الانسان ويقدره . . لكنه يحصل له أحيانا في الطريق حادث ، يموت به ، وقد كان جاهلا بذلك ، لكن الله يعلمه ولو ان الانسان علم ماذا سيحصل له في الطريق لما فكر وسار فيه . . وعدم علمه بهذا من اول الأمر هو الـذي أتـاح له أن يكون حرا ، وأن يفكر : هل يذهب اليوم ؟ هل يذهب من هذا الطريق ؟ هل يأخذ سيارة أو قطارا ؟ وهل ، وهل ؟ ثم ينتهي به الأمر بعـد الموازنة والمفاضلة إلى اختيار الطريق ، واختيار الوسيلـة ، ثم يتخـذ الخطوات للتنفيذ ، دون احساسه بأي ضغط عليه .

فعلم الله القديم بالأمر وتقديره له حسب علمه ، لم يؤثرا مطلقا على حركة عقله وتفكيره وجسمه ؛ لأنه لا يعلم شيئا من ذلك مطلقا ، والعلم ليس صفة تأثير وقهر .

ومن هذا المنطلق الصحيح ، نأخـذ نحـن في محاسبـة انفسنـا ، ومحاسبة غيرنا ، ونجتهد في العمل ، ونوجه من حولنا لهذا الاجتهاد ،

لأن الله وضع وقدر لكل شيء سببا ، فالنجاح سببه المذاكرة ، والحصاد يسبقه الحرث والبذر والسقي ، والتعهد للزرع . . ولا ثمرة بدون عمل ، أو بدون سبب يؤدي إلى هذه الثمرة . . وهكذا . .

فالايمان بعلم الله المحيط بكل شيء ، وبقدره الذي قدره للانسان ، لا دخل له مطلقا في حرية الانسان في عمله ولا يحجز أي انسان عن العمل حتى ولو كان من الجبريين ، فإن سفسطة الجبريين ينقضها حرصهم على العمل . . والله الذي أمرنا بأن نؤمن بعلمه ، وقدره ، وقضائه ، هو الذي أمرنا بالسعي والعمل ، وبذل الجهد والعرق ، وبذل الروح إذا اقتضى الأمر

ولو كان الايمان بالقدر الذي امرنا الله به ، يعطل العمل ، أو يجعله بلا فائدة ، ولا نتيجة ، لما امر الله بالعمل ، وإلا كان متناقضا معه ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . .

إذ لا يمكن أن أقيد يديك ورجليك ، ثم أقول لك : إعمل ، وقد السيارة أو الطائرة ، أو احرث وازرع أو قف على ماكينة وأدرها . . لأن هذا غير معقول ولا مقبول ، بل يثير العجب والاستغراب والاستنكار . .

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

فكيف ؟ هذا غير معقول . . والذي يقول : إياك أن تبتل بالماء ، بعد ان قيدك وألقاك في البحر ، إنسان معتوه ، مكانه « مستشفى المجاذيب » !!! ولو كان من تعاليم الاسلام أو حتى مما يتصل به من بعيد ، عدم العمل اعتمادا على الاعتقاد بعلم الله وقضائه وقدره لكان

الرسـول وصحابتـه أول المؤمنـين به والمنفـذين له ، بعـدم العمـل والسعي ، ولكن ذلك لـم يحصـل كما نعرف .

ثم إن المسلمين ليسوا وحدهم الذين يؤمنون بالله وعلمه وقـدره وقضائه ، فالمسيحيون واليهود على الأقل ، يؤمنون بهذا أيضا ، فهل عطلهم إيمانهم عن نهوضهم ؟ أو أنهم انسلخوا من إيمانهم . . وقد كان المسلمـون أقـوياء وهـم يؤمنـون بالقـدر لـم يعطلهـم ايمانهـم به عن العمل ، فلا وجه مطلقا لإثارة هذا الاتهام في وجه الاسلام ، إلا إذا كان المراد مجرد الشوشرة ، وشغل أوقات الناس .

وإذا كان المسلم أو أي انسان آخر يؤمن بالقضاء والقدر ، ويفهم ان ذلك يعطله عن العمل ، ويرفع المؤاخذة عمن يخطىء ، فلماذا نراه يعمل ويجد ويجتهد في الحياة ؟ ثم لماذا نراه يحاسب غيره عن الأخطاء التي تصدر عنه ، سواء كانوا من أسرته أم غرباء عنه ؟ كيف تريد من الله أن يرفع مؤاخذته ، ثم تؤاخذه انت ؟ ألا يكون ذلك ظلما وقعت فيه ؟ ووقعت فيه كل أنظمة العالم التي تحاسب المخطئين العابثين في الأرض وتعاقبهم ؟ ويكون من العدل ألا يحاسبك احد أو تحاسب أحدا على خطأ ، وأن نلغي كل القوانين في العالم التي تعاقب المخطئين وهذا كله بسبب منطقك في القضاء والقدر ، وإذا كان هذا المنطق يؤدي إلى كل هذه النتائج السيئة والخطرة وغير المعقولة ، فمن البدهي أن يكون منطقا باطلا وغلطا ومن الضروري التخلي عنه . .

إنما الذي يمكن أن يثار ، ويكون له مسحة من شبهة ، هو أن بعض المسلمين أنفسهم في العصور المتأخرة انحرفـوا في فهـم معنـى القضاء ومعنى التوكل على الله ، الذي أمر الله به المؤمنين ﴿ وعلى الله

فليتوكل المتوكلون ﴾[١٠] وفي قوله : ﴿ فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾[١١] وفي قوله : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[١٢] . . . يمكن أن يكون قد انحرف بعضهم ، وفي العصور المتأخرة ، ومن الموغلين أو المنحرفين أيضا في التصوف ، جهلا منهم بحقيقة الاسلام ، وتعاليم القرآن ، واعطوه معنى التواكل !! والاسلام حينئذ لا يتحمل مسئولية هذا الانحراف في الفهم .

إذ لا صلة مطلقا بين التوكل ، والتواكل وان اقتربا في اللفظ ، وكان الفرق بينهما في الكتابة « ألفا » مزيدة في التواكل . . لكن هذه الألف غيرت المعنى ، وقلبته رأسا على عقب . . والأول مطلوب ، والثاني مذموم . . الأول يربط الانسان بالله ، ويشده إليه ، والثاني يبعده عن الله وعن الحياة . .

ولذلك نجد أن الله أمر بالعمل ، وأمر بالايمان بالله وقضائه وقدره ، وأمر بالتوكل كذلك عليه ؛ لأن التوكل مرتبط بالعمل كل الارتباط ، ولا يكون إلا حين العمل واتخاذ كل الوسائل المستطاعة . . واقرأ معي هذه الآية وحدها :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

---

(١٠) إبراهيم / ١٢ .
(١١) آل عمران / ١٥٩ .
(١٢) آل عمران / ١٦٠ .

فالآية تعليق على ما أثير بعد الهزيمة في غزوة أحد ، التي نزل الرسول فيها على رأي اغلبية اصحابه ، وخرجوا خارج المدينة لمنازلة المشركين ، وكان من رأيه أن يتحصنوا بالمدينة ، وهي تشير إلى خلق تميز به الرسول ، وهو لين الجانب والهدوء حتى في وقت الشدائد والأزمات ، ثم تأمره بالطريقة التي يجب ان يظل عليها بعد هذه المحنة التي تمر بهم ، تأمره بالعفو عن المخطئين ، بل باكثر من العفو ، وهو الدعاء وطلب المغفرة لهم ، ثم بأن يستمر على اتخاذ الشورى في أموره مبدأ له ، ولا يجوز ان يتخلى عنه ، لما صاحبه من محنة وقعت بهم ، لا دخل للشورى بها ، وإنما هي لخطأ وقع فيه بعض الصحابة ، حين خالفوا « التكتيك » الحربي الموضوع لهم . .

ثم يقول الله له ، إذا تشاورتم في الأمر ، ووصلتم إلى رأي نهائي في الموضوع المعروض فاستعينوا بالله في الاعداد له وتوفير أسباب النجاح فيه ، فلا تغتروا بما في أيديكم من أسباب ، وتعتقدوا أن الأمر سيتحقق قطعا ، ناسين أن تأخذوا في اعتباركم ما قد يحدث حين التنفيذ . . فقد يحدث ما ليس في حسبانكم ، ولم تتخذوا الاحتياط له ، ومن أجل هذا لا بد للمؤمن بعد أن يتخذ ما في وسعه ، أن يكون متوجها إلى الله بقلبه ، رابطا عمله بالله وقدرته ، طالبا منه التوفيق والمساعدة والعون . .

فما لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجني عليه اجتهاده

فقد يضع القائد خطة في الحرب معتقداً أنها توصله الى الانتصار ، فيكون عدوه قد وضع خطة مقابلة أحكم منها ، تفسد عليه خطته

وتوقعه في هزيمة ، ولكن يمكن أن يفسد الله على هذا العدو خطة لأوهى سبب ، تدخلاً منه لصالح المؤمنين الذين ارتكنوا إليه ، بعد أن عملوا كل ما في استطاعتهم ، كما تدخل في بعض المواقع الحربية التي نعرفها .

وقد يروى الزارع زرعه ، رغبة في تحسينه ، وربما تأتي رياح وأمطار تفسد عليه غرضه ، وتأتي بعكسه . .

فالمؤمن بمقتضى إيمانه ، لا يركن ركوناً نهائياً إلى قوته المادية ، بل لا بد أن يتصل بالله ، ويدعوه لإنجاح عمله ، ويناجيه : ربي عملت كل ما أملك للانتصار ، وعليك الباقي ، يا قوي يا قهار ، فأعنّا ووفقنا ، فقد فوضنا الأمر إليك ، بعد أن عملنا ما في وسعنا خضوعا لأمرك . .

هذا الاتصال بالله ، وتفويض الأمر إليه ، بعد بذل كل مجهود . . هو التوكل على الله ، وهو الصلة به ، وعدم الغرور . . ومن هنا نجد الفرق كبيرا ، بين التوكل الذي أمر الله به ، والذي لا يكون إلا مع العمل والسعي ، وبين التواكل الذي هو ترك العمل نهائيا . . وهو لذلك بعيد عن الاسلام بعدا تاما . . والاسلام بريء من كل انسان يقول أو يعمل به . . بينما يحب الله المتوكلين لأنهم تعلقوا به ، ويساعدهم ويعينهم ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ .

الله حسبه وكافيه ، وهو مولاه وناصره ﴿ ونعم المولى ونعم النصير ﴾ .

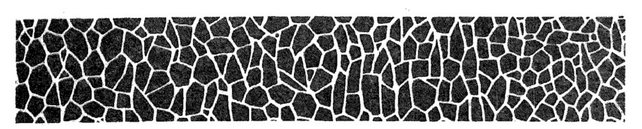
« ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

فهرست

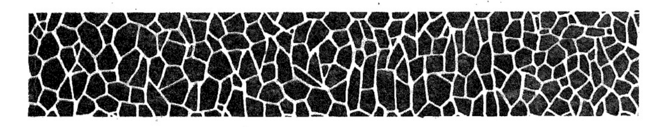
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع ١٩٩٢/٩٥٣٧

ISBN 977 / 01 / 3198 / 9



لقد كنت فرغت من كتابة تفسير آية من سورة « محمد » المسماة أيضا « سورة القتال » وهي قوله تعالى: « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » وتحدثت في تفسيرها عن موقف الإسلام من الاسترقاق ، وما ولغ فيه أعداء الإسلام من تهجم عليه ، من أجل إقراره للرق ، وألحَّ عليَّ - وأنا أكتب هذا الموضوع - خاطر طالما راودني ، وكانت المشاغل تحول بيني وبين التوفر للكتابة عنه ، وهو تقديم مادة علمية دينية مبسطة ، وسهلة لشبابنا ، عن الموضوعات التي يثيرها الغربيون ، ويجرحون بها ديننا ، هم ، ومن يعمل على شاكلتهم ، سواء من الماديين ، الذين يرفضون الأديان جملة وتفصيلا ، أم من غيرهم .



٦٦٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب